

دكتور
عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

دراسات جديدة في إعجاز القرآن

مناهج تطبيقية في «توظيف اللغة»

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

أميرة للطباعة عابدين - ت : ٣٩١٥٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

---

(١) الأعراف : ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضوان الله على صحابته الطيبين الطاهرين ، وعلى أتباعه فى الحق إلى يوم الدين .

وبعد . .

فهذه دراسة نحسبها جديدة فى إعجاز القرآن البلاغى اللغوى ، وإنما نحسبها جديدة ؛ لأن الدراسات المتعلقة بالإعجاز منذ بدأ البحث فى هذا المجال - وإلى الآن - يغلب عليها التعميم ، وتركن إلى القليل من التمثيل والشواهد مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ . . . ﴾ (٣) .

كما يغلب عليها وصف الإعجاز من الخارج ، وتحديد الوجوه التى كان بها القرآن معجزاً .

وبعض الدراسات المعاصرة انتهجت نهجاً موضوعياً فى مجال الإعجاز ، لكن ليس على هذا النمط الذى تقدمه فى هذه الدراسة ، لذلك ساغ لنا أن نصفها بأنها دراسة جديدة بينها وبين غيرها فرق كبير ؛ لأن هذه الدراسة مقصورة على « مفردات القرآن » ، أى الكلمات التى استعملها القرآن فى بناء الجملة ، والنظر فى لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى فى الكشف

---

(١) البقرة : ١٧٩ (٢) مريم : ٤ (٣) هود : ٤٤

عن أسرار الإعجاز البلاغي اللغوى ، وإلى هذا أشار كثير من أهل العلم الذين كتبوا فى الإعجاز قديماً :

كالجاحظ ، والإمام الخطابى ، وابن عطية ، أما حديثاً فقد تناولت الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) فى كتابها « الإعجاز البيانى » لوناً من هذه الدراسة ، ولكنها لم تذكر مناهج القرآن البلاغية فى المواد اللغوية التى شملتها الدراسة كما لم تهتم بالدواعى البلاغية لإيثار القرآن كلمة دون أخرى .

أما هذه الدراسة فتحسب أنها وفت بهذا كله مع الإشارة إلى دقائق الإعجاز وخفاياه ، ومحاولة إقناع القراء بالمعانى المتوصَّل إليها .

والمنهج العام فيها يعتمد على محورين :

الأول : دراسة لفظية من خلال استعمال لغة القرآن لهما ، يُظَنُّ أن هذين اللفظين مترادفين يدلان على معنى واحد ، بَيْد أن استعمال القرآن لهما يبين - فى وضوح - أن لكلٍ منهما معنًى ، حتى وإن كان اللفظان مترادفين فى الوضع اللغوى . وأحيانًا نتجاوز النظر فى اللفظين إلى ثالث أو رابع أصلها الدلالى واحد فى اللغة - وضعاً واستعمالاً ، أما فى القرآن فتجد لها دلالات دقيقة تنفى عنها وصف الترادف ، وذلك مثل : أب - والد ، إلخ .

أما **الثانى** : فقد دار النظر فيه على مادة أو لفظ واحد باحثاً عن الفروق للصياغات المختلفة لتلك المادة من الفعلية والاسمية والمصدرية ، وفى الصور الفعلية قد تختلف دلالة صورة مع دلالة صورة أخرى ، فمثلاً مادة « ختم » وجدنا القرآن المعجز الحكيم يفرق بين دلالة الصور الفعلية فيخصها بمقام لا تتعداه إلى غيره ، ومن دلالة الصور الاسمية فيخصها بمقام آخر مغاير تمامًا لمقام الصور الفعلية .

وقد سلكنا هذا المسلك فى جميع المواد التى درسناها مما ورد فى الاستعمال القرآنى .

وبعض الكلمات لم تأت فى القرآن إلا مرة واحدة مثل فعل الأمر « أقْبل » واسم الفعل « هاؤم » ، والفعل الماضى « أظفركم » وجمع المذكر السالم «قليلون » وقد هُدينا – والحمد لله – إلى معرفة السر البلاغى الإعجازى فى مجيئ هذه الكلمات فى القرآن مرة واحدة مما سيقف عليه القارئ الكريم مفصلاً مُقنعًا ، وفى بعض الأحيان كانت الدراسة تدور حول إيثار القرآن استعمال كلمات بعينها فى الدلالة على معان نجد لها خارج القرآن كلمات أخرى تحظى بقدر هائل من الشيوع والاستعمال على ألسنة الناس .

من ذلك إيثار القرآن كلمات :

الفوز – والسكينة – والناس يستعملون بدلاً منهما كلمتى « النجاح » ، و« الشجاعة » ، وكان منهج الدراسة فى مثل هذه « الموازنات » لماذا استعمل القرآن كلمة « الفوز » ، ولم يستعمل كلمة « النجاح » ؟ ولماذا استعمل كلمة « السكينة » ، ولم يستعمل كلمة « الشجاعة » مع ما لهاتين الكلمتين فى دنيا الناس من بريق وقوة سلطان ، وشيوع استعمال ؟

والموازنة بين الكلمات أو المفردات اللغوية التى كانت هى خطوط العرض والطول فى هذه الدراسة تسفر عن روائع ودقائق من إعجاز القرآن البلاغى اللغوى ، وتدل دلالة قاطعة لا يرقى إليها شك فى أن القرآن الحكيم استعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له فى كلام البشر مهما أوتوا من الفصاحة ، والبلاغة وسمُوّ البيان .

والمواد المدروسة – هنا – تبلغ أربعين مادة – إجمالاً ، ولكنها فى الواقع تناولت الكثير من « مفردات القرآن » – كما سيرى القارئ الكريم – وقد أبنَّا أن القرآن يستعمل اللفظ أو الكلمة فى مواضع لا يسد مسدها فيها غيرها من ألفاظ اللغة على اتساعها وتنوعها ، وهذا معنى عبارة ابن عطية صاحب «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز »، والتى خلاصتها :

« لو نزعت حرفاً من القرآن ثم أدرت اللغة من ألفها إلى يائها لتجد ما يسد مسده ، فلن تجد » .

والإمام الخطابى يرتب على إبدال كلمة مكان أخرى من كلمات القرآن الحكيم نتيجتين خطيرتين :

أولاهما : فساد المعنى بالتبديل .

وثانيهما : سقوط البلاغة .

وفى ذلك يقول - رحمه الله - :

« ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة - يعنى بلاغة القرآن - التى تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أُبْدِلَ مكانه غيره جاء منه :

* إما تَبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام .
* وإما ذهاب الرَّوْنق الذى يكون منه سقوط البلاغة [1] .

وهذا الذى ذهب إليه هذان الإمامان هو الصواب الخالص ، ولا ينافى ما ذهبا إليه أن القرآن معجز من حيث نظمه البديع ، على نحو ما بسط القول فيه كل من الإمامين القاضى الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وعبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

أجل : إن النظر فى مفردات القرآن على هذا النحو الذى ستقرأه فى هذه الدراسة ، لا يتعارض مع نظرية « النظم » لأن اختيار اللفظ هو اللبنة الأولى فى صرح النظم البديع المعجز ، وخطوة أصيلة فى فهم الإعجاز « النظمى »

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : (بيان إعجاز القرآن) ، للإمام الخطابى (٢٩)، تحقيق الدكتورين : محمد خلف أحمد ، وزغلول سلام - ط دار المعارف (١٩٩١م).

البلاغى الذى يكون فى دراسة التراكيب القرآنية ، وما تحفل به من سمات إعجازية تالية لا يُتوصَّل إليها إلا من خلال النظر فى التراكيب القرآنية المعجزة، ومن خلال النظر فى التراكيب القرآنية ، وأوضاعها اللغوية من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وإظهار وإضمار ، يتجلى الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى فى أبهى صوره ، وأروع نماذجه ، وأيًا كان الأمر ، فهذه تجربة جديدة تحاول استجلاء واقعية الإعجاز من الداخل - أعنى من داخل النظم القرآنى نفسه - وليست وصفاً له من الخارج تكتفى بسرد وحدة الإعجاز وضبطها دون التمثيل الدقيق والمستفيض عليها ، ومن فضل الله علينا أن ظفرنا بما يثلج صدورنا ، وبما يثبت - فى يقين راسخ - أن الإعجاز البلاغى اللغوى هو الإعجاز الذى وقع به التحدى ، وأن القرآن هو الإعجاز الذى وقع به التحدى ، وأن القرآن كله - كلمة كلمة ، وآية آية ، وسورة سورة - هو موطن ذلك الإعجاز ، وليس كلمات أو جملاً مخصوصة منه .
إنه - أى القرآن - كتاب منزل بعلم الله ، كما قال عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* * *

وسوف يرى القارئ أن المواد اللغوية التى سعدنا بدراستها هنا غير مرتبة ترتيبًا منهجياً معيناً ، والسبب فى هذا أن دراستها تمت على الترتيب الذي هى عليه - الآن - من أول مادة إلى آخر مادة . ولما أردنا ترتيبها أبجدياً بعد الفراغ منها تبين لنا أن فى بعضها إحالات إلى مواد أخرى . وأن محاولة ترتيبها أبجدياً سوف يترتب عليه ورود إحالة لم يسبق لها بيان فآثرنا إبقاءها على ما هى عليه ، وبخاصة أن ذكر مواد الدراسة مرتبة حسب ورودها فى أوائل الكتاب نرجو أن يكون فيه غناء للقارئ الكريم عن التنسيق المنهجى .

---

(١) الأعراف : ٥٢

وفي ختام هذا التقديم أتقدم لمكتبة وهبة بجزيل الشكر على ما بذلت في إخراج الدراسة من جهد مالي وذهني إيماناً واحتساباً ، وقياماً برسالتها السامية في مجال النشر الهادف الرزين.

كما أتقدم بجزيل الشكر لإذاعة القرآن الكريم فقد كانت هي السبب في الاهتداء إلى هذه الدراسة ، حين كلفتني بإعداد حلقات صوتية في برامج لغة القرآن ، فسألت الله أن يهديني لعرض سمات جديدة حول لغة القرآن ، وقد منَّ الله علينا بالمراد ، وبلغت الحلقات المذاعة ، حتى إعداد هذه المقدمة أكثر من عشرين ومائة حلقة مدة كل حقة عشر دقائق .

كما كان لسامعي برنامج « لغة القرآن » دور ملموس في إعداد هذا الكتاب، فقد اقترح علينا كثير منهم كتابياً وتليفونياً - بأن تُجمع تلك الحلقات في كتاب مستقل ، وكثير منهم لم تربطني بهم سابق معرفة .

هذا وقد علمت من السادة العاملين في إذاعة القرآن الكريم أن سامعي الإذاعة يطلبون منهم مرات إعادة ما سبق إذاعته من الحلقات . كل ذلك كان وراء إخراج هذا الكتاب الذي نرجو أن يكون مقبولاً عند الله ورسوله وصالحي المؤمنين والحمد لله في الأولى والآخرة .

المؤلف عفا الله عنه

مكة المكرمة في ٢٤ صفر/١٤١٧ هـ .

الموافق ١٠ يوليو / ١٩٩٦ م

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مواد الدراسة

١ - الأبُ - الوَالِدُ .
٢ - أقْبِلْ - تَعَالَ .
٣ - أصْحَابُ - أُولُو .
٤ - الكُرْهُ - الكَرْهُ .
٥ - النَّصْرُ - الظَّفَرُ .
٦ - قَلِيلٌ - كثيرٌ .
٧ - الرِّيحِ - الرِّيَاحِ .
٨ - الرُّشْدُ - الهُدَى .
٩ - فَرَقَ - فَرَّقَ .
١٠ - الجَسَدَ - الجِسْمِ .
١١ - عَرَفَ - عَلِمَ .
١٢ - المَسُّ - اللَّمْسُ .
١٣ - المَطَرِ - الغَيْثِ .
١٤ - النَّعِيمُ - النِّعْمَةُ .
١٥ - الجَمَالُ - الحُسْنُ .
١٦ - المَيْت - المَيِّت .
١٧ - مَدٌّ - أمَدٌ .
١٨ - العَمَل - الفِعْل .
١٩ - الجِهَادُ - القِتَالُ .
٢٠ - المخطِئ - الخاطِئ .
٢١ - كَفَّرَ - غَفَرَ .
٢٢ - مَرِض - مَرَضٌ .
٢٣ - المَرْأةُ - البَعْلُ .
٢٤ - خَتَمَ - خَاتم .
٢٥ - طَبَع - يَطْبَعُ .
٢٦ - رَبَطَ - يَرْبِطُ .
٢٧ - سَخَّرَ - مُسَخَّرات .
٢٨ - سَخِر - يَسْخَرُ .
٢٩ - السَّكِينَةُ - الشَّجَاعةُ .
٣٠ - الفَوْزُ - النَّجَاحُ .

٣١ - اللِّسَانُ - اللُّغَة .

٣٢ - صَعَدَ - يَصْعَدُ .

٣٣ - رَفَع - يَرْفَع .

٣٤ - الدُّعَاءُ - النِّدَاءُ .

٣٥ - النِّدَاءُ - الدُّعَاءُ .

٣٦ - الرَّبُّ - رَبُّ كُلِّ شَيء .

٣٧ - النُّورُ - الْمُنِيرُ .

٣٨ - الْعَمَى - الْعَمَهُ .

٣٩ - الصَّوْمُ - الصِّيَامُ .

٤٠ - ذَاق - أذَاقَ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الأبوة – الوالدية

الأب فى اللغة : هو الوالد ، والوالد هو الأب ، والأم هى الوالدة ، فقد جاء فى المصباح المنير فى مادة (و ل د) :

« الوالد الأب ، وجمعه بالواو والنون ، والوالدة الأم ، وجمعها بالألف والتاء » (١) .

ومعنى هذا أن الأب والوالد مترادفان على معنى واحد ، فكلاهما يطلقان على الأب الذكر (الرجل) ، ويُفَرَّق بينه وبين الأم (الأنثى) بالتاء ، فهو والد ، وهى والدة .

وقد جاء استعمال العرب على هذا المعنى ، فأطلقوا على الأب كلمة والد ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

وإن سنام المجد من آل هاشم　　　بنو بنت مخزوم ، ووالدك العَبْدُ (٢)

وقول عمر بن أبى ربيعة :

قالت وعيش أبى وحرمة والدى　　　لأُنبهنَّ الحى ان لم تَخْرُجِ (٣)

وقال الفرزدق :

رمانى بذنب كنت منه ووالدى　　　بريئًا ، ومن أجل الطوى رمانى (٤)

---

(١) مادة ولد (ص ٦٧١) ، إعداد : أحمد بن محمد الفيومى (م ٧٧٠ هـ) – طبعة دار المعارف ، القاهرة .

(٢) ديوان حسان .　　　(٣) ديوان عمر بن أبى ربيعة .

(٤) الكشاف (٢/٦٩٣) ، وفيه « بريا » بدل : بريئًا .

فهؤلاء الشعراء الثلاثة أطلقوا على الأب (الرجل) كلمة والد باعتبار أن الكلمتين مترادفتان كما تنص معاجم اللغة .

* *

● استعمال أب ووالد في لغة القرآن :

ذلك هو وَضْعُ أب ووالد فى اللغة ، فهل هما فى لغة القرآن مثْلُهما فى اللغة بوجه عام ؟ أم أن الاستعمال القرآنى يختلف عن التناول اللغوى لهما ؟

الواقع أن المتأمل في استعمال القرآن لكلمتى : أب ، ووالد يجد فرقاً دقيقاً بين استعمال القرآن لهما ، وبين الاستعمال اللغوى فى كلام البشر .

فالقرآن العظيم يخص كلمة « أب » بالرجل ، ويخص كلمة « والد » مع تاء التأنيث بالأنثى . ولم يرد فى لغة القرآن كلمة « والد » للدلالة على الأب الذكر ، ولا كلمة « أب » للدلالة على الأم الأنثى ما دام الحديث جارياً على الأب والأم الحقيقيين ، بل الذى فى القرآن إطلاق كلمة « أبَوَيْن » فى حالة التثنية على كلٍ من الأب والأم مجتمعين لا مفترقين ، وإطلاق كلمة « والدَيْن » مثنى - كذلك على كل منهما مقترنَيْن . فإذا جاء الحديث عن جنس الآباء والأمهات جَمْعًا غير مفرد ولا مثنى ، آثر القرآن جمع الأب على جمع « الوالد » فى كل موضع أُرِيدَ فيه الجمع .

* *

● نماذج من الاستعمال القرآنى لكلمتى أب ووالد :

- أب فى صيغة الإفراد :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (٢) .

---

(١) يوسف : ٧٨ (٢) مريم : ٢٨

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ (١) .
﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (٢) .

- أبٌ في صيغة التثنية :

﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ (٣) .
﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٤) .
﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ (٥) .
﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٦) .

في هذه الآيات الاربع جاء أبٌ مثنى مرادًا منه أبوين ذكرين وهما : إبراهيم وإسحاق في الآية الثانية ، ومراداً منه الأب الذكر ، والام الانثى في الآيات الثلاث الأولى والثالثة والرابعة كما هو ظاهر من السياق .

- أبٌ في صيغة الجمع :

هذه هي الحالة الثالثة لاستعمال لغة القرآن لكلمة أب ، ومن أمثلتها :

﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٧) .
﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ (٨) .
﴿ .. أن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ (٩) .
﴿ .. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (١٠) .

وفي هذه الآيات الاربع ورد أبٌ مجموعًا جمع تكسير مرادًا به في الآية

---

(١) مريم : ٤٣ (٢) الكهف : ٨٢ (٣) النساء : ١١
(٤) يوسف : ٦ . (٥) الأعراف : ٢٧ (٦) يوسف : ١٠٠
(٧) البقرة : ١٧٠ (٨) النساء : ١١ (٩) النور : ٦١
(١٠) يوسف : ٣٨

الاولى : السلف رجالاً ونساءً ، ومرادًا به فى الثانية آباء المخاطبين المباشرين لإنجابهم ، وكذلك الآية الثالثة على الاظهر ، أما الآية الرابعة فالمراد منها الاب المباشر للإنجاب : « يعقوب » ، ثم الجَدَّان الاول : « إسحاق » ، والثانى : « إبراهيم » عليهم السلام .

- والد ووالدة فى صيغة الإفراد :

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ (1) ، وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِى ﴾ (2) .

وقوله : ﴿ وَاخْشَوا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (3) .

وقوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (4) .

فى هذه الآيات الاربع جاءت كلمة « والد » مفردة مؤنثة فى موضعين ، ومفردة مذكرة ، ثلاث مرات :

مرتين فى آية لقمان ، وواحدة فى آية البلد ، ثم إن دلالة المرتين المؤنثتين دلالة محددة مراد منها الأم التى وضعت وأرضعت .

أما دلالة المرات الثلاث المذكَّرة فهى عامة غير مختصة بالاب الذكر ، ولا الام الأنثى ، وهذا مما يلفت الأنظار إلى دقة التعبير القرآنى الحكيم .

- والد فى صيغة التثنية :

جاءت كلمة والد مثناة مع التذكير دون التأنيث فى مواضع عديدة فى لغة القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى :

---

(1) البقرة : ٢٣٣ — (2) مريم : ٣٢

(3) لقمان : ٣٣ — (4) البلد : ٣

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [1] .

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [2] .

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ﴾ [3] .

﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [4] .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ [5] .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [6] .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًا ﴾ [7] .

وفى هذه الآيات السبع – ولها نظائر أخرى – أُريد من « الوالدان » الاب الذكر ، والام الانثى ، كما أُريد من « الابوان » من قبل فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ الاب والام معًا ، وسنعود لتوضيح هذا بعد قليل .

– والدة مجموعة جمع مؤنث سالماً :

أما مجئ « والدة » مجموعة جمع مؤنث سالماً ففى قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [8] . والمراد منها هنا ، هنَّ الأمهات اللاتى وضعن حملهن .

– إحلال صيغتَى التثنية إحداهما محل الأخرى وسببه البلاغى :

عرفنا مما تقدم أن النظم القرآنى يُحل إحدى صيغتى التثنية محل الأخرى ، فيراد – أحياناً من « أبواه أو أبويه » الاب والام ، ويراد – أحياناً أخرى من « الوالدان أو الوالدين » الاب والأم كذلك ، فما الداعى البلاغى لهذا الإحلال ، وبِمَ يسميه البلاغيون ؟

---

(1) البقرة : ٨٣ (2) البقرة : ١٨٠ (3) النساء : ٧

(4) لقمان : ١٤ (5) الاحقاف : ١٧ (6) نوح : ٢٨

(7) مريم : ١٤ (8) البقرة : ٢٣٣ .

* الإحلال هو التغليب :

هذا الإحلال يسميه البلاغيون بـ « التغليب » ، وهو عندهم : « إطلاق لفظ أحد المختلفين على الآخر إجراء لهما مجرى المتفقين » [(1)] .

وقد مثلوا له بـ « أبوان » للأب والأم ، و« العُمَرَان » لأبى بكر وعمر ، و« القمران » للشمس والقمر . ولا بد فى كل تغليب من داعٍ بلاغى يقتضيه ، فما هو هذا الداعى البلاغى فى إطلاق الأبوين على الأب والأم ؟ وإطلاق الوالدين عليهما فى لغة القرآن الكريم ؟

* تغليب الأبوة على الأمومة :

لما تتبعنا المواضع التى غلّب فيها القرآن الأبوة على الأمومة فسماهما معاً : أَبَوَيْن أدركنا أن هذه المواضع جانب الأبوة فيها أقوى من جانب الأمومة . وبيان ذلك أن آية النساء « وورثه أبواه » مقام الحديث فيها هو الميراث ، والذكر فى موضوع الميراث أقوى من الأنثى غالباً ، فالله يقول : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ كما أن الذكر يكون عصبة المتوفى فيرث ما له كله إن لم يكن للميت وارث آخر ويأخذ نصيبه إن كان له وارث آخر ، ثم يأخذ الباقى بعد استيفاء أصحاب الفروض أنصباتهم .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الرفع هنا هو الظهور والظهور أصل فى الرجال فى كل عصر ومصر ، وليس للنساء حظ فيه يعادل حظ الرجال أو يدانيه .

وكذلك إذا كان الاب مجموعًا كما فى قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ، فإن المراد من الآباء هنا هو السَّلَف الذين

---

(1) البرهان فى علوم القرآن (٣/ ٢-٣) مع تصرف فى الصياغة ، وانظر المطول (١٥٨) .

ينتمى إليهم المشركون ، فهم قدوتهم فى الرأى والريادة ، والرأى والريادة من خصائص الرجال دون النساء فهم القادة والزعماء .

ونظيره قول يوسف عليه السلام : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ حيث لم يذكر معهم الأمهات .

والخلاصة : أن القرآن لا يغلب الأبوة على الأمومة اعتباطًا بل لملمح بلاغى دقيق ، وهكذا جميع الآيات التى غُلِّبَ فيها جانب الأبوة على الأمومة .

*** تغليب الأمومة على الأبوة :**

ومثلما سلك القرآن فى تغليب الأبوة على الأمومة ، سلك المنهج نفسه فى تغليب الأمومة على الأبوة ، فسمى الاب والام والدَيْن فى كل موضع كان جانب الأمومة فيه أرعَى واظهر من جانب الأبوة .

فمثلاً جميع الآيات التى تأمر أو توصى الأبناء بالإحسان بالام والأب يُغَلِّب القرآن الحكيم جانب الأمومة على الأبوة ، ففى آية الإسراء - مثلاً - وهى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (1) ، غَلَّبَ القرآن جانب الأمومة على جانب الأبوة ، فسمى الأم والأب والدين لان الامهات أحوج إلى العطف والإحسان من الآباء وهنَّ كما يحتجن إلى عطف الأبناء يحتجن إلى عطف الأزواج ، وما أكثر ما أوصى صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم برعاية الأزواج لزوجاتهم كما جاء فى خطبة حجة الوداع وغيرها .

هذا هو الداعى البلاغى لتغليب أحد الوصفين - الأبوة والأمومة - على الآخر . نسق حكيم ، واعتبارات دقيقة آسرة حفل بها البيان القرآنى المعجز ، الذى أنزل بعلم الله المحيط .

● صورة من التغليب :

هذا فى صيغ التثنية « أبوان - والدان » ، أما فى الجمع فنحن أمام صورة أخرى من صور التغليب ، فآية البقرة السابقة :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ لم يقل أجدادنا قط لا فى هذه الآية ،

---

(1) الإسراء : 23

ولا فى غيرها من آيات القرآن كله ، التى ورد فيها « الأب » مجموعاً جمع تكسير ، فقد غلّب القرآن جانب الآباء الأدنين المباشرين للإنجاب على الأجداد الأدنين والأبعدين ، فما هو الداعى البلاغى يا ترى ؟

الذى هُدينا إليه هو أن الآباء المباشرين للإنجاب صلتهم بالأبناء ألصق من صلة أجدادهم بهم ، فهُمْ - أعنى الآباء المباشرين للإنجاب - أقوى جانباً - هنا - من الأجداد ، لذلك - والله أعلم - غَلَّب القرآن وصفهم على وصف الأجداد ، هذه واحدة ، أما الثانية : فإن الجد - مهما بَعُد - يصح أن يسمى أبًا ، ومنْ ذلك تسمية القرآن إبراهيم - عليه السلام - أبًا لنا مع الفارق الزمنى المديد بيننا وبينه ، ومع كثرة الأجداد بيننا وبينه ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [1] .

أما الأب فلا يصح - أبدًا - أن يسمى جَداً ، فتأمل معى جيدًا هذه اللغة البارعة المعجزة ، لغة التنزيل المنزَّل بعلم الله الحكيم الحميد .

* *

● شبهات مردودة :

من حق القارئ الكريم أن يقول : إذا سلمنا لكم كل ما هديتم إليه من حقائق ، فماذا نفعل فى قوله تعالى فى آية لقمان السابقة :

﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾

وآية الأحقاف السابقة :

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا . . ﴾

---

(١) الحج : ٧٨ .

ففى آية لقمان ورد « والد » مفردًا مرتين مرادًا به « الاب » المذكر ، ومثلها آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

وفى آية الاحقاف سُمِّى الاب والام « وَالِدين » فى غير مقام الإحسان ؟ كما أن الإحسان منتفٍ فى آيتى لقمان والبلد ، وهذا ينافى ما ذكرتموه من قبل ؟

والجواب :

لا منافاة بين هذه الآيات وبين ما هُدِينا إليه من قبل ، والبيان :

١ – إن آية لقمان وقد تكرر فيها : « والد » مرتين لم يُرِدْ فيها الاب الذكر ، بل هو والام الوالدة ، فالآباء والأمهات جميعًا لا يجزون عن أبنائهم شيئًا ، والابناء لا يجزون عن آبائهم ولا عن أمهاتهم شيئًا يوم القيامة ، فإن لكل امرئ منهم يومئذ شأناً يغنيه . فالوالد فى هذه الآية مراد منه الآباء والأمهات معًا .

هذه واحدة ، أمَّا الثانية فإن المقام فيها مقام إحسان فى الأصل ، فالمجازاة نوع من الإحسان ، ولكن أهوال القيامة شغلت الوالد عن ولده ، والمولود عن والده ، مهما كان نوع الوالد والولد ، ذكرًا أو أنثى .

وهذا يقال فى آية الاحقاف ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ ، فالمقام مقام إحسان ، لكن هذا « الولد » عقّ والديه وتضجَّر منهما ، وإطلاق وصف الوالدين – هنا – على الاب والام بتغليب جانب الأمومة على الأبوة تعريض فى غاية البلاغة بهذا « الولد العاق » ، حيث شذ عن الإحسان لمن يجب عليه الإحسان إليهما ، وهما أمه وأبوه ، وبخاصة أنهما يدعوانه إلى الخير والفلاح .

أما آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ فليس المراد منها – كذلك – الاب الذكر ،

بل إن كثيرًا من المفسرين ذهب إلى أن دلالتها عامة تشمل كل حالات التوالد ، وكون الوالد والولد هنا مُقْسمًا بهما كما أقسم الله بالبلد التى هى مكة المكرمة ، فإن مقام القسم يقتضى فخامة المقسم به .

وهذا التفخيم يقتضى أن يكون المقسم به فى « ووالدٍ وما ولد » ، هو بث المخلوقات وتكاثرها باعتبار هذا آية عظمى من آيات الله . وهذا - بدوره - يقتضى عموم الوالدية والمولودية ، ومن باب الكناية عن الكثرة التى نشاهدها والانتشار المتزايد جيلاً بعد جيل [1] .

وبهذا تندفع تلك الشبهات ، وينجلى الحق لذى عينين .

* *

● منهج القرآن فى الأبوة والوالدية :

للأبوة والوالدية فى القرآن الحكيم منهج يباين ما عداه من كلام البشر ، وما قدمناه يسفر عن الآتى :

أولاً : الأبوة فى القرآن فى صيغة الإفراد مقصورة على الأب الذكر حقيقة ، ولم يأت لفظ « والد » مرادًا منه الأب الذكر فى لغة القرآن ، ولذلك لما أريد الحديث عن الأب الذكر لبيان حكم شرعى منوط بالولادة عبَّر عنه القرآن باسم المفعول به فقال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [2] .

والأب مولود له حقيقة ، أما هو فليس « والد » .

ثانيًا : الوالدية تطلق حقيقة فى لغة القرآن على الأم التى حملت

---

(١) انظر - مثلاً - : تفسير القرطبى (٢٠/ ٦١) .
(٢) البقرة : ٢٣٣

ووضعت وأرضعت ، كما فى قوله تعالى حكاية عن عيسى – عليه السلام-: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ وقوله خطاباً لعيسى عليه السلام : ﴿ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ (١) .

ثالثًا : يُحل القرآن كلا من إحدى صيغتى التثنية محل الأخرى على سبيل التغليب لاعتبار مناسب .

رابعًا : أمَّا الجمع المذكر لكلمة « أب » ، وصيغة المفرد المذكر لكلمة « والد » فلا يراد به الأب المذكر ، وإنما يراد به عموم « الوالدية » سواء كان الموصوف بها الذكور أو الإناث .

خامسًا : وهذا المنهج الدقيق المحكم لا وجود له فى غير القرآن ، فهو سمة من سمات إعجازه اللغوى البيانى ، استُعملت فيه اللغة استعمالاً أمثل ليس له نظير .

* * *

---

(١) المائدة : ١١٠ .

أَقْبِلْ – تَعَالَ

ورد فعل الأمر « أَقْبِلْ » فى لغة القرآن مرة واحدة ، فهو « فريدة » من فرائد القرآن صياغة ، وذكرًا :

ذكرًا : لأن مادة (ق ب ل) لم يأت منها فعل أمر إلا فى موضع واحد من القرآن كله ، فى قوله تعالى مخاطبًا رسوله موسى – عليه السلام – لما ولَّى مدبراً ولم يعقب حين رأى عصاه تهتز كأنها جان أو ثعبان :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ (١) .

وصياغة : لأن وزن « أفْعِل » من هذه المادة (ق ب ل) لم يتكرر مرة أخرى فى غير آية القصص هذه .

وفعل الأمر « أقبلْ » هذا له نظائر فى اللغة تُؤَدى معناه حسب العرف اللغوى العام ، مثل :

تعال – إئت – أقدم ، من الأفعال ، ومثل : هاؤم من أسماء الأفعال ، وهذا يضع أمامنا سُؤَالاً ذا شقين :

الأول : لماذا اختير فعل الأمر « أقبل » دون غيره من نظائره التى أشرنا إليها ؟

الثانى : لِمَ لَمْ يتكرر هذا الفعل فى لغة القرآن مع أن القرآن وردت فيه صياغات أخرى من المادة نفسها ؟

---

(١) القصص : ٣١

* الجواب على الشق الأول :

تقدم أن لفعل الأمر « أقبل » نظائر فى اللغة أوثر هو عليها وأن من تلك النظائر : تعال - إِئتِ - أقدم - هاؤم ، أما أقْدِم ، فلم ترد فى القرآن فلا نقف أمامها ، وأما تعال وائتِ وهاؤم ، فقد وردت فى القرآن ، ومع ذلك لم يستعملها القرآن فى هذا الموضع . ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ، واستعمال القرآن لـ « أقبل » هنا دليل على أن غيرها من نظائرها لا تسد مسدها ، كما أن « أقبل » نفسها لا تسد مَسَدَّ واحدة من نظائرها ، وإن بدا بين هذه النظائر الترادف فى الدلالة على المعنى .

فالقرآن لم يستعمل تعال ولا إِئت ، ولا هاؤم مكان « أقبل » ولا أقبل مكان واحدة من نظائرها ، ولا واحدة من نظائرها مكان أخرى .

والنظر فى المقام الذى ورد فيه فعل الأمر ﴿ أقبل ﴾ يفيد أن هذا الفعل ورد مُقْتَضى لحال مخصوصة ، تلك الحال هى : التَّلَبُّس بالتولى والإدبار السريع ، ومَنْ كان هذا شأنه ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ فإن مطابقة الكلام لمقتضى حاله أن يقال له : ﴿ أَقْبِلْ ﴾ لا تعال ولا ائتِ ولا هاؤم . هكذا تعلمنا البلاغة القرآنية .

ومن دقة المطابقة هنا بين الحال - ولَّى مدبرًا ولم يعقب - وبين مقتضاه : ﴿ اقبل ﴾ أن « أقبلْ » فيها أمر بالإقبال وتغيير الاتجاه ، وهو المطلوب ، وفيها نهى عن الإدبار الواقع فِعْلاً فى أثناء التكلم ، وصدور الأمر ، وعلى هذا فإن فعل الأمر « أقْبِلْ » مقيد بهذه القيود ، فكان هو التطبيق البلاغى المتَعَيِّن فى هذا الموضع ، أما نظائره المذكورة من قبل ، فمع دلالتها على أصل المعنى : مطلق القدوم ، فإن هذه الخصائص الدقيقة التى أفادها : أقبل ، لا تستفاد من أىٍّ من نظائره المذكورة قبلاً .

فـ « أقبل » أمرٌ متعيِّن طلبًا للإقبال ، ونهيًا عن الإدبار المتلبِّس به المخاطب ، وليس كذلك تعالَ وائتِ وهاؤم ، وسنعود لهذه النظائر من حيث استعمال القرآن لها بعد قليل .

* الجواب على الشق الثاني من السؤال :

نُذَكِّر القارئ أن الشق الثاني من السؤال كان :

لماذا لم يتكرر فعل الأمر « أَقْبِلْ » في لغة القرآن ؟ ، والإجابة في إيجاز :

لم يتكرر فعل الأمر « أَقْبِلْ » في لغة القرآن لعدم تكرار المقام الذي اقتضى استعماله ، وذلك المقام - كما تقدم - هو طلب الإقبال والنهي عن الإدبار المتلبِّس به المخاطَب ، فالحالة التي نُودِيَ فيها موسى - عليه السلام - وقيل له فيها : أَقْبِلْ ، لم تتكرر من موسى وإن تكررت حكايتها في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) .

والحكاية في القرآن كثيرًا ما تكرر باختلاف في أساليب القصص ، ومع تكرار الحكاية - هنا - لم يذكر فعل آخر مكان « أَقْبِلْ » وسياق الكلام في « النمل » يقتضي ملاحظة ذلك الفعل معنى لا لفظًا .

* *

● منهج القرآن في مادة : (ق ب ل) :

وردت مادة (ق ب ل) في صياغات مختلفة للدلالة على أمرين :

أحدهما : قبول الأعمال أو رفضها بالإثبات في القبول والنفي في الرفض . ومن أمثلة القبول قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . . ﴾ (٢) .

ومن أمثلة الرفض قوله تعالى :

﴿ . . . وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ . . ﴾ (٣) .

---

(١) النمل : ١٠ (٢) التوبة : ١٠٤ (٣) البقرة : ١٢٣

الثاني : للدلالة على الحركة أو الانتقال والسير ، وهذا ما يهمنا هنا ، أما الأول فنكتفي بمجرد الإشارة إليه .

ومنهج لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير والانتقال هو الآتي :

أولاً : أتت فعلاً ماضيًا مسندًا إلى « بعض » مضافة إلى ضمير الغائبين الذكور « هم » مرادًا بهم فريق من الناس في أربعة مواضع هي :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُون ﴾ (١) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ (٤) .

وفي هذه الآيات الأربع استعملت المادة في الدلالة على المواجهة بين طائفتين من الناس يتبادلون الحديث في أمر ما .

ثانيًا : وأتت فعلاً ماضيًا مسندًا إلى « نا » الفاعلين مرة في قوله تعالى :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (٥) .

وإلى « واو الجماعة » مرتين في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٦) .

ثم في قوله : ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ (٧) .

وإلى اسم ظاهر مرة في قوله تعالى :

﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ (٨) .

---

(١) الصافات : ٢٧ (٢) الصافات : ٥٠ (٣) الطور : ٢٥
(٤) القلم : ٣٠ (٥) يوسف : ٨٢ (٦) يوسف : ٧١
(٧) الصافات : ٩٤ (٨) الذاريات : ٢٩

وفى هذه الآيات الأربع دلت المادة على الإقبال بعد الإدبار ، وهذا ظاهر فى الآيات الثلاث الأولى . أما فى الرابعة فإن الملائكة لما دخلوا على إبراهيم - عليه السلام - فأوجس منهم خيفة واشتد فزعه ، وهو الرجل ، فإن فزع امرأته يكون أشد ، وفى هذه الحال لا يبعد أن يكون قد حدث من امرأته انزواء وإدبار ، فلما طمأنت الملائكة إبراهيم أقبلت امرأته ، وبخاصة حين بشرت الملائكة إبراهيم بالغلام .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ، وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (١) ، وعطف « أقبلت » بالفاء على ما قبلها دليل على ترتيب هذا الحدث وفوريته عقب توجس الخوف والبشارة .

وعلى هذا فإن دلالة المادة على الإقبال بعد الإدبار فى الآيات الأربع دلالة مطردة فى نسق واحد .

ثالثًا : وأتت اسم فاعل « متقابلين » للدلالة على هيئة من هيئات أصحاب الجنة ، وهى المواجهة فى مودة وصفاء طوية ، وذلك - كذلك - فى أربع آيات ، هى : قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٥) .

رابعًا : وأتت اسم فاعل من المزيد « استقبل » مرة واحدة فى قوله تعالى :

---

(١) الذاريات : ٢٨ - ٢٩ (٢) الحجر : ٤٧ (٣) الصافات : ٤٣ ، ٤٤

(٤) الواقعة : ١٥ ، ١٦ (٥) الدخان : ٥٣

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● **بلاغيات اختلاف الصياغات :**

تردد مجيء مادة : (ق ب ل) فى لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير والانتقال بين فعل الأمر « أَقْبِلْ » والفعل الماضى : « أَقْبَلَ » ، واسم الفاعل : « مُتَقَابِلِينَ » ، ثم « مُسْتَقْبِل » ، وكل من هذه « الصياغات » واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان .

* ففى طلب حصول الحدث : الإقبال ، استعمل فعل الأمر خطابًا لموسى - عليه السلام - ؛ لأنه كان فى حالة إدبار سريعة .

* وفى الإخبار عن الحدث : الإقبال بعد الإدبار ، استعمل الفعل الماضى الدال على وقوع الحدث ، ثم انقطاعه قبل زمن الإخبار به ؛ لأن الأصل فى دلالة الفعل الماضى أن يدل على حدث وقع وانقطع قبل زمن التكلم ، وهذا منطبق تمامًا على ما استعملت فيه المادة من آيات الإقبال بعد الإدبار ، سواء كان ذلك فى المواجهة بين طائفتين يتبادلون الحديث كما فى الحكاية عن أهل النار : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

أو كان فى غير المواجهة كما فى الحكاية عن إخوة يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ .

* أما فى الدلالة على إحدى هيئات أصحاب الجنَّة وهى المواجهة فى ود وصفاء طوية ، فقد استُعمل فيها اسم الفاعل : ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ للدلالة على دوام تلك الهيئة وثباتها ، وهذا هو الفرق المنصوص عليه بلاغيًا بين دلالتى

---

(١) الأحقاف : ٢٤ .

الفعل والاسم . فأصحاب الجنَّة دائمًا متقابلون ينظر بعضهم إلى بعض ، لا تدابر بينهم ؛ لأن التقابل علامة التحاب ، والتدابر علامة التباغض .

* *

● **الفرق بين « متقابلين » و« مستقبل أوديتهم » :**

اسم الفاعل « متقابلين » دل على الدوام والثبات كما مرَّ . أما « مستقبل أوديتهم » فمع أنه اسم ، ودلالة الاسم هي الدوام والثبات ، فإن سياق الحديث يدفع هذه الدلالة . لأن الحديث فيها عن ظاهرة كونية ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، والظواهر الكونية تحدث ثم تزول ، وهكذا ، والريح التى أرسلها الله على « عاد » ، لم تحدث إلا مرة واحدة ، ثم انقطعت ، فلا دوام ولا ثبات لها ، ولذلك وصفها القرآن بأنها « عارضًا » ، وهذه هى بلاغة القرآن المعجز فى لغته ، وفى معانيه .

● **الفروق بين « أقْبِل » و« تعال » :**

﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ . . ﴾ (٢) .

﴿ . . وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ . . ﴾ (٣) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (٤) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . ﴾ (٦) .

---

(١) آل عمران : ٦١ (٢) آل عمران : ٦٤ (٣) آل عمران : ١٦٧

(٤) النساء : ٦١ (٥) المائدة : ١٠٤ (٦) الأنعام : ١٥١

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. ﴾ (١).

﴿ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (٢) .

هذه المواضع كلها التى ورد فيها فعل الامر الذى تقدم : تَعَالَوْا او تَعَالَيْن ليس المقصود بها الإقبال الحركى الانتقالى الحقيقى ، بل المراد كما يقول جار الله الزمخشرى :

« تَعَالَوْا : هلموا ، والمراد المجئ بالرأى والعزم ، كما تقول : تعال نفكر فى هذه المسألة » (٣) .

وما قاله الزمخشرى صالح لتفسير الفعل « تعالوا - تعالين » مما ذكرناه من الآيات ، ومن نظائرها التى لم تذكرها ، بينما كان المراد من « يا موسى أَقْبِلْ » هو الإقبال الحسى الحقيقى المتناول لحركة الجسم الناقلة له من مكان إلى مكان .

فليس الفعل « تعالَ » صالحًا للإحلال محل « أَقْبِلْ » لما بين دلالتى الفعلين من تباين .

* فـ « أَقْبِلْ » مراد منها الإقبال الحقيقى الحسى ، و« تَعَالَ » المراد منها الإقبال المعنوى المجازى .

* و « أقبل » تكون خطابًا لمن هو فى حالة إدبار حسى متلبِّس به بالفعل و« تعالَ » ليست كذلك .

ولهذا - والله أعلم - قيل لموسى - عليه السلام - : « أَقْبِل » ولم يُقَل له : « تعال » .

---

(١) المنافقون : ٥ (٢) الأحزاب : ٢٨ (٣) الكشاف : (١/ ١٣٣) .

وقد ذكر صاحب « مفردات القرآن » أن الأصل فى الفعل : تعالَ هو دعوة المخاطب إلى ما فيه رفعة شأنه [1] .

وهذا الكلام مع وجاهته وصلاحيته للتطبيق على ما ورد منه فى القرآن ، فإن قول الرسول لأزواجه : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ يتجافى مع ما ذكره الراغب ؛ لأن تطليق زوجات النبى منه - صلى الله عليه وسلم - ليس فيه رفعة لشأنهن ، بل فيه انحطاط لو كان قد تم . ويمكن درجه تحت ما قاله الراغب إذا حملنا « فَتَعَالَيْنَ » على التهكم منهن لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها ورغبة فى مفارقة خاتم النبيين ، ونظيره فى القرآن - على هذا الوجه - قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2] .

لأن البشارة تكون فى الخير لا فى الشر ، وعذاب الآخرة هو شر الشرور .

* *

● الفروق بين « أَقْبِلْ » و« ائت » :

ما أكثر ما تصرف القرآن فى مادة « ا ت ى » وما أكثر المعانى التى تواردت عليها ، ومع هذا ، فليس فى المواضع التى أتت فيها هذه المادة لازمة ومتعدية ، موضع واحد مثل الموضع الذى نُودى فيه موسى - عليه السلام - بالإقبال بعد الإدبار الذى كان مُتَلبِّسًا به ، ولو كان فى مواضعها واحد من هذا القبيل لجاء « أقبل » بدلاً من « إئت » هذه واحدة ...

أما الثانية : فإن « ائت » جاءت فى لغة القرآن بمعنى « اذهب » وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [3] .

فإن معنى « إئت » هنا : اذهب إليهم ، بدليل قوله تعالى فى المقام نفسه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۞ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [4] . ولهذين الاعتبارين، وهما :

---

(1) مفردات القرآن : ١١ : ٣٤٦ — (2) التوبة : ٣٤

(3) الشعراء : ١٠ — (4) الفرقان : ٣٥ ، ٣٦

* خلو مواضع « إيتِ » من مماثلة موضع « أقْبِلْ » .

* ومجئ « إيت » أحيانًا متضمنة معنى اذهب ؛ لهذين الاعتبارين - والله أعلم - لم تصلح « إيتِ » للدلالة على معنى « أقْبِلْ » وإن تشابه معنياهما من حيث الظاهر .

ولهذه الآية نظائر أخرى آثرنا تركها خشية الإطالة ، وفيما ذُكر وفاء بالمراد من الفروق بين كلمتي : اقْبِلْ وإيتِ .

* *

• الفروق بين « أقْبِلْ و« هاؤم » :

سبقت الإشارة إلى أن « هاؤم » من نظائر « أقْبِلْ » ، ففي كل منهما طلب للإقبال ، ولكن القرآن الحكيم لم يؤثر على « أقْبِلْ » أيا من نظائرها ، وقد تقدم الحديث عن الفروق بين « أقْبِلْ » وكلٍ من « تَعالَ وائت » ، وهنا نخص هاؤم بكلمة سريعة نتبين من خلالها الفروق بين « أقْبِلْ » وبينها .

وهاؤم هذه من فرائد القرآن ، حيث لم تذكر فيه إلا مرة واحدة ، في قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ﴾ (١) .

ذكر بعض اللغويين أن « هاؤم » موضوعة لإجابة الداعي في حالة الفرح والنشاط » (٢) .

وهذا المعنى ، وإن حُكِيَ بصيغة التمريض يتسق تمامًا مع المقام الوحيد الذي ذكر فيه القرآن هذه الكلمة ، فإن فرح من يؤتى كتابه بيمينه يوم القيامة لا يعادله فرح ، ونشاطه وخفة نفسه ، وبهجة مشاعره ، ليس لها نظير ، لأنها السعادة الأبدية والفوز العظيم .

وبهذا يتضح أن ما يناظر فعل الأمر « أقبل » خطابًا لموسى - عليه السلام - إنما هي مناظرة في الإطار الدلالي العام مع وجود فروق بين هذه النظائر وغيرها ، لذلك يؤثر القرآن ما يلائم المقام ملاءمة لا نظير لها في أي كلام آخر .

---

(١) الحاقة : ١٩ (٢) لسان العرب : (٦/٤٥٩٩) - ط دار المعارف .

أصحاب – أولُو

من الكلمات التى كثر ورودها فى لغة القرآن كلمتا : أصحاب ، وأولو ، وهما فى اللغة بمعنى واحد ، تقول : هم أصحاب الفضل ، وتقول : هم أولو الفضل ، فكلتاهما مضافة إلى الفضل ، والفضل وصف معنوى يقوم بالموصوف باعتبارات معروفة ، كالكرم والسخاء ، والشجاعة والإقدام ، والعلم والمعرفة ، والسيرة الحميدة . . وكثيراً ما نسمع : فلان صاحب فضل أو صاحب مروءة ونجدة .

بيد أن لغة القرآن تفرِّق بين الكلمتين فى الاستعمال ، تفرقة لا تعرفها إلا فى البيان القرآنى المعجز .

ومن المعروف أن كلمة « صاحب » وجمعها أصحاب تأتى مضافة كما تقدم ، وتأتى غير مضافة فى حالتى التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع .

أما كملة « أولو » ، فهى ملازمة للإضافة مثل : عِنْدَ ، ولَدَىَ إذا تقرر هذا نقول :

إن تفرقة القرآن بينهما لُحِظَتْ من حيث إضافة كلٍ منهما إلى ما أضيفَتْ إليه . فصاحب ، وصاحبانِ ، وأصحاب تضاف إلىَ غير ما تضاف إليه « أولو » ، و« أولو » تضاف إلى غير ما تضاف إليه كلمات صاحب وصاحبان وأصحاب ، وهذا مطرد فى جميع الأمثلة الواردة فى كتاب الله العزيز .

* *

● ما يضاف إليه صاحب وصاحبان وأصحاب :

تتبعنا مواضع ورود هذه الكلمات فى حالة الإضافة فوجدنا المضاف إليه فيها أمراً منفصلاً – فى الأصل – عن المضاف ، فالمضاف شىء والمضاف إليه شىء آخر .

● الأمثلة [١] :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ .. ﴾ [٢] .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ .. ﴾ [٣] .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [٤] .

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [٥] .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. ﴾ [٦] .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [٧] .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ [٨] .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ [٩] .

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ [١٠] .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ [١١] .

في هذه الآيات العشر جاءت كلمة صاحب ومثناها وجمعها مضافة إلى الأسماء الظاهرة مثل : صاحب الحوت - صاحبي السجن - أصحاب النار - أصحاب الجنة - أصحاب السفينة - أصحاب اليمين - أصحاب الشمال - أصحاب السبت - أصحاب الأخدود .

ثم إلى الضمائر ، مثل : صاحبه - صاحبكم .

كما اختلف المضاف إليه في المعنى بين ذات بشرية أو جمادية وبين المكان ، أو الجهة ، ثم الزمان .

---

(١) نظراً لكثرة الأمثلة سنكتفي بذكر بعض منها للتدليل على صحة ما نقول .

(٢) القلم : ٤٨	(٣) الكهف : ٣٧	(٤) التكوير : ٢٢
(٥) يوسف : ٣٩	(٦) الأعراف : ٥٠	(٧) العنكبوت : ١٥
(٨) الواقعة : ٢٧	(٩) الواقعة : ٤١	(١٠) النساء : ٤٧
(١١) البروج : ٤		

وفى كل هذه الآيات كان المضاف إليه مباينًا للمضاف وله وجود مستقل عن المضاف ، وكذلك المضاف له وجود مستقل عن المضاف إليه ، فأهل الجنة ليسوا هم الجنة ، والجنة ليست هى أصحابها ، وهكذا كل الأمثلة التى وردت فى القرآن فى حالة الإضافة ، تجد « صاحب وصاحبان » وأصحاب مضافة فيها إلى شىء آخر يصح فصلُ كل منهما عن الآخر ، وأن كلا منهما - أعنى المضاف والمضاف إليه - كان منفصلاً عن الآخر قبل الإضافة .

هذه الملاحظة مطردة فى جميع الأمثلة سواء ما ذكرناه منها وما لم نذكره ، لم يشذ منها مثال واحد .

● ما تضاف إليه « أولو » :

أشرنا من قبل أن ما تضاف إليه « أولو » فى القرآن يختلف اختلافًا بيِّنًا عما تضاف إليه كلمات : « صاحب وصاحبان وأصحاب » ، وقد عرفنا من خلال الأمثلة الآنفة الذكر ما تضاف إليه صاحب ومثنَّاها وجمعها ، ونريد الآن أن نبين ما تضاف إليه « أولو » فى لغة القرآن الحكيم :

● الأمثلة :

﴿ . . . وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الألْبَابِ ﴾ (١) .

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ . . ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ (٣) .

﴿ وَأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ . . ﴾ (٤) .

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى ﴾ (٥) .

﴿ . . أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ (٢) آل عمران : ١٨ . (٣) النساء : ٨

(٤) الأنفال : ٧٥ (٥) النور : ٢٢ (٦) الإسراء : ٥

﴿ .. وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢) .

هذه الآيات الحكيمات وردت فيها كلمة « أولو » مضافة إلى ما بعدها مباشرة ، وإذا دققنا النظر فيما أضيفت إليه « أولوا » خرجنا بحقيقتين بارزتين :

أولاهما : أن ما أضيفت إليه « أولوا » مختلف تمامًا عما سبق أن أضيفت إليه « أصحاب » ومفردها ومُثنّاها .

وثانيتهما : أن القرآن لم يُضِفْ « أولوا » إلا إلى ما هو من الخصائص الذاتية غير المفصولة عن المضاف أو بعبارة أخرى :

أن القرآن الحكيم لم يضف « أولوا » إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء مع استحالة فصل المضاف إليه عن المضاف فى الواقع المحسوس ؛ لأنه ليس له وجود مستقل .

● **توضيح :**

تأمل - مثلاً - الآية الأولى مما استشهدنا به ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ ، فالمضاف هو﴿ أولو ﴾ ، والمضاف إليه هو : ﴿ الأَلْبَابِ ﴾ ، والألباب جمع لُبّ ، واللب هو العقل الذكى (٣) ، والعقل لا يمكن فصله وعزله عن العاقل ، فهو ممتزج به امتزاج اللون بالبشرة .

وكذلك « العلم » الذى أضيفت إليه « أولوا » فى الآية الثانية ، هو خاصة ذاتية من خواص « العالم » ، وهيئة راسخة فيه .

وهذا ينطبق على كل ما أضيفت « أولوا » فى القرآن ، وإذا تأملنا بقية

---

(١) الطلاق : ٤ (٢) الطلاق : ٦

(٣) المفردات : (٤٤٦) ، والمصباح المنير (٥٤٦) .

الأمثلة المذكورة ، وغير المذكورة ، وجدناها كذلك ، أما ما هو كالجزء من المضاف ، فقد وجدنا فى القرآن آيتين شاهدتين عليه ، وهما :

قوله تعالى : ﴿ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، لأن الجنين المستكن فى الرحم فى أثناء الحمل ، ليس له وجود مستقل خارج الرحم ، ونحن حين نرى « الحامل » لا نرى شخصين بل نرى شخصًا واحدًا. فالجنين فى هذه الحالة كالجزء من أمه لذلك أضاف القرآن « أولات » إلى الحمل .

* *

● شُبْهَة مدفوعة :

قد يقول قائل : إن فى القرآن آية خولف فيها المنهج الذى ذكرناه ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ . . ﴾ (١) .

لأن « أولى » أضيفَتْ فيها إلى « النَّعْمَة » ، والنعمة يمكن فَصْلُها عن صاحبها ، كأن يُسرق كل ما يملك ، وهى - أى النعمة - لها وجود مستقل خارج صاحبها ، ومعنى هذا أن القاعدة المذكورة غير مطردة فى إضافة « أولوا » إلى ما تضاف إليه فى القرآن ؟

والجواب :

ليس هذا بقادح فى صحة القاعدة ، واطرادها ، لأن اللغة تفرق بين : النَّعْمة بفتح النون المشددة ، وبين : النِّعْمة بكسر النون المشددة كذلك .

فالنِّعمة المكسورة النون هى ما أنعم الله به على مَنْ شاء من عباده من حطام

---

(١) المزمل : ١١

الدنيا كالنقود ، والدُّور ، وسائر الممتلكات المفصولة عن مالكها ، وهذه ليست جزءاً من المضاف ولا كالجزء ، وهى مفصولة فعلاً عن صاحبها حال تملكه إياها .

أما النَّعْمة المفتوحة النون ، فهى فى اللغة : التَّنعُّم والتلذذ بالنعمة (١) .

والتنعم والتلذذ صفتان ذاتيتان للمُنْعَم عليه ، وشعور نفسى بالسعادة ليس منفصلاً عن المضاف « أولوا » وليس له وجود مستقل خارج ذاته ، فهما : التَّنعُّم والتلذذ كاللون لا يمكن فَصْلُهُ عن « الملوَّن » ، وليس له وجود مستقل عمَّا قام به ذلك اللون .

ومجئ « أولى » فى هذه الآية مضافة إلى النَّعمة المفتوحة النون ، لا المكسورة لاطراد ما تضاف إليه « أولوا » دليل على أن « أولوا » لا تضاف إلا لما هو جزء من المضاف ، أو كالجزء ، ودليل فى الوقت نفسه على حرص القرآن الشديد فى انتقاء ألفاظه وصحة معانيه ، ودليل على أن القرآن استعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له خارجه ، ولا مضارع ، وهذا هو الإعجاز اللغوى البيانى فى أجلى صوره ، وأشمل مجالاته .

* *

● منهج القرآن فى إضافة « أصحاب » و« أولوا » :

فى الأسطر الآتية نوجز بيان المنهج القرآنى فى إضافة « أصحاب » ، و« أولوا » ، وإن مرَّ الحديث عنه مفرقًا فيما مضى :

أولاً : يفرق القرآن تفرقة دقيقة بين ما تضاف إليه « أصحاب » ومفردها ومثنَّاها ، وبين ما تضاف إليه « أولوا » فى جميع حالات إعرابها رفعًا ، ونصبًا ، وجرًا .

---

(١) المفردات : (٤٩٩) ، تفسير النسفى : (٣٠٤/٤) .

ثانيًا : لم يُضِفْ القرآن « أصحاب وصاحبان وصاحب » ، إلا إلى ما يصح فصله عنها مما له وجود خارجى مستقل كالزمان والمكان ، وبعض الأجسام الحيوانية والجمادية كالسبت ، والجنَّة ، والنار ، والحوت ، والسفينة .

ثالثًا : أما « أولوا » فلا تضاف إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء ، مما ليس له وجود مستقل خارج المضاف .

رابعًا : إن طروء العلاقة بين « صاحب وصاحبان وأصحاب » وأصالة العلاقة بين « أولوا » ، وبين ما تضاف إليه كل منهما هما اللذان - أعنى طروء العلاقة وأصالتها - خصَّصا كُلاً منهما بما أضيفت إليه .

هذا هو القرآن الذى أنزل بعلم الله .

* * *

الكَرْهُ – الكُرْهُ

الكَرْهُ بفتح الكاف ، والكُرْهُ بضم الكاف مصدران للفعل الثلاثى كَرُهَ وكَرِهَ ، هكذا تقول المعاجم اللغوية ، وهل هما بمعنى واحد أمْ لكل منهما معنى ؟ اللغويون مختلفون فى هذا ، ولكننا إذا رجعنا إلى لغة القرآن ، وقد ورد فيها كَره وكُره ظفرنا بحسم الخلاف حول معنى هاتين الكلمتين ، ولنذكر أولاً مواضع ورود كلٍ من : كَرْه وكُره ، وهى :

● **الأمثلة :**

أولاً « كَرْه » بفتح الكاف :

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (1) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ (2) .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (3) .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (4) .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (5) .

● **ثانيًا : كُرْه بضم الكاف :**

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ (6) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾(7) .

* *

---

(1) آل عمران : ٨٣ (2) النساء : ١٩ (3) التوبة : ٥٣

(4) الرعد : ١٥ (5) فصلت : ١١ (6) البقرة : ٢١٦

(7) الأحقاف : ١٥

● **منهج القرآن فى استعمال كلمتى « كَره وكُره » :**

أولاً : أن « كَره » المفتوحة الكاف التزم القرآن استعمالها فى القهر النفسى، وفقد الإرادة عند مَنْ قام به الحدث ، بدليل قاطع من القرآن نفسه حيث قابل بين « الطوع » ، وهو عمل اختيارى ، وبين « الكَره » وهو عمل قهرى يخضع له الْمُكْرَهُ وهو مجبور عليه .

وهذا ظاهر فى كل الأمثلة المتقدم ذكرها ، فالمرأة التى يرثها زوجها كَرْهًا مقهورة وغير راضية بهذا الظلم .

ثانيًا : أما كُرْهٌ المضمومة الكاف فإن القرآن يستعملها دائمًا - كما ورد فى الصور الثلاث فى آيتى البقرة والأحقاف - فى المشقة البالغة الجامعة بين المعاناة النفسية والجسمية ، فالمقاتل يبذل جَهْدًا شاقًا فى ميدان القتال ، وهذا الجهد يعكس على النفس هموماً وقلقًا .

وكذلك الحامل ، فإنها تمر بآلام جسمية قاسية فى أثناء الحمل ، وتضعف صحتها وتشعر بالإعياء الشاق .

ثم تتعرض للآلام الموجعة وقت الوضع ، وتحدث لها مضايقات نفسية لا تستطيع دفعها .

والفرق بين معنى كَره وكُره كما يدل عليه الاستعمال القرآنى أن « كَره » يستعمل فى مقام الدلالة على المعاناة النفسية أما « كُرْه » فللدلالة على المعاناة الجسمية والنفسية معًا .

ومضاعفة المعنى فى المضموم تناسب « الضم » وخفته فى المفتوح تناسب «الفتح » لأن الفتح أخف من الضم ، ولهذا - فى اللغة - نظائر كخُبْر وَخَبَر، والفرق بينهما أن الخُبر بضم الخاء حصول المعرفة عن ممارسة ومشاهدة والخَبر حصول المعرفة سماعًا .

أو الخُبْر : العلم ببواطن الأمور [1] .

ومنه فَهِمَ وَفَهُم ، يقال : فَهُمَ الرجل أى صار الفهم ملكة راسخة عنده ، بخلاف فَهِم الصادقة على حصول الفهم ، وإن كان يسيراً لا رسوخ فيه .

* *

● **الإكراه :**

أما الإكراه الوارد فى قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ . . ﴾ [2] .

فهو مصدر الفعل الرباعى : « أكره » والفرق بين معناه وبين معني كَره وكُره أن الإكراه فعل المُكْرِه ، والكَره والكُره فعلا المُكرَه ، الأول اسم فاعل ، والثانى اسم مفعول .

وصفوة القول : أن استعمال القرآن « الكَره » فى المعاناة النفسية ، و«الكُره» فى المعاناة الجسمية والنفسية معًا ، دليل على نَفْى التَّرَادُف بين الكلمتين ، فليس هما كالضَّعْف والضُّعْف كما قال بعض اللغويين [3] .

* * *

---

(١) المفردات : ١٤٤ (٢) البقرة : ٢٥٦ (٣) المفردات : ١٤٣

النَّصْر – الظَّفَر

فى القرآن الحكيم كلمات فرائد ، لم ترد فيه إلا مرة واحدة ، ومن هذه الكلمات ما تنتمى إلى فصيلة لغوية تشترك – هى – معها فى المعنى المدلول عليه بصيغة من صيغ تلك الفصيلة : ويشيع استعمالها فيه بكثرة لافتة للنظر ، مع بقاء تلك « الفريدة » وحيدة فيه ، يستعملها القرآن مرة واحدة ، ثم يودِّعها إلى الأبد .

ومن هذه « الفرائد القرآنية » الفعل الماضى « أظفركم » من « الظفر » بمعنى « النَّصر » أى : نصركم . لم ترد فى القرآن إلا مرة واحدة فى سورة «الفتح» مع أن ورود كلمة « النصر » ومشتقاتها شاع فى القرآن فى صيغه « الصرفية » شيوعًا مستفيضًا :

فعل ماض ، فعل مضارع ، فعل أمر ، اسم فاعل ، اسم مفعول ، صفة مشبهة باسم الفاعل ، مصدر ، مفعول مطلق .

أليس هذا مدعاة للتساؤل : لماذا ورد النصر بهذه الكثرة ؟ ولماذا لم يُذكر الظَّفر إلا مرة واحدة ؟

ولو كان هذا ورد فى غير القرآن لما حرَّك لنا ساكنًا ، لكن وروده فى القرآن « المعجز » يجعلنا « مغرمين » بمعرفة السر البلاغى وراء هذه السمة الأسلوبية اللافتة للنظر ، المثيرة للفكر ، لأن استعمال القرآن للغة جارٍ على نَسَقٍ معجز فى انتقاء المفردات ، وصلتها « الحميمة » بدقائق معانيها .

وسيرًا مع المنهج الذى انتهجناه فى هذه الدراسة نمثل أولاً ثم ننظر ثانيًا ، عسى الله أن يَمنَّ علينا بفهم دقائق كتابه الكريم .

● التمثيل :

﴿ ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ .. ﴾ (٢) .

﴿ إلا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا .. ﴾ (٣) .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ، فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤) .

﴿ .. وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٥) .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٦) .

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) .

﴿ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٨) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (٩) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (١٠) .

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١١) .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون ﴾ (١٢) .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١٣) .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ (٢) التوبة : ٢٥ (٣) التوبة : ٤٠
(٤) الصافات : ١١٦ (٥) الانفال : ٧٢ (٦) الحج : ٤٠
(٧) آل عمران : ١٦٠ (٨) الروم : ٥ (٩) غافر : ٥١
(١٠) القمر : ١٠ (١١) البقرة : ٢٥٠ (١٢) المؤمنون : ٢٦
(١٣) الفتح : ٣

﴿ أهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١) .

﴿ فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٤) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٥) .

هذه مُثُلٌ مختارة بغير اختيار من الآيات التي ورد فيها « النصر » بصوره الصرفية المختلفة ، وبقيت آيات أخرى يضيق المقام عن ذكرها هنا . وقد أحصينا المرات التي ورد فيها في آي الكتاب العزيز فوجدناها أربعًا وأربعين ومائة مرة ، ما بين فعل ومصدر واسم وصفة .

هذه المرات يقابلها مرة واحدة « فريدة » ورد فيها « الظفر » في القرآن الحكيم في صورة الفعل الماضي المعدَّى بالهمزة : ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

فلماذا تلك الكثرة في « النصر » والنُّدْرة في « الظفر » في لغة القرآن الحكيم .

محال أن يكون هذا صُنْعًا « عشوائيًا » ، أو « مجرد اتفاق » ، فالله حكيم في أفعاله ، حكيم في أقواله .

أليس هو الذي وصف كتابه ، فقال :

﴿ .. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٦) .

عبَّر القرآن بـ« النصر » عن مواقف كثيرة ظهر فيها المؤمنون على عدوهم ،

---

(١) محمد : ١٣ (٢) الإسراء : ٣٣ (٣) آل عمران : ٢٢
(٤) الأنفال : ٤٠ (٥) الفتح : ٢٤ (٦) هود : ١

وعن تأييد الله للمؤمنين بالغلب والفوز ضد الخصوم ، وفى المعارك التى خاضها المسلمون فى عصر النبوة ، ففى غزوة بدر الكبرى قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ ﴾ .

وفى حنين وغيرها من الغزوات قال :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، وفى ظهور الإسلام على كافة شبه الجزيرة عقب فتح مكة ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) .

فالنصر فى القرآن وصف عام لكل غَلَب يحققه أنصار الحق على أعداء الله وأعدائهم .

* *

● **إلا فتح مكة المكرمة :**

نعم ، إلا فتح مكة المكرمة ، فقد وصفه الله بـ « الإظفار » الذى هو مصدر ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ فى آية الفتح (٢٤) مع أن فتح مكة من أكبر وقائع « النصر » الذى كلل الله به الجهاد الإسلامى النبوى قبيل وفاة الرسول ﷺ بقليل : هو نصر عظيم حقًا ، ومع هذا قال الله فيه : ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولم يقل : نصركم ، ولو قيل لكان صوابًا .

لكن خاصيَّة دقيقة فى « الظفر » يخلو منها « النصر » هى التى رشَّحَتْ « الظفر » ليكون أداة « التعبير » الوحيدة عما أيد الله به رسوله والمؤمنين يوم الفتح المبين : فتح مكة المكرمة ، ومن المعلوم أن فتح مكة ، ودخول النبى وصحبه ربوعها وتطهيرهم البيت الحرام وطوافهم به ، كل ذلك تم بلا إراقة

---

(١) سورة النصر .

دماء ، ولا شهر سلاح ، ولا أدنى مقاومة واجههم بها أهل مكة الذين كانوا عقبة كؤودًا فى طريق الدعوة من أول يوم أُعلنت فيه ، كان فتح مكة - إذا - هى الغنيمة الباردة التى قذف الله بها فى أيدى المؤمنين . أنه غَلَب عظيم تم بدون قتال يذكر ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

فتح مكة كان : نصرًا مع سهولة ويُسر ، لا نتيجة ضرب وطعان ، فهو أكثر من « النصر » لما صحبه من تيسيرات وحقن دماء .

وهذا النصر « الخاص » لا يصلح للتعبير عنه إلا الظفر ، لماذا ؟

لأن العرب كانوا يخصون الظفر بالفوز والغلب الذى يتم بسهولة ويسر ، والقرآن بلغة العرب نزل ، وعلى طرائقهم فى البيان صاغ بيانه .

والظفر كما نص اللغويون وغيرهم مشتق من : نَشْب الأظفار . ونشب الأظافر أيسر وسيلة إذا حصل به المطلوب .

وسر تعدية « الظفر » بالهمزة ولم يقل : « من بعد أن ظفرتم » لأن الله هو الذى مَنَّ عليهم بالغلب لا أنهم هم الذين حققوا ذلك الغلب .

إنهم صحَّ منهم العزم على القتال إذا اضطُرُّوا إليه ، فلما لم يقاتلوا لعدم احتياجهم إلى القتال بتيسير الله الغلب لهم كان هو الذى أظفرهم بكف أيدى الأعداء عنهم ، فكفوا أيديهم عن الأعداء لما رأوا الغلب قد تحقق بأمر الله ، إن معنى الغلب الذى حدث عام الفتح أدق من معنى النصر الذى - غالباً - يكون بالقتال .

لذلك - والله أعلم - توارت كلمة « نصركم » فى هذا المقام ، وبرزت كلمة « أظفركم » للوفاء بالمعنى حق الوفاء ، وهكذا القرآن كله : إحكام وإعجاز ، وكل لفظة فيه متمكنة فى موضعها لا يسد غيرُها مسدَّها ، ولو

أدرنا اللغة من ألفها إلى يائها كما قال العلامة ابن عطية - رحمه الله رحمة واسعة

* *

● **منهج القرآن في « النصر » و« الظفر » :**

لا أرانا بعد الذي تقدم عن « النصر » ، و« الظفر » أننا في حاجة إلى بيان منهج القرآن فيها ، ولكن لكي يكون منهجنا في هذه الدراسة مطرداً ؛ نعيد ما قلناه في إيجاز :

أولاً : النصر ومشتقاته كثير الورود في القرآن بصيغ صرفية متعددة ، أما « الظفر » ، فهو من « فرائد » القرآن حيث لم يرد فيه إلا مرة واحدة ، في صورة الفعل الماضي المعدى بالهمزة « أظفركم » .

ثانيًا : يأتي « النصر » في القرآن وصفًا عامًا لكل غلب ، أو فوز حققه المؤمنون في ظل الرسالات السماوية ، أما « الظفر » ، فهو مقصور على « الغلب » الذي يحدث بدون قتال يذكر بين المؤمنين وعدوهم .

ثالثًا : إن بين « النصر » و« الظفر » في استعمال لغة القرآن لهما عمومًا وخصوصًا ، فكل « ظفر » نصر . وليس كل نصر ظفراً .

رابعًا : إن معنى « الظفر » ملحوظ فيه المعنى اللغوي ، الذي هو : « نشب الأظافر » في الفريسة ، وهو أيسر وسيلة في الحصول على المطلوب .

* * *

قَليلٌ - كَثِيرٌ

وردت هاتان الكلمتان « قليل - كثير » فى لغة القرآن ورودًا مستفيضًا ، وتواردت عليهما جميع حالات الإعراب ، من الرفع والنصب والجر ، وهما ملازمان فى لغة القرآن للإفراد والتنكير ، ويستثنى من الإفراد صورة واحدة جاءت فيها « قليل » مجموعة جمع مذكر سالمًا ، أما التنكير فقد عم كل مواضعهما ، فلم تأت فيه أىّ من الكلمتين معرفة قط . أما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فلا يقدح فيما ذهبنا إليه ؛ لأننا نتعرض هنا لـ « قليل » ، و« كثير » لا للقلة والكثرة .

وهدفنا - هنا - من دراسة هاتين الكلمتين : « قليل - كثير » فى الاستعمال اللغوى القرآنى هو معرفة منهج القرآن فيهما ، ثم محاولة فهم السر فى نظام هذا المنهج ، ولنبدأ بذكر أمثلة لـ « قليل » أولاً .

● **الأمثلة :**

﴿ .. قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. ﴾ (١) .

﴿ واذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ .. ﴾ (٢) .

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إلا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) النساء : ٧٧ (٢) الأنفال : ٢٦ (٣) المؤمنون : ٤٠

(٤) البقرة : ٤١ (٥) الأعراف : ١٠ (٦) يوسف : ٤٧

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ [1] .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [2] .

فى الآيات السابقة جاءت « قليل » ملازمة للتنكير والإفراد إلا فى آية الشعراء ، فقد جاءت مجموعة جمع مذكر سالمًا ، « قليلون » كما جاءت فى جميع الأمثلة من كلام الله المباشر ، إلا فى آية الشعراء فكانت من كلام الله المحكى عن « فرعون » .

كما جاءت مجراة عن العقلاء فى مثل : ﴿ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ ، ومجراة على غير العقلاء كالمقادير فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ وهى محكية عن يوسف - عليه السلام - .

ومجراة على غير المقادير كالسلوكيات فى قوله تعالى :

﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾

ومجراة على الزمن كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ .

وللزومها الإفراد والتنكير ملحظ بيانى دقيق سنعرض له فميا بعد ، كما سنعرض لمجيئها جمعًا فى آية الشعراء المحكية عن فرعون لعنه الله ، والذى نوصى به القارئ أن يكون على ذُكر من مجيئها مفردة مُنكَّرة .

● **أمثلة كثير :**

مجئ « كثير » فى لغة القرآن ملازم للإفراد والتنكير ملازمة تامة ، ومواضع ورودها أكثر من مواضع ورود « قليل » ؛ لأن دواعى استعمالها فى القرآن أكثر من دواعى استعمال « قليل » ، وهذا من لطائف القرآن الحكيم ، لصدق القلة والكثرة على « قليل » و« كثير » الواردتين فيه .

---

(1) التوبة : ٨٢ (2) الشعراء : ٥٤

أما الأمثلة فهي :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً .. ﴾ (١) .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً ﴾ (٢) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (٣) .

﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ (٥) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ (٦) .

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٧) .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً .. ﴾ (٨) .

نكتفي بهذا القدر من التمثيل لورود كلمتي « قليل » ، و« كثير » في القرآن الحكيم ، فليس هدفنا استقصاء كل مواضعهما ، وإنما أردنا أن ندعم ما لحظناه على منهج لغة القرآن في استعمالهما ببعض الأمثلة ، والذي لحظناه - كما تقدم - هو لزوم الكلمتين للإفراد إلا في موضع واحد ، ثم للتنكير في جميع المواضع .

* *

● لماذا التزام التنكير ؟ :

بعض المواضع التي استعملت فيها « قليل » ، و« كثير » اقتضى المقام فيهما التنكير لمجيئهما وصفًا لنكرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾

(١) البقرة : ٢٦ — (٢) البقرة : ١٠٩ — (٣) آل عمران : ١٤٦

(٤) المائدة : ٧١ — (٥) الشورى : ٣٠ — (٦) الأنعام : ١٣٧

(٧) الإسراء : ٧٠ — (٨) طه : ٣٣ ، ٣٤

وقوله تعالى : ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (١)

أو خبرًا عن نكرة ، كقوله تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فقد جاءت « قليل » ، وصفًا لنكرة ، ثم خبرًا عن نكرة ، وجاءت « كثير » وصفًا لنكرة كذلك ، وبعضها ، وهو الغالب ، جاء نكرة ابتداء مع جواز التعريف فيه لغة ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾

وكقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤) .

والتنكير – هنا – أبلغ من التعريف وأفخم معنًى ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ليس المراد بـ « كثيرًا » فيه قومًا بأعيانهم ، بل المراد كثرة عامة تتناول طوائف من الناس لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، والتنكير هو الأبلغ في الدلالة على العموم .

* *

● **ولماذا التزام الإفراد ؟ :**

القلة والكثرة نوعان :

* قلة وكثرة منظور فيهما إلى حقيقة الأعداد في الواقع .

* وقلة وكثرة منظور فيهما إلى المعاني النسبية الإضافية ، فالواحد والاثنان والثلاثة – مثلاً – قلة منظور فيها إلى كمية الأعداد في الواقع ، والنحاة يحصرون هذه القلة فيما دون العشرة ، وهي قلة حقيقية .

والمئة والمئتان ، والألف والألفان كثرة حقيقية منظور فيها إلى كمية الأعداد في الواقع .

---

(١) آل عمران : ١٤٦ (٢) النحل : ١١٧
(٣) سورة ص : ٢٤ (٤) الكهف : ٢٢

وليس هذا بمراد - والله أعلم - من « قليل » ، و« كثير » فى لغة القرآن الحكيم ، بل المراد المعانى النسبية الإضافية لكل من « قليل » ، و« كثير » والمعانى النسبية الإضافية - هنا - تتحقق بالمناظرة بين كميتين عدديتين قابلتين للوصف بالقلة والكثرة على سبيل التبادل لا اللزوم ، فالمائة - مثلاً - « قليل » إذا نوظرت بـ « الألف » ، و« الألف » - « كثير » - إذا نوظر بالمئة ، ثم إن « الألف » هذا « قليل » إذا نوظر بـ « المليون » ، و« المليون » كثير إذا نوظر بالألف ، وهكذا .

وهذا هو المراد من القلة والكثرة فى لغة القرآن ، فمثلاً قوله تعالى :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١) .

ليس معناه « القلة العددية » ، فما أكثر الشاكرين فى كل زمان ومكان ، تكتظ بهم دور العبادة ، وتضيق بهم الأماكن المقدسة فى الحج والعمرة ، فهم « كثير » من حيث العدد ، ولكنهم « قليل » إذا نوظروا بغير الشاكرين من الناس .

وهذه المعانى النسبية الإضافية الأبلغ فى التعبير عنها هو الإفراد لا الجمع ، فلو قيل مكان « قليل » قليلون ومكان « كثير » كثيرون لا نصرف الوصف فيهما إلى واقعية العدد ، وهم الأشخاص المعدودون ؛ لأن « قليلون » و« كثيرون » جمعان للعقلاء ، أما « قليل » ، و« كثير » وإن كان معناهما ملحوظًا فيهما معنى الجمع . فإنهما مفردان أريد منهما القلة والكثرة النسبيتان الإضافيتان ، فما أبلغ هذا البيان المعجز للإنس والجن ، وكل من عدا الله .

* *

● ولماذا « قليلون » فى الشعراء ؟ :

مجئ « قليلون » هكذا مجموعة ، مرة واحدة من عشرات المرات ، دليل

---

(١) سبأ : ١٣

تلو دليل على العناية الفائقة فى انتقاء كلمات القرآن حتى فى « الهيئة اللفظية » ودليل لا يدفع على أن مجئ « قليلون » فى هذا الموضع له خاصة دلالية فريدة ، ولمحة بيانية دقيقة لم يف بها سواه من الألفاظ المناظرة له ، حيث لم يقل : « قليل » ، ولا « أقلة » .

وقد أطلنا النظر فيها ، والتفكير حولها ، وها نحن نسجل ما هدينا إليه من دواعى استعماله بلاغيًا فى هذا المقام :

أولاً : إنها وقعت وصفًا مباشرًا لما فيه معنى الجمع ، وهو « شرذمة » والشرذمة هى الجماعة المنقطعة [١] .

وهذا منطبق تمامًا على بنى إسرائيل حين كانوا بمصر : جماعة غريبة معزولة عن أهل البلاد ، و« قليلون » فيه مطابقة بين الوصف والموصوف ، فـ« شرذمة » جمع فى المعنى ، و« قليلون » جمع لفظًا ومعنىً .

ثانيًا : إن المراد من « قليلون » هنا القلة العددية وليس معنى نسبيًا إضافيًا على سبيل التبادل ، فأهل البلاد كانوا أضعاف بنى إسرائيل ، فهم كثرة حقيقية ، وبنو إسرائيل قلة حقيقية ، وهما - أعنى القلة والكثرة - هنا وصفان لازمان لمن وصف بهما فى ذلك الوقت .

ثالثًا : كما يفيد الجمع « قليلون » تهويل شأن تلك القلة بدليل ما حكاه القرآن عن فرعون لعنه الله من وصف تلك القلة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [٢] .

رابعًا : إن فى « قليلون » هنا توافقًا لرؤوس الآى (الفواصل) ، فقبلها كانت فواصل الآى :

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا

(١) المفردات : (٢٥٩) .　　(٢) الشعراء : ٥٥ ، ٥٦

أن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (١) .

وبعدها : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

وتوافق رءوس الآى سمة من سمات إعجاز الإيقاع الصوتى فى لغة القرآن ، وهذا ما أسفرت عنه بعض الدراسات القرآنية الحديثة (٢) .

من أجل هذه « الأبلغيات الثلاث » كانت « قليلون » هنا فى موضعها الفريد فى القرآن كله .

* *

● **منهج القرآن فى « قليل » و« كثير » :**

أولاً : التزم القرآن فيهما الإفراد إلا فى موضع واحد ثم التنكير فى جميع المواضع .

ثانيًا : لم تأت واحدة منهما مجموعة فى كلام الله المباشر (غير المحكى) ، ولا مرة واحدة .

ثالثًا : المراد بالقلة والكثرة ، فيهما المعانى النسبية الإضافية .

وليس واقعية الأعداد فى أنفسها .

رابعًا : الموضع الذى جاءت فيه « قليلون » جَمْعًا أفاد ثلاث لمحات بلاغية ، وهى : مطابقة الموصوف ، والتهويل ، ثم الانسجام الصوتى الذى هو وجه من وجوه الإعجاز .

* * *

---

(١) الشعراء : ٥٠ - ٥٣

(٢) النبأ العظيم (٩٢) وما بعدها محمد عبد الله دراز .

الرِّيح - الرِّياح

وردت الريح مفردة ومجموعة فى لغة القرآن العظيم ، ومنكرة ومعرفة ، والإفراد والجمع ، والتعريف والتنكير طرق من طرائق اللغة بوجه عام ، ومن طرائق البيان القرآنى المعجز بوجه خاص ، والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة ، وتؤدى معانى محكمة هى البلاغة فى أعلى مستوياتها .

وكعادتنا نقدم أولاً الأمثلة ، ثم ننظر فيها للوقوف على المنهج القرآنى فى استعمالها الأمثل :

● **أمثلة الإفراد :**

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . . ﴾ (١) .

﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ . . ﴾ (٢) .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ . . ﴾ (٣) .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ . . ﴾ (٤) .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ١١٧ (٢) يونس : ٢٢ (٣) الإسراء : ٦٩
(٤) الأنبياء : ٨١ (٥) الحج : ٣١

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . . ﴾ (١) .

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ (٤) .

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ (٥) .

فى الآيات العشر السابقة وردت الريح فى حالة الإفراد والتعريف والتنكير إحدى عشرة مرة ، اثنتين فى آية يونس (٢٢) ، وتسعًا فى الآيات التالية لها .

وكان ورودها موزعًا على خمسة مقامات :

الأول : المدح ، كما فى قوله تعالى فى آية يونس (٢٢) :

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ .

الثانى : الذم المقترن بالشر ، كما فى قوله تعالى فى آية الإسراء (٦٩) :

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ .

الثالث : ضرب الأمثال المنبئة عن الوعيد والتهديد كما فى آيتى الحج (٣١) : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

وإبراهيم (١٨) :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

---

(١) إبراهيم : ١٨ — (٢) الأحقاف : ٢٤ — (٣) الروم : ٥١

(٤) الأحزاب : ٩ — (٥) الشورى : ٣٣

الرابع : التذكير بما فعل الله بالأمم التى أعرضت عن الإيمان كما فى آية الأحقاف (٢٤) :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الخامس : الامتنان على الرُّسُل وأتباعهم كما فى آية الأنبياء (٨١) :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ .

وآية الأحزاب (٩) : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ .

وصفوة القول : أن مجئ الريح فى حالة الإفراد استعملها القرآن فى مجالى الخير والشر سواء كانت معرفة أو نكرة .

* *

● أمثلة الجمع :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. ﴾ [2] .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [3] .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [4] .

---

(١) البقرة : ١٦٤ (٢) الأعراف : ٥٧
(٣) الحجر : ٢٢ (٤) الكهف : ٤٥

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ (١) .
﴿ وَمَن يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) .
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ (٣) .
﴿ اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٤) .
﴿ وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرَ سَحَابًا ﴾ (٥) .
﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

ما ذكرناه من آيات جمع الرياح هو كل ما جاء فى القرآن من أمثلة جمعها.

والسؤال الآن :

لماذا أفردت « الريح » فى الآيات السابقة ؟

ولماذا جمعت فى هذه الآيات ؟

*والجواب الكاشف هو :

* أفردت « الريح » فى الآيات السابقة ؛ لأن مقامات ورودها فيها تقتضى إفرادها :

ففى إهلاك قوم هود ، وهم قبيلة عاد ، أفردت الريح فى الحديث عن إهلاكهم ؛ لأن الله أهلكم بريح واحدة .

وفى الحديث عن الآيات التى أيد الله بها نبيه سليمان - عليه السلام - أفردت الريح معرفة بالألف واللام تعريف الجنس ، وجنس الريح واحد لا جمع .

وفى الحديث عن تسيير الفلك فى البحر أفردت الريح ؛ لأن الفلك تسير

---

(١) الفرقان : ٤٨ (٢) النمل : ٦٣ (٣) الروم : ٤٦
(٤) الروم : ٤٨ (٥) فاطر : ٩ (٦) الجاثية : ٥

سيراً منتظمًا إذا دفعتها ريح واحدة لا رياح ، فإذا هبت عليها رياح من كل جهة فى وقت واحد اضطرب سيرها ، وقد تغرق ، والمقام مقام تذكير بنعمة الله مع قدرته على تبديلها نقمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [1] .

فالريح – هنا – ريح خير لا ريح شر . ولما جاءت مفردة فى مقام الشر وُصِفَت بما يؤهلها له : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ .

فى آية الشورى كانت « الريح » ، وهنا فى الإسراء كانت « **قاصفًا** » ، ومثلها فى الحج : ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، **وفى الحاقة** : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [2] .

وفى الروم : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [3] .

وهى الريح الدبور المهلكة [4] .

هذا هو سر إفراد « الريح » فى الآيات التى أفردت فيها ؛ **لأن تصرف** القدرة الإلهية فيها كان منصبًا على « الريح » مفردة لا مجموعة ، **فهى ريح لا** رياح .

* *

● منهج القرآن فى « الريح » مفردة :

أولاً : المزاوجة فى معانيها بين الخير والشر ، وهى فى الشر أكثر منها فى الخير .

---

(١) الشورى : ٣٢ ، ٣٣ — (٢) الحاقة : ٦

(٣) الروم : ٥١ — (٤) تفسير النسفى : (٣/ ٢٧٦) .

ثانيًا : إذا استعملها فى الخير لم يَقْرِنْ بها أوصافًا ، بل يقف عند حد ذكرها إلا فى موضعين :

أحدهما : فى آية يونس ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، وهى الريح اللينة الهادئة .

والثانى : فى آية الأنبياء : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ .

وسر التباين بين الوصفين : « طيبة » ، و« عاصفًا » إكمال النعمة فى كل موضع بما يناسبها .

فهى فى إجراء الفلك طيبة سهلة لانتظام حركة السير وسلامته من الكوارث، وهى لسليمان - عليه السلام - « عاصفًا » لأنها جُنْد من جنوده ، وكمال النعمة فى « الجندية » القوة المعبَّرُ عنها بالعصوف . ولو قيل فى الأولى « عاصفًا » ، وفى الثانية : « طيبة » لانقلبت النعمة بؤسًا ، والقوة ضعفًا .

ثالثًا : وإذا استعملها فى جانب الشر قَرَن بها أوصافًا تنبئ عنه مثل : « صَرصَرٍ عاتية » ، و« العقيم » ، و« مصفرًا » ، و« تذهب »[1] .

وهكذا جميع المواضع التى وردت فيها « الريح » فى جانب الشر .

رابعًا : وقد تستعمل فى الخير والشر فى آن واحد ، كما فى قوله تعالى فى آية الأحزاب المتقدمة :

﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا .. ﴾ ، فهى خير بالنسبة للمخاطبين ، وهم المسلمون ، وشر بالنسبة للجنود المغيرين .

* ولماذا جاءت الريح جمعًا ؟

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴾ (الأنفال: ٤٦) .

* والجواب :

فى أمثلة « جمع الرياح » جاءت « الرياح » معمولاً للفعل الماضى « أرسل» أو « أرسلنا » فى ثلاثة مواضع .

كما جاء معمولاً للفعل المضارع « يرسل » فى أربعة مواضع .

وجاءت معمولاً للمصدر « تصريف » فى موضعين .

وجاءت فاعلاً للفعل « « تذروه » وهو مضارع فى موضع واحد ، وبهذا كملت مواضعها العشرة الواردة فيها فى لغة القرآن الحكيم ، والمقام الذى وردت فيه فى المرات العشر مقام واحد هو : لفت الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية وتَعَلُّق قدرة الله بها ، وحكمته البالغة فى إنشائها وتسخيرها لمنافع العباد .

وهذه الظواهر ثلاثة أقسام بالنسبة لكل جيل يقرأ كتاب الله العزيز :

القسم الأول : ظواهر وقعت قبل نزول القرآن فناسبها الفعل الماضى « أرسل » .

القسم الثانى : ظواهر كانت تقع فى عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع « يرسل » فى إحدى دلالتيه ، التى يصور فيها الواقع المشاهد .

القسم الثالث : ظواهر وقعت بعد عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع - كذلك - فى دلالته الثانية ؛ لأن الفعل المضارع صالح للدلالة على الحال وعلى الاستقبال إذا كان المقام لا يأباه ، وهذا التحليل يصدق على كل جيل .

فجيلنا الآن ما أكثر تلك الظواهر التى وقعت قبله ، وما أكثر ما يقع منها فى حياته ، وما سيقع بعد عصره ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة .

وهذا صادق على غير « أرسلنا » ، و« يرسل » وغيرهما اثنان :

الأول : « تذروه الرياح » أى تذرو الهشيم .

والثاني : « وتصريف الرياح » فظاهرة تصريف الرياح شاملة للأزمنة الثلاثة: الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، وظاهرة تذرية الرياح للهشيم ، وقعت فى الماضى ، وتقع فى الحاضر ، وستقع فى المستقبل حتى قيام الساعة .

* *

● والخلاصة :

إن هذه الظواهر جميعًا من إرسال الرياح ، وإثارة السحاب ، وإنزال الماء منه ، وإحياء الأرض به ، وإسقاء الناس منه ، وتذرية الرياح الهشيم ، وتصريف الله الرياح والسحاب ، هذه الآيات والظواهر الكونية دائمة مستمرة ، لذلك وجب فى سنة الله أن تكون أسبابها جمعًا كاثرًا « الرياح » لا « الريح » .

ولهذا جاءت « الرياح » مجموعة فى المجموعة الثانية من الآيات التى وردت فيها الرياح جمعًا لا ريحًا واحدة .

وتعدد الرياح ليس مقصورًا على التوزيع الزمنى الذى تقدم ، بل تتعدد فى الزمن الواحد باختلاف الأمكنة التى تقع فيها فى اليوم الواحد بل فى الساعة الواحدة .

وهكذا تتجلى لنا بلاغة القرآن المعجزة ؛ لأنه بعلم الله نزل ، ومن أصدق من الله حديثًا ؟ .

وهكذا يتبين لنا بكل وضوح :

لماذا أُفْرِدت الريح فى لغة القرآن فيما أُفردت فيه من آيات حكيمات .

ولماذا جُمِعَتْ فيما جُمعت فيه من آيات معجزات .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (1) .

* *

● **منهج القرآن في « الرياح » جمعًا :**

أولاً : التزام استعمالها في مجال الآيات ، والظواهر الكونية .

ثانيًا : توظيف المقام الذي وردت فيه للعظة والاعتبار والتأمل في عجائب خَلْق الله ، تقوية للإيمان ، وتزكية للروح ، وإيقاظًا للقلوب من غفلاتها .

ثالثًا : التزام استعمالها في « الخير » دون « الشر » .

رابعًا : الامتنان على العباد بما سخَّر لهم من نعمه الظاهرة والباطنة .

* * *

---

(1) محمد : ٢٤

الرُّشد – الهُدى

الرشد والهدى فى كلام الناس سيان ، وقد يفسَّر أحدهما بالآخر على سبيل التعاقب والتبادل ، أما فى لغة القرآن فلهما وضع خاص من حيث الدلالة ، ومن حيث الاستعمال ، ولن يتضح لنا منهج لغة القرآن فى كل منهما إلا إذا نظرنا فى الأمثلة ، التى تفى ببيان ذلك المنهج ، وغصنا وراء دقائقه وخفاياه .

● **أمثلة « هدَى » :**

﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ﴾ (١) .

﴿ فَرِيقًا هَدَى ، وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾ (٢) .

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ (٤) .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٥) .

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ﴾ (٦) .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٧) .

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٨) .

---

(١) البقرة : ١٤٣ — (٢) الاعراف : ٣٠ — (٣) البقرة : ١٨٥

(٤) الانعام : ٨٠ — (٥) الاعراف : ٤٣ — (٦) البقرة : ٢٦

(٧) فاتحة الكتاب : ٥ — (٨) الحج : ٣ ، ٤

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(1) .

في هذه الآيات التسع - وغيرها كثير - جاء الهدى في صياغات مختلفة فعل ماض - فعل مضارع - فعل أمر ، كما جاء في آيات أخرى اسم فاعل ، أمّا الفاعل ، فهو الله أو ضمير عائد عليه ، وفي غير هذه الآيات كان الفاعل - أحيانًا - : (ربّ) مضافًا إلى ضمير المتكلم ، وفي موضعين لا ثالث لهما كان الفاعل غير الله .

وهما : الشيطان في آية الحج ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، ثم فرعون في آية غافر : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، وأما المفعول فقد تردد بين ضمير المخاطبين الجماعة « هداكم » وضمير « الغائبين في آية التوبة : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ (2) ، أو المثنى الغائب : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (3) .

ثم ضمير المتكلم إما جمعًا كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (4) .

أو ضمير المتكلم المفرد كما في قول إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ .

* *

● **منهج القرآن في « هدى » :**

أولاً : كثرة التصريفات التي وردت في لغة القرآن في مادة (هـ د ى) .

ثانيًا : يستعمل القرآن « هُدَى » في الخير وفي الشر معًا ، بيد أن ورودها في الخير هو الأصل والأعم ، وورودها في الشر لم يتعدَّ موضعين ، كان

---

(1) غافر : 29 — (2) التوبة : 115

(3) الصافات : 118 — (4) آل عمران : 8

فاعل الهدى فى الأول هو الشيطان ، وفى الثانى فرعون ، وهُداهما ضلال مبين .

ثالثًا : إن المراد من الهدى فى القرآن مطلق البيان ، إلى حق كان أو إلى باطل ، إلى صواب أو إلى خطأ ، إلى خير أو إلى شر .

والذى يميز بين النوعين ثلاثة أمور :

الأول : إذا كان الفاعل هو الله أو فاعل آخر له شرف وطهارة كالقرآن ، أو نبى من الأنبياء كان الهدى حقًا وصوابًا ، وخيرًا [١] .

الثانى : إذا كان الفاعل معروفًا بالكفر والعصيان كان الهدى الصادر عنه باطلاً وخطأ وشرًا ، كالشيطان ، وفرعون ، ودعاة السوء .

الثالث : إذا اقترن « الهدى » بما يضاده من أوصاف ، كما فى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ .. ﴾ [٢] .

* *

● **أمثلة « الرشد »** :

الذى فى القرآن منه : الرُّشْد ، والرَّشَد ، وهما مصدران فى الأصل ، ثم « الرشاد » ، وهو الاسم ، ولقلة وروده بالنسبة لـ « الهدى » سنذكر كل مواضعه التى ورد فيها فى القرآن ، بادئين بما كان فعْلاً .

﴿ .. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [٣] .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ .. ﴾ [٤] .

---

(١) وتقوم الإضافة مقام الفاعل فى بعض الآيات : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ (الأنعام : ٧١) .

(٢) البقرة : ١٦ (٣) البقرة : ١٨٦ (٤) البقرة : ٢٥٦

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (١) .

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ (٢) .

﴿ فَإِن آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٤) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٦) .

﴿ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (٧) .

﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(٨) .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾(٩) .

﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلا رَشَدًا ﴾(١٠) .

﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (١١) .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (١٢) .

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (١٣) .

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (١٤) .

﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١٥) .

---

(١) الأعراف : ١٤٦ (٢) الجن : ١ ، ٢ (٣) النساء : ٦
(٤) الكهف : ٦٦ (٥) الأنبياء : ٥١ (٦) الكهف : ١٠
(٧) الكهف : ٢٤ (٨) الجن : ١٠ (٩) الجن : ١٤
(١٠) الجن : ٢١ (١١) غافر : ٢٩ (١٢) الحجرات : ٧
(١٣) هود : ٧٨ (١٤) هود : ٨٧ (١٥) هود : ٩٧

﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (١) .

* *

● **منهج القرآن في « رشد » :**

أولاً : لم يستعمل القرآن كلمة « رُشْد » أو « رَشَد » إلا في الخير بخلاف ما مرَّ في « هدى » .

ثانيًا : لم يأت منها في القرآن إلا فعل واحد مضارع « يرشدون » ثم جاءت اسمًا فيما عداه :

إما مصدرًا « رُشْد - رَشَد » أو اسم فاعل « الراشدون » ، أو صفة مشبهة « رشيد » ، وكل هذه من الفعل الثلاثي « رشد » .

ثالثًا : لم يأت منها « مزيد » إلا اسم فاعل « مرشدًا » من أرشد .

رابعًا : اختُصَّ « الرُّشد » بما جاء في بناء الآيات قبل فواصلها إلا في موضع واحد ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

خامسًا : اختص « الرَّشَد » بالفواصل إلا في موضع واحد : ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ .

سادسًا : كما اختص « الرَّشَد » بمقامات الدعاء إلا في موضع واحد هو ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

سابعًا : « الرُّشْد » في القرآن أخص من « الهدى » بدليل الجمع بينهما في : ﴿ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ ، وجعل « الهدى» وسيلة لـ « الرشد » .

ثامنًا : لم يأت الاسم الخالص منه (غير المصدر) إلا مرتين في قولى : ﴿ الَّذِي آمَنَ ﴾ ، و﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ : ﴿ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

---

(١) الكهف : ١٧

تاسعًا : وجاءت الصفة المشبهة منه « رشيد » في موضعين في مقام «النفي»:

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (١) ، و﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ ، كما جاء اسم الفاعل « الرباعي » في مقام النفي ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

عاشرًا : اختص « الرشد » بالخير دون الشر ؛ لأنه هداية إلى الحق ، وتوفيق للعمل به .

أما مطلق الهداية فلا يلزم منها « التوفيق » ، وهي « أي الهداية » من الله :
نصب الدلائل العلمية والعقلية الفارقة بين :

* الحق والباطل .
* الخير والشر .
* الصواب والخطأ .
* النافع نفعًا محمودًا ، والضار ضررًا مذمومًا (٢) .

الحادي عشر :

لما كان « الرشد » هو الهداية مع التوفيق للعمل الصالح غلب على استعماله « الاسمية » لدلالة الاسم على الثبات والدوام ، أما مجرد الهداية ومعرفة الحق من الباطل ، فقد يتردد العباد فيها بين الاستقامة والزيغ ، وهذا يناسبه مجيء « الهدى » بين الاسمية والفعلية ، مصداق هذا قوله تعالى في شأن ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ .

* * *

(١) « أليس منكم رجل رشيد » من حيث اللفظ إثبات ، ومن حيث المعنى نفي ، لأن المراد من الاستفهام فيه : التعجب من حالهم ونفي الرشد عنهم .

(٢) النفع المحمود هو المأذون فيه شرعًا ، والضرر المذموم هو المنهي عنه شرعًا .

فَرَقَ - فَرَّقَ

فَرَقَ وَفَرَّقَ فعلان ماضيان مادتهما واحدة ، هى : الفاء والراء والقاف ، والاختلاف بينهما فى تخفيف الراء وتشديدها ، ومصدر الأول : الفَرْق ، ومصدر الثانى : التفريق ، ومن حيث المعنى فإن اللغة تُفَرِّق بينهما بأن الأول: فَرَقَ يكون فى الفصل بين الأمور المعنوية كالحق والباطل ، والثانى يكون فى الفصل بين الأجسام المادية كالشاة إذا قُطِّع لحمُها .

هذا هو الأصل فى اللغة . أما استعمال القرآن لهذين الفعلين ، فمع جريانه على الأصل اللغوى ، فإن فيه اعتبارات لطيفة ، جاء بها التنزيل الحكيم، وهذا يتضح من ذكر النماذج والنظر فيها :

● **أمثلة فرق المخفف :**

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ . . ﴾ (1) .

﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (2) .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (3) .

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ (4) .

هذا كل ما فى القرآن من « فرق » المخفف من الأفعال ، مما يدخل معنا فى معنى الفصل بين الأشياء ، وهى أربعة أمثلة ، اثنان منها جاريان على الأصل اللغوى ، وهما : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ،

---

(1) البقرة : 50 — (2) المائدة : 25

(3) الدخان : 4 — (5) الإسراء : 106

و﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ . . ﴾ أى نزلناه مفرقًا فى أزمنة مختلفة ، وذلك لأن الأمور والتنزيل أشياء معنوية لا أجسام مادية ، أما الاثنان الآخران وهما :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ . . ﴾ .

و ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فالبحر ، والقوم جسمان ماديان فكان الأصل فيهما أن يقال : فَرّقنا بكم البحر ، وفرِّق بيننا وبين القوم الفاسقين ، فهل هما خارجان عن الأصل اللغوى ، أم جاريان عليه باعتبار خاص ؟

والإجابة فى إيجاز :

الظاهر – والله أعلم – أن الأصل اللغوى يطرد فى الدلالة على الفصل بين الأجسام المادية القوية التماسك والاتصال الحسى ، وهذا مفقود فى البحر والقوم .

لأن الماء جسم انسيابى رخو ليس بينه من قوة التماسك ما بين لحم الشاة مثلاً .

ولأن القوم ، أو أى اجتماع بين أى جماعة من الناس يخلو – كذلك – من التلاحم العُضْوى ، بل هم فى الأصل مفصول بعضهم عن بعض ، وعلى هذا الاعتبار الخاص يكون هذان المثالان جاريين على الأصل اللغوى العام .

كما أن فى المثال الثانى : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ لمحة بلاغية لطيفة ، تلحظ من قول موسى – عليه السلام – « فافرق » مخففًا بدلاً من فَفَرِّق مشددًا ، تلك اللمحة البلاغية تشير إلى صنف العلاقة بين موسى وأخيه هارون ، وهما رسولان ، وبين القوم الفاسقين ، ولضعفها فإنها تزول بأخف عارض دون أى جَهْد يذكر .

أما ورودها غير فعل فله ثلاث صيغ :

اسم الفاعل ثم المصدر فى قوله تعالى : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ [١] ، ثم اسم على وزن « فِعْل » فى قوله تعالى :

﴿ . . فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [٢] .

واسم الفاعل « الفارقات » جارٍ على الأصل اللغوى على ما ذكره المفسرون من أن طائفة من الملائكة فَرَقَت بين الحق والباطل ، وهما ليس بجسم مادى [٣] .

وكذلك المصدر « فرقًا » لأنه مصدر المخفف « فَرَقَ » أما « فِرْق » فالمراد به الجزء المتفرق من الماء .

* *

● **منهج القرآن فى « فرق » المخفف :**

أولاً : استُعْمِل « فرق » المخفف فى الفصل بين الأمور المعنوية كما هو الأصل فى اللغة .

ثانيًا : يُلحق القرآن الفصل بين الأجسام المادية الرخوة كالماء بالفصل بين الأمور المعنوية ، تشبيهًا لضعف التماسك بين جزيئياتها بضعف العلاقة بين الأجسام الإنسيابية الرخوة .

كما ينزل العلاقة بين الطوائف المتباينة منزلة العدم ، فدلَّ على انفصالها بالفعل « فرق » أو « افرق » بدل : « افرّق » ، أو « فرّق » .

* *

● **أمثلة « فرّق » المشدد :**

فى أمثلة « فرّق » المشدد تكررت بعض الصيغ مرات ، لذلك سنكتفى ببعض المكرر توخيًا للإيجاز ، والأمثلة هى :

---

(١) المرسلات : ٤ ، أما « فَارِقُوهن » فى الطلاق : ٢٢ ، فهى من فارَق الرباعى فلا تدخل فيما نحن فيه .

(٢) الشعراء : ٦٣ (٣) تفسير النسفى : (٤/ ٣٢٢) .

﴿ إنِّى خَشِيتُ أن تَقُولَ فرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إسْرَائيلَ . . ﴾ (١) .

﴿ إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٢) .

﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ﴾ (٣) .

﴿ وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٤) .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٥) .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا . . ﴾ (٦) .

﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٧) .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا . . ﴾ (٨) .

﴿ وَإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كلا مِّن سَعَتِهِ . . ﴾ (٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾(١٠) .

فى هذه الآيات العشر استعمل « فرّق » المشدَّد إما فعلاً مضارعًا وهو الغالب ، وإما فعلاً ماضيًا ، وقد جاء الفعل على الأصل اللغوى ، وهو الفصل بين الأجسام المادية فى ثمانية مواضع ، وهى :

التفريق بين بنى إسرائيل ، وبين الرسل ، وبين الزوجين ، وبين جماعة المؤمنين ، وبين المشركين وأصنامهم .

واستعمل فى الفصل بين أمر معنوى - وهو الدين ، فى موضع واحد وله نظائر لم نذكرها . أما التفريق بين الله ورسله ، فقد غُلِّب فيه جانب الرسل ، أما الله - سبحانه - فليس كمثله شىء .

---

(١) طه : ٩٤ (٢) الأنعام : ١٥٩ (٣) البقرة : ٢٨٥
(٤) النساء : ١٥٠ (٥) البقرة : ١٠٢ (٦) آل عمران : ١٠٥
(٧) الأنعام : ١٥٣ (٨) آل عمران : ١٠٣ (٩) النساء : ١٣٠
(١٠) الروم : ١٤

إذن لمْ يخرج عن الأصل اللغوى من هذه الآيات إلا التفرقة فى الدين ، وكان الأصل فيه يقال : « فرَقُوا دينهم » من « فَرَق » المخفف لا « فرَّق » المشدد ؛ لأن الدين قيم وأصول معنوية ، وليس جسمًا ماديًا .

ومجيؤه من « فرَّق » المشدد إنما هو تنزيل له منزلة المادى المحسوس القوى التماسك ، لخلو قيمه وأصوله من التجافى والتنافر وتنويه بسلامته من الخلل والاضطراب .

وقد لاحت لى خاطرة ، خلاصتها أن مدار الحديث - هنا - أعنى فى «فرَق » مخففًا ، و« فرَّق » مثقلاً ، منظور فيه إلى نوعين من العلاقات :

الأول : العلاقات المعنوية - سواء كانت بين أمور معنوية أو أجسام مادية .

الثانية : العلاقات المادية البحتة ، ولا تكون إلا فى الأجسام التى بين عناصرها تركيبات عضوية .

وعلى هذا فإن قول هارون لموسى - عليهما السلام - : ﴿ إِنِّى خَشِيْتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ يكون التفريق منصبًا على علاقة معنوية بين أجسام مادية ، واستعمال « فرَّق » فيها دون « فرق » إشارة إلى قوة التماسك المعنوى بينهم ، حتى لكأنهم بنيان مرصوص .

وعلى هذا - مرة أخرى - تكون آيات « فرَّق » جميعها من هذا القبيل ، وأن الأصل فيها « فرَقَ » المخفف ، لا « فرَّق » المثقل ، وإنما استعمل القرآن الحكيم فيها « فرَّق » إشارة إلى قوة الرباط بينها وإن كان معنويًا ، وهذا يصدق على الآيات العشر . كعلاقة الرسل ، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض ، وعلاقة الزوجين ، وعلاقة عبدة الأصنام بأصنامهم وهكذا .

وتوجيه هذا بلاغيًا لا يخرج عن واحد من أمرين . ولنتخذ من علاقة الرسل مثالاً للتوضيح ، والأمران هما :

الأول : أن يكون فى الكلام استعارة تصريحية أصلية بتشبيه العلاقة المعنوية

بين الرسل بعلاقة هيكل مادى شديد التماسك ، والجامع هو القوة ، والقرينة هو استعمال « فرّق » بدل « فَرَق » والسر البلاغى إبراز المعقول فى صورة المحسوس اعتناء بشأنه .

الثانى : أن يكون فى الكلام استعارة بالكناية ، شبهت فيها الأجسام المادية المفصول بعضها عن بعض بالأجسام المركبة تركيبًا عضويًا قويًا ، وحذف المشبه به ، ودُلّ عليه بإجراء خاصة من خصائصه ، وهى التفريق المفهوم من « فرّق » على المشبه ، والسر البلاغى هو التنويه بقوة الصلات بينها .

وعلى هذا - مرة ثالثة - تكون آيات « فرّق » العشر من هذا القبيل .

وأيا كان الأمر فإن منهج القرآن فى « فرّق » المشدد هو :

أولاً : استعمال « فرّق » فى الفصل بين الأجسام المركبة تركيبًا عضويًا ماديًا .

ثانيًا : استعمال « فرّق » فى الفصل بين الأطراف ذات العلاقات المعنوية القوية التماسك ، وإن كانت أطرافها أمورًا معنوية ، وهذا ما ترجحه بعد التمهيد الذى قدمناه من قبل .

* * *

جَسَد - جِسْم

في كتب اللغة مساواة بين كلمتي الجسد والجسم عند بعض اللغويين ، ومنهم من يفرق بينهما ويرى أن الجسد لا يطلق إلا على ذي روح من الناس والملائكة ، والجن ، ويرى أن إطلاق الجسد على غير العقلاء ، كعجل بني إسرائيل جاء على خلاف الأصل .

بيد أن لغة القرآن تفرق بينهما تفرقة مباينة لما قاله بعض اللغويين ، كما تنبئ بكل وضوح بعدم تساويهما في الدلالة خلافًا لما قاله بعض اللغويين كذلك [1] .

فلنذكر مواضعهما في القرآن لتستبين لنا دلالتاهما فيه :

* *

● أمثلة « الجسد » :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [2] .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. ﴾ [3] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [4] .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. ﴾ [5] .

---

(١) انظر في الفروق اللغوية بين الجسد والجسم ، مفردات الراغب : (٩٣) ، والمصباح المنير : مادتا : جسد ، وجسم .

(٢) الأعراف : ١٤٨ (٣) طه : ٨٨

(٤) الأنبياء : ٨ (٥) سورة ص : ٣٤

هذه هى المواضع الأربعة التى استعمل القرآن فيها كلمة « جسد » ، ومراده منها الهياكل التى لا روح فيها ، وهذا ظاهر فى عجل بنى إسرائيل ؛ لأنه هيكل مصنوع من ذهب لا روح فيه ، أما الجسد الذى أُلقى على كرسى سليمان ، فهو كذلك لا روح فيه ميتًا كان أو غير كامل الخلقة [1] .

أما آية الأنبياء : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ . فهى رد على مشركى مكة لما أنكروا على النبى ﷺ مشيه فى الأسواق وأكله الطعام ، فبين الله لهم أنه ليس بدعًا من الرسل ، حيث لم نجعلهم مجرد أجساد لا روح فيها ، ولا تحتاج إلى الطعام والشراب ، بل كانوا بشرًا يطعمون كما يطعم البشر ، وفى هذا يقول جار الله الزمخشرى :

« ومَا جعلنا الأنبياء - عليهم السلام - قبله ذوى جسد غير طاعمين » [2] ، فقد ظهر لنا أن القرآن لا يطلق كلمة « جسد » إلا على ما لا روح فيه .

وهذه دلالة مطردة فى المواضع الأربعة التى ذكرناها ، وليس لها فى القرآن خامس .

* *

● **أمثلة « الجسم »** :

﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ .. ﴾ [3] .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [4] .

لم ترد كلمة « الجسم » فى القرآن فى غير هذين الموضعين ، وقد جاءت فيهما فى سياق الحديث عن الإنسان :

---

(١) انظر « تفسير النسفى » : (٤٢/٤) .
(٢) الكشاف : (٥٦٤/٢) .
(٣) البقرة : ٢٤٧
(٤) المنافقون : ٤

الأول : فى سياق الحديث عن « طالوت » ملك بنى إسرائيل .

والثانى : فى سياق الحديث عن « المنافقون » فى عصر النبوة ، وبذلك يفارق « الجسم » - « الجسد » لفظًا ومعنًى ، فليسا هما - كما قال بعض علماء اللغة - بمعنى واحد ، وليسا هما على الفروق التى ذكروها ، بل الفرق الوحيد بينهما - فى لغة القرآن - أن « الجسد » يطلق على ما لا روح فيه ، وأن « الجسم » لا يطلق إلا على العقلاء حال الحياة ، بدليل أن الله أطلق على فرعون عقيب موته كلمة « البدن » لا الجسم ولا الجسد ، قال سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . . ﴾ [1] .

وإطلاق « الجسد » على ما لا روح فيه ولا حياة تعبير لغوى بالغ الدقة لأن « الجسد » يطلق لغة على الدم إذا يبس وجف [2] .

واليبوسة والجفاف من صفات ما لا روح فيه ، فسبحان الذى نزل أحسن الحديث .

* *

● **منهج القرآن فى « الجسد » ، و« الجسم » :**

أولاً : لكل منهما معنى يغاير معنى الآخر ، فليسا هما مترادفين .

ثانيًا : يُطلق « الجسد » على كل هيكل لا روح فيه ، ولا حياة تامة ، ويطلق « الجسم » على ذوى الحياة من العقلاء .

وهذا هو الاستعمال الأدق الأمثل للغة ، كما يعلمنا البيان القرآنى المعجز

* * *

(١) يونس : ٩٢

عَرَفَ - عَلِم

من الكلمات التى يفرق بينها القرآن تفرقة بالغة الدقة ؛ كلمتا عرف وعلم وما يُشتَق منهما من أفعال ومصادر وصفات وأسماء ، أما فى العُرف اللغوى العام والخاص فلا تكاد تحس بالفرق بينهما لتقارب المعنى المراد منهما من حيث الظاهر ، وتمهيدًا لاستجلاء ما بينهما من فروق نستعين بذكر بعض الأمثلة لكل منهما . ثم نثبت ما تَهْدى إليه استعمالات القرآن لهما ، الفروق بينهما .

* * *

● أمثلة « عَلِمَ » :

﴿ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) .

﴿ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا . . ﴾ (٢) .

﴿ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (٤) .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ (٥) .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٦) .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ . ﴾ (٧) .

﴿ . . إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٨) .

---

(١) البقرة : ١٨٧ (٢) الأنفال : ٦٦ (٣) البقرة : ٦٠

(٤) التكوير : ١٤ (٥) البقرة : ٢٥٥ (٦) الروم : ٧

(٧) هود : ١٤ (٨) المائدة : ١١٦

﴿ . . الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [1] .

﴿ . . عالم الغيب والشهادة . . ﴾ [2] .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ [3] .

﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ [4] .

فى هذه الآيات الاثنتى عشر وردت كلمة « علم » وما اشتق منها من فعل مضارع ، وأمر واسم فاعل ، واسم مفعول ، وصفة مشبهة باسم الفاعل ، وأفعل التفضيل ، وصيغة المبالغة ، وهى كثيرة الورود فى القرآن ، وأمثلتها لا تكاد تحصى .

والذى نريد أن نلفت إليه نظر القارئ الكريم أن « علم » ، وما أشتق منها نُسِبَتْ لله - سبحانه ، ظاهراً ، وضميراً فى جميع الصيغ المشار إليها إلا فعل الأمر .

كما نُسِبَتْ إلى غير الله من مخلوقاته ، كما فى ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ ، و﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ إلا فى صيغتى الصفة المشبهة وصيغة المبالغة « عليم - علام » ، فلم تنسب هاتان الصيغتان لأحد من خلق الله فى القرآن الكريم ؛ لأنهما من صفات الله وحده [5] .

* *

---

(1) الأنعام : ١٢٤ (2) الأنعام : ٧٣

(3) البقرة : ٩٥ (4) البقرة : ١٩٧

(5) ولا يقدح فى هذه قول يوسف - عليه السلام - عن نفسه : ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ (يوسف : ٥٥) ؛ لأنه وصف مقيد بأمر من أمور الدنيا . أما « عليم » إذا أريد منها العلم المطلق ، فلا يوصف بها غير الله سبحانه .

● **منهج القرآن فى « علم »** :

نستطيع أن نسجل - هنا - منهج القرآن فى استعمال كلمة « علم » ومشتقاتها الواردة فى القرآن الحكيم فى الآتى :

أولاً : إنها كثيرة الورود فى لغة القرآن ، كثرة مستفيضة ، شملت الصيغ اللغوية المعروفة من الأفعال والمصادر والصفات المشتقة .

ثانيًا : إن كلمة « علم » ومشتقاتها تردد إسنادها بين الله - سبحانه - وبين بعض مخلوقاته إثباتًا ونفيًا .

ثالثًا : إن صيغة المبالغة « علام » لم تأتِ إلا وصفًا لله - سبحانه ، وكذلك الصفة المشبهة باسم الفاعل « عليم » ، إذا أُريد بها العلم المطلق من القيود المخصِّصة .

وهذا يضع أمامنا سؤالاً مهمًا مؤداه :

لِمَ لَمْ يَأت « عرف » فعلاً مسندًا لله وبينها وبين « علم » نَسَب وصلة ؟ والإجابة تحتاج إلى تمهيد :

فى كتب العلم فروق متعددة خلاصتها :

١ - العلم يتناول كليات المعلوم وجزئياته ، والمعرفة مقصورة على الجزئيات .

٢ - العلم لا يتوقف على سبق جهل بالمعلوم ، والمعرفة يسبقها الجهل .

٣ - العلم لا يكون عن تَفكُّر وتدبُّر ، والمعرفة لا بد فيها من التفكر والتدبر .

هذه الفروق ، وإن كان بعضها قابلاً للمناقشة - فإن خلو القرآن من إسناد المعرفة لله دليل قاطع على أن « العلم كمال » وأن « المعرفة » يشوبها النقص ، فالعلم حقيقة « صفة » خالصة لله ، ووصف غير الله به جارٍ على تشبيه

المعرفة بالعلم تشريفًا لها ، أما العلم الخالص ، فهو لله سبحانه ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ [2] .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [3] .

أما الله - سبحانه - فهو : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] .

لذلك - والله أعلم - لم يأت « عرف » ولا شيء من مشتقاتها فِعْلاً لله تنزيهًا له عن النقائص . فلا يقال :

عرف الله كذا ، ولا يقال : الله عارف ، وإنما يقال : علم الله كذا ، والله عالم بكذا .

* *

● أمثلة « عَرَفَ » :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [5] .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ [6] .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [7] .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [8] .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ [9] .

---

(1) النحل : ٧٤ — (2) الإسراء : ٨٥ — (3) الروم : ٧

(4) العنكبوت : ٦٢ — (5) البقرة : ١٤٦ — (6) الحج : ٧٢

(7) النحل : ٨٣ — (8) الأعراف : ٤٨ — (9) الرحمن : ٤١

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (1) .
﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (2) .
﴿ . . . وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . . ﴾ (3) .
﴿ . . وَلَكِن لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًا إِلا أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا . . ﴾ (4).
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (5) .

تمثل هذه الآيات العشر صور مجيء « عرف » ومشتقاتها في القرآن الحكيم، وهي محصورة بين الفعل المضارع والماضي ، واسم المفعول والاسم . ولم يأت منها فعل أمر ولا مصدر ولا صفة مشبهة باسم الفاعل ولا صيغة مبالغة كما جاء في « علم » .

كما جاءت فعلاً لغير الله ، ولم يأت منها فعل لله قط ، فهي في الآية الأولى مسندة إلى أهل الكتاب باعتبار الضمير « الواو » ، المكنى به عنهم .

وفي الآية الثانية جاءت مسندة إلى ضمير المخاطب من الناس « تعرف » ، وفي الآية الثالثة جاءت مسندة إلى ضمير الذين يجحدون نعمة الله ، كما جاءت في الآية الرابعة مسندة إلى ضمير أصحاب الأعراف .

* *

● منهج القرآن في « عرف » :

أولاً : هي فيه فعل لغير الله من خلقه ، وليست فعلاً ولا وصفًا لله قط .

ثانيًا : هي فيه أقل تصريفًا لغويًا بالنسبة لـ « علم » .

ثالثًا : المقارنة بين « علم » ، و« عرف » ومشتقاتهما في الاستعمال القرآني تنبئ عن « أشرفية العلم » عن « المعرفة » .

* * *

(1) البقرة : 89 (2) يوسف : 58 (3) البقرة : 228
(4) البقرة : 235 (5) الأعراف : 199

اللَّمس – المسّ – المسح

هذه الكلمات الثلاث : اللمس – المس – المسح تشترك فى أصل الدلالة : ملاقاة جسم لآخر ، وعلماء اللغة منهم من يسَوِّى بين اللمس والمس ، فهما بمعنى واحد فى الوضع اللغوى ، ومنهم مَنْ يفرق بينهما تفرقة غير حصينة [(١)] ، أما « المسح » فلاشتراكه مع اللمس والمس فى أصل الدلالة ، الذى أشرنا إليه آنفًا آثرنا دراسته معهما من خلال الاستعمال القرآنى لهذه الكلمات الثلاث ، بغية الوقوف على منهج القرآن فيها جميعًا ، وما عسى أن يكون بينها من فروق ينبئ عنها البيان القرآنى المعجز .

* *

● أولاً : لمس :

لم يرد « لمس » فى القرآن إلا خمس مرات ، هى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [(٢)] .

﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [(٣)] .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [(٤)] .

﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [(٥)] .

هذه الآيات الخمس منها ثلاث آيات استُعْمِلَ فيها « اللمس » مرادًا منه

---

(١) المفردات ، المصباح المنير (مادتا : لمس – مس) .

(٢) الأنعام : ٧ — (٣) النساء : ٤٣ ، والمائدة : ٦

(٤) الجن : ٨ — (٥) الحديد : ١٣

المعنى الوضعى اللغوى - أى ملاقاة جسم لآخر - وهى آيات « الأنعام » و« النساء » و« المائدة » .

أما آيتا « الجن » و« الحديد » فاللمس فيهما بمعنى الطلب ، أى طلبنا أو قصدنا السماء ، هذا فى « الجن » ، واطلبوا نوراً ، وهذا فى « الحديد »، وهما : إما كنايتان ، أو استعارتان ، والأول أقرب ، والعلاقة بين الطلب واللمس أن طلب الشىء يُفْضِى إلى ملاقاته وأخذه ، لذلك ساغت الكناية عن الطلب باللمس ، كما ساغت استعارة اللمس للطلب على ما بين الكناية والاستعارة - هنا - من تفاوت .

أما فى آيات الأنعام والنساء والمائدة فمع إرادة الدلالة الوضعية من « اللمس » ، فيها فإن آية « الأنعام » اللمس فيها واقع من طرف واحد . « فلمسوه » ، وهم الذين كفروا ، والملموس هو الكتاب المفروض تنزيله ، وآيتا النساء والمائدة، وإن قلنا إن الملامسة فيهما كناية من كنايات الجماع فإن المعنى الحقيقى ، وهو ملاقاة أو ملاصقة جسم لآخر ، مقصود فى الآيتين ، لأن المراد ملامسة الأزواج بعضهم بعضًا أو ملامسة أى رجل لأى امرأة تشتهى عادة كالمصافحة إن قُصِدَ معها أو وُجِدَ ما ينقض الوضوء ، كما ذهب بعض الفقهاء ، وعلى هذا فإن اللمس فى الآيتين مقصود منه مجرد ملاقاة بين جسمى بالغين ، فلا كناية فيهما عن الجماع ، وهو مذهب من مذاهب الفقهاء .

والحاصل أن فى الملامسة فى آيتى النساء والمائدة مذهبين فقهيين :

الأول : كونها كناية عن مباشرة النساء ، وعلى هذا تكون الملامسة الحقيقية مقصودة ضمن معنى آخر .

والثانى : كونها الملامسة التى ينتقض بها الوضوء دون الطهارة الكبرى - الاغتسال - وعلى هذا يكون اللمس الحقيقى مقصودًا لذاته .

* *

● منهج القرآن فى « لمس » :

أولاً : جاء اللمس فى القرآن مقصودًا منه ملاقاة جسم لآخر مع المبالغة فيه، لان الذين كفروا لو أنزل الله كتابًا مكتوبًا من السماء - أى لا وحيًا يوحى - فإنهم يلمسونه بشدة بقصد الاختبار والتأكد ، وكذلك تكون ملامسة الرجال النساء إذا قصد منها الشهوة فى الغالب ، سواء كانت بين الأزواج أو غيرهم .

ثانيًا : وجاء اللمس فيه كناية عن الطلب أو استعارة له مع قرينة مانعة أو غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .

ثالثًا : ندرة ورود « اللمس » فى القرآن بالنسبة لِلْمَسِّ (مس) .

* *

● ثانيًا : المس :

ما أكثر ورود « مس » ومشتقاتها فى القرآن ، وما أكثر تصريفاتها اللغوية فيه ، وعلى كثرتها فمن الممكن التعرف على منهج القرآن فيها ، وها نحن أولاء نذكر من أمثلتها ما يعيننا على استخلاص منهجها فى لغة القرآن الحكيم:

● الأمثلة :

﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ ﴾ (١) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا .. ﴾ (٢) .

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ .. ﴾ (٣) .

﴿ .. أنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ .. ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ٩٥
(٢) يونس : ١٢
(٣) الحجر : ٥٤
(٤) سورة ص : ٤١

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (١) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (٢)

﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُم إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (٤) .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ ، وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (٦) .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ (٨) .

﴿ لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (٩) .

﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ (١٠) .

هذه الآيات الأربع عشرة ورد فيها « المس » في صيغ مختلفة بين الأفعال الماضية والمضارعة والاسم والمصدر ، وقد راعينا في ذكرها أن تكون شاملة لملامح منهج القرآن فيها . وهذا يتضح من النظرات الآتية :

* تردد مجيؤها بين الحقيقة والكناية والمجاز على النحو الآتي :

١ - ثلاثة مواضع منها أريد بها المعنى الحقيقي الوضعي دون اقترانه بمعنى آخر ، وهي :

---

(١) النور : ٣٥ (٢) آل عمران : ٢٤ (٣) الأعراف : ٧٣
(٤) البقرة : ٢٣٦ (٥) الأنعام : ١٧ (٦) آل عمران : ٤٧
(٧) الواقعة : ٧٨ ، ٧٩ (٨) المجادلة : ٣
(٩) البقرة : ٢٧٥ (١٠) طه : ٩٧

﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ، ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لا مِسَاسَ ﴾ .

٢ - وثلاثة مواضع أخرى جاءت كناية عن مباشرة النساء [١] ، وهى :

﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ ، ﴿ مِنْ قَبْلِ أن يَتَمَاسَّا ﴾ .

٣ - أما المواضع الأخرى ، وهى تسعة ، فقد جاء « المس » فيها مجازًا عن « الإصابة » ، وهى :

﴿ مَسَّ آبَاءَنَا ﴾ ، ﴿ مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ ﴾ ، ﴿ مَسَّنِى الكِبَرُ ﴾ ، ﴿ مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ ، ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ ، ﴿ وَإِنَ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، ﴿ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ .

هذا من حيث المعنى المراد منها ، أما من حيث المقام الذى وردت فيه فإنها موزعة على مقامى الخير والشر ، واستعمالها فى الشرور أكثر من استعمالها فى « الخيور » يستوى فى ذلك ما ذكرناه وما لم نذكره من أمثلتها ، ومن ينظر فى جميع مواضع ورودها فى القرآن يتبين له صدق ما فهمناه ، والسر البلاغى فى الكنايات الثلاث تجنب ما يستقبح ذكره والإفصاح به .

أما فى الاستعارة عن الإصابة فالمغزى البلاغى هو إظهار المعنوى المعقول فى صورة المادى المحسوس ليتمكن فى الشعور أعظم تمكُّن مع شدة الإحساس .

ومن قوله تعالى : ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لا مِسَاسَ ﴾ ، يظهر أن المس يتحقق بأدنى ملاقاة بين جسمين ؛ لأن القرآن الحكيم نهى فى الأولى والثانية عن إلحاق أدنى

---

(١) الكناية -كما هو معروف - يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقى مع المعنى الكنائى ، ما لم يمنع منه مانع خارجى . ولا مانع هنا من إرادته .

أذى بالناقة ، وعن أدنى اقتراب من الكتاب المكنون وإن جاء على صورة النفى الخبرى .

مصداق هذا قوله تعالى فى النهى عن عقوق الوالدين : ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (١) ، فنهى عن أدنى صور الأذى بـ « أف » ، والنهى عن الأدنى يلتزم النهى عن الأكبر .

وقوله تعالى فى شأن اعتزال الظالمين ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٢) .

والركون هو الميل اليسير ، والنهى عنه يقتضى النهى عن المخالطة والمعاشرة .

وكذلك « لا مساس » ، فهو نفى بمعنى النهى أى : لا يمسنى أحد ، وهو يلتزم النهى عما هو أعظم من مجرد المساس كالمصافحة والمعانقة .

وعلى هذا فقد فهمنا بأن المس أخف من اللمس ، فاللمس ما كان مبالغًا فيه ، والمس هو أدنى ملاقاة جسم لآخر ، وهذا هو الفرق بين اللمس والمس ، والذوق اللغوى يوحى بهذا الفرق الدقيق .

فالمس لمس خفيف . واللمس مس ثقيل ، ومن الشواهد على خفة المس دون اللمس قول أهل الجنة الذى حكاه عنهم القرآن ، وهو :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (٣) .

فنفوا أدنى درجات التعب والإعياء .

* *

---

(١) الإسراء : ٢٣ (٢) هود : ١١٣ (٣) فاطر : ٣٤ ، ٣٥

● منهج القرآن فى « مسّ » :

أولاً : كثرة ورودها فيه ، وكثرة تصريفاتها اللغوية .

ثانيًا : ترددها بين المعانى الحقيقية والكنائية والمجازية .

ثالثًا : استعمالها فى مقام الشرور أكثر من مقام الخيور .

رابعًا : إشتراكها مع « لمس » فى أصل الدلالة وتفردها بخفة الملاقاة بين الماس والممسوس .

خامسًا : تردد إسنادها بين الخالق والمخلوق ، بخلاف لمس ، فلم تسند إلى الله قط ، لا حقيقة ولا مجازًا .

سادسًا : المس المسند إلى « المخلوق » هو ملاقاة جسم لآخر سواء كان المس حقيقة لغوية أو مجازًا لغويًا أو كناية .

أما المس المسند إلى الله ، فهو بواسطة ابتلاءاته نعما كانت أو نقمًا ، وليس ملاقاة جسم لآخر ، رعاية لتنزيه الله وتقديسه عن صفات الحوادث ، وهذا مما يلفت النظر إلى سمو لغة القرآن المعجزة ، وحسن وفائها لعقيدة التوحيد .

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

* *

● ثالثًا : المسح :

لا ريب أن المسح ضرب من ضروب ملاقاة جسم لآخر ، أحدهما ماسح ، والآخر ممسوح ، كاللامس والملموس ، والماس والممسوس ، بيد أن فرقًا واضحًا بين المسح وكل من اللمس والمس ينبئ عنه الاستعمال القرآنى لكلمة « المسح » ، كما أنبأ عن الفروق بين كل من اللمس والمس .

---

(1) النساء : ٨٢

● **أمثلة « المسح »** :

الذى يدخل معنا من أمثلة « المسح » أربع آيات ، هى :

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (١) .

﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ (٢) .

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ (٣) .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (٤) .

هذه المواضع الاربعة واحد منها خاص بمسح الرأس بالماء فى الوضوء ، واثنان وردا فى مسح الوجوه والأيدى بالتراب فى التيمم . والمسح فيها ثلاثتها مستعمل فى المعنى اللغوى الحقيقى ، أى ملاقاة جسم لآخر كاللمس والمس مع فارق مهم سنذكره بعد قليل .

أما الموضع الرابع ﴿ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ الوارد فى الحديث عن نبى الله سليمان - عليه السلام - فهو مسح مجازى لا حقيقى ؛ لان المراد منه أن سليمان لما شغلته خيله عن الصلاة وتنبه أخذ سيفه مسرعًا فجز أعناقها وقطّع قوائمها تخلصًا من الفتنة . فالمسح هنا مستعار للذبح والتقطيع ، إشارة إلى الإسراع فى إبادتها إسراع المسح ليسره وسهولته .

وأيا كان الأمر فإن المسح - كما يفهم من الاستعمال القرآنى هو ملاقاة جسم لآخر ، والفرق بينه وبين كل من اللمس والمس أنه يكون مع إمرار الجسم الماسح على الجسم الممسوح ، وهذا هو الذى يحدث فى مس الرأس بالماء فى الوضوء ، وفى مسح الوجه واليدين بالتراب فى التيمم .

* *

(١) النساء : ٤٣ (٢) المائدة : ٦

(٣) المائدة : ٦ (٤) سورة ص : ٣٣

● منهج القرآن فى « المسح » :

أولاً : وروده فى مقامى التشريع والقصص .

ثانيًا : تردده بين الحقيقة والمجاز .

ثالثًا : قلة وروده بالنسبة إلى « اللمس » .

* *

● الفروق بينها :

ونعيد - فى إيجاز - الفروق بين هذه الكلمات الثلاث فيما يأتى :

أولاً : كل من الكلمات الثلاث المراد منها ملاقاة جسم لآخر .

ثانيًا : الفرق بين اللمس والمس هو شدة الملاصقة فى اللمس وخفتها فى المس .

ثالثًا : المسح كاللمس والمس إلا أنه يفترق عنهما بتحريك الجسم الماسح على الجسم الممسوح . أما اللمس والمس فيكونان مع سكون الجسم اللامس والجسم الماس . والله أعلم .

* * *

المطر - الغيث

المطر والغيث كلاهما اسمان لنزول الماء من السحاب ، فكان ينبغي أن يكونا مترادفين ، لفظهما مختلف ، ومعناهما واحد ، وهذا هو وضعهما في معاجم اللغة . المطر هو الغيث ، والغيث هو المطر [1] .

أما في لغة البيان القرآني فالأمر مختلف ، فمع أن المطر والغيث اسمان لنزول الماء من السماء ، فإن القرآن الكريم يفرق بينهما تفرقة واضحة ، ولنأخذ أولاً في سوق الأمثلة :

● **أمثلة « المطر »** :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [2] .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [3] .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ [4] .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [5] .

﴿ .. فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [6] .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ [7] .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ﴾ [8] .

---

(١) المفردات : (٣٦٧) ، و« المصباح المنير » : (٤٥٨) .

(٢) الأعراف : ٨٤ (٣) هود : ٨٢ (٤) الحجر : ٧٤

(٥) الشعراء : ١٧٣ (٦) الأنفال : ٣٢ (٧) الفرقان : ٤٠

(٨) النساء : ١٠٢

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فى هذه الآيات الثمانى خمسة أفعال ماضية مبنية للفاعل « أمطرنا » مسندة إلى ضمير اسم الجلالة .

وفعل ماض واحد مبنى للمفعول والفاعل محذوف هو « الله » - عزَّ وجَلَّ - وأربعة أسماء مصدر « مَطَر » ، وواحد اسم فاعل « ممطرنا » من الفعل الرباعى : « أمطر » .

وجميع ما ذُكر من « أمطرنا » ، و« أُمْطِرَتْ » ، و« مطر » ، و« ممطرنا » مستعمل فى مقام الشر والعذاب والأذى . حتى فى المقام الذى ظاهره الخير والتفاؤل ، وهو قول « عاد » :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ، فإن « ممطرنا » مستعمل فى مقام الشر والعذاب لفظًا وتفسيرًا ، أما « لفظًا » ، فإن « مُمْطِرنا » اسم فاعل من الفعل الرباعى « أمطر » وعلماء اللغة مجمعون على أن « أمطر » بالهمزة لا يرد إلا فى مقام العذاب والانتقام ، أما « مَطَر » بدون همزة واسم الفاعل منه « ماطر » ، فهو عند اللغويين لا يستعمل فى « الشر » (٢) ، وحكاية القرآن عن « عاد » ، وهى قولهم : « مُمْطِرنا » حكاية صادقة ، فقد قالوا بألسنتهم ما يستحقونه بما كسبت قلوبهم ، وهذه إحدى « لطائف » البيان القرآنى المعجز .

وأما « تفسيرًا » ، فإن القرآن عقَّب على قولهم هذا وبين حقيقة العارض الذى انخدعوا فيه ، فقال :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

---

(١) الأحقاف : ٢٤ (٢) انظر المصباح المنير : (٤٦٧) .

إذن فهذا اللفظ « مطر » ومشتقاته لم يرد فى لغة القرآن إلا فى مقام الشر والعقاب ، ولم يخرج موضع واحد من مواضع وروده عن هذا النسق .

* *

● **منهج القرآن فى « المطر » :**

أولاً : لم يستعمله القرآن إلا فى مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله . وفى مقام الأذى والابتلاء إذا ورد فى سياق الحديث عن المؤمنين كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ ﴾ .

ثانيًا : فاعل المطر والإمطار هو « الله » لفظًا ومعنًى .

أما لفظًا فقد أسندت الأفعال المبنية إلى « الفاعل » إلى « الله » باعتبار الضمير العائد عليه .

وأما معنى ؛ فليس فى مقدور غير الله أن يُحدث هذه الظاهرة ، وهى المطر والإمطار .

* *

● **أمثلة « الغيث » :**

﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ [1] .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [2] .

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [3] .

هذه هى الآيات الثلاث التى ذُكر فيها الغيث فى لغة القرآن ، والغيث والغوث : النجدة والعون . ومعنى هذا أن القرآن لم يستعمل « الغيث » إلا فى مقام الإنعام والخير ، ويشاركه فى هذا المقام الماء ، كقوله تعالى ممتنًا على عباده :

---

(١) لقمان : ٣٤ (٢) الشورى : ٢٨

(٣) الحديد : ٢٠ ، (والكفار هنا الزراع) .

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. ﴾ (1) .

﴿ .. وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (2) .

وما أكثر الآيات التى ذُكر فيها الماء فى مقام التمدح الإلهى والتفضل على العباد ، أما المطر فلم يذكر قط فى القرآن فى مقام الإنعام على العباد ، وبهذا تنتفى صفة « الترادف » بين المطر والغيث ، وكذلك الماء ، هكذا نجد لغة القرآن .

* *

● **منهج القرآن فى « الغيث »** :

أولاً : أنه فى القرآن نعمة وفضل من حيث لفظه ، ومن حيث معناه : غيث أو غوث ونجدة .

ثانيًا : ليس له فاعل إلا الله ﴿ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ لا سواه .

ثالثًا : قلة وروده فى القرآن الكريم .

* * *

---

(1) البقرة : ٢٢ (2) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩

النِّعمة - النَّعِيم

من الكلمات الكثيرة الورود في القرآن كلمتا : النعمة والنعيم ، وأصولهما : النون ، والعين ، والميم ، والفرق اللفظي بينهما تاء التأنيث في الأولى ، والياء في الثانية ، أما المعنى فلا يكاد يرى أحد اختلافًا فيه ، فالنعمة هي النعيم ، والنعيم هو النعمة .

ولكن البيان القرآني يخص كلا منهما بمعنى ، فللنعمة فيه مقام ودلالة ، وللنعيم فيه مقام ودلالة ، مع أنهما - معًا - تدلان على ما يمن الله به على عباده من فضل وخير ومتاع ، والأمثلة الآتية توضح ذلك .

● **أمثلة « النِّعمة » :**

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (1) .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (2) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (3) .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (4) .

﴿ . . رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . . ﴾ (5) .

﴿ . . وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا . . ﴾ (6) .

﴿ . . ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ (7) .

---

(1) البقرة : 211 (2) البقرة : 231 (3) الأنفال : 53
(4) النحل : 53 (5) الأحقاف : 15 (6) النحل : 18
(7) الزمر : 8

﴿ . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . ﴾ (1) .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . . ﴾ (2) .

هذه ثماني آيات ذكرناها تمثيلاً لا استقصاء ، وردت فيها كلمة « نعمة » - بكسر النون - مسندة إلى الله ، أو مضافة إلى اسم آخر من أسمائه « رب » أو مسندة إلى ضمير لفظ الجلالة ، أو منسوبة إليه بواسطة حرف جر « فمن الله » ، و« منه » ، وبالنظر في هذه الأمثلة وفي غيرها مما لم نذكره نلحظ أن القرآن لم يستعمل كلمة « نعمة » ، ولا « نَعْمة » ، ولا « نعماء » إلا فيما يمن الله به على الناس في هذه الحياة الدنيا ، سواء كان نعمًا مادية أو روحية ، وهذه الدلالة مطردة في القرآن في الحديث عن النِّعم الدنيوية العاجلة ، هذا ونرجئُ الحديث عن منهج القرآن في « النعمة » إلى ما بعد التمثيل لكلمة « النعيم » والنظر في دلالتها .

● **أمثلة « النعيم »** :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (3) .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (4) .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (5) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ (6) .

﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (7) .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ (8) .

---

(1) المائدة : 3 — (2) الضحى : 11 — (3) المائدة : 65

(4) الحج : 56 — (5) الشعراء : 85 — (6) لقمان : 8

(7) الواقعة : 11 ، 12 — (8) الواقعة : 89

﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [1] .
﴿ إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [2] .
﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [3] .
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [4] .

وفى هذه الآيات العشر جاءت كلمة « النعيم » مضافة إليها « جنات » فى خمسة مواضع ، ومضافة إليها « جنة » فى موضعين ، ومضافة إليها « نضرة » فى موضع واحد ، وغير مضاف إليها فى موضعين ، ومواضعها التى لم نذكرها جارية على هذا النسق .

والجدير بالاعتبار أن القرآن لم يستعمل كلمة « النعيم » فى جميع أحوالها إلا فى مقام الحديث عن إنعام الله على صالحى عباده فى الدار الآخرة ، على نقيض دلالة « النِّعمة » التى وقفها البيان القرآنى على الحديث عن نعم الله على خلقه فى الحياة الدنيا .

● **إلا آية « التكاثر »** :

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ :

هذه الآية وردت فى ختام سورة « التكاثر » ، وفيها كلمة « النعيم » لا « النعمة » ، والمقام الذى وردت فيه ، فيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون المراد بـ « النعيم » فيها : نعم الدنيا .

والآخر : أن يكون « النعيم » الذى ورد فيها مرادًا به نعيم الآخرة ، ولكل من الاحتمالين مُسَوِّغ :

أما الأول : فلأن السؤال سيكون يوم الحساب : يوم يسأل كل امرئ عن

---

(1) القلم : 34 — (2) الانفطار : 13
(3) المطففين : 24 — (4) الإنسان : 20

شبابه فيمَ أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله ممَّ جمعه ؟ ، وفيمَ أنفقه ؟ وعن علمه فيم عمل به ؟

وأما الثانى : فلأن القرآن خصَّ النعيم بآلاء الحياة الآخرة ، وهذا يقتضى أن تكون الدلالة مطردة فى جميع مواضع ذكره . وعلى هذا يحمل السؤال على النعيم الحق ما هو ؟

أهو ما شغل الناس فى الدنيا ، وهو جمع المال « التكاثر » ؟

أم هو نعيم الآخرة الخالد الخالى من كل المنغصات والمكدرات ؟ ولا نستطيع أن نجزم بواحدٍ من الاحتمالين .

والسر فى اختصاص إنعام الآخرة بـ « النعيم » - فيما نرجح - أن « نعيم » جاء على صيغة الصفة المشبهة « فعيل » ، وهى تفيد الثبوت والدوام : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ (1) ، وهذا أولى من قول صاحب المفردات : « النعيم : الخير الكثير (2) » لأن الكثرة قد يوصف بها خير الدنيا . وهو زائل عن صاحبه ، وصاحبه زائل عنه ، كما أن « نعيم » زائد فى مبناه بـ « الياء » عن « نعمة » وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى - غالبًا - كما يقول علماء اللغة ، فنعيم الآخرة - مع كثرته - دائم بلا انقطاع ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

* *

● منهج القرآن فى « النعمة » ، و« النعيم » :

أولاً : يخص إنعام الدنيا بـ « النعمة » ويخص إنعام الآخرة بـ« النعيم » .

ثانيًا : يغلب على « النعمة » الإسناد إلى اسم من أسماء الله تعالى أو إلى

---

(1) الرعد : ٣٥

(2) مفردات الراغب : مادة : (ن ع م) .

ضمير عائد عليه ، أو الإضافة إلى اسم من أسمائه أو إلى ضمير عائد عليه ، أو تنسب إليه بواسطة « حرف جر » وقل مجيؤها مقطوعة عن الإسناد والإضافة.

ثالثًا : يخص إنعام الآخرة بـ « النعيم » مضافة إليه « جنة » أو « جنات » أو « نضرة » ، أي : بهجة وإشراق ، وقل مجيؤه غير مضاف إليه .

رابعًا : « النعيم » فى القرآن موسوم بالكثرة والصفاء والدوام ، أما النعمة فمآلها الزوال إما بنفسها ، أو بموت صاحبها .

خامسًا : استعمال القرآن لـ « النعمة » ، و« النعيم » يوحى بانتفاء الترادف بينهما ، فلكلٍ منهما مقام ، ولكل منهما معنى خاص بها ، وبهذا جاء التنزيل الحكيم المعجز .

* * *

الجمال - الحُسْن

الجمال والحسن من الكلمات التى يكثر فى كلام الناس الوصف بها لأشياء مختلفة ، دون التقيد بما يكون موصوفًا بالجمال أو موصوفًا بالحسن ، وإحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى أمر لا حرج فيه ، فما يصفه واصف بأنه جميل، يصفه آخر بأنه حَسن ، أو يصفه الواصف نفسه مرة بأنه حسن ، وأخرى بأنه جميل .

بل إن أئمة اللغة يسوون بين الجمال والحسن ، فهذا سيبويه إمام اللغويين والنحاة يفسر الجمال بأنه : رقة الحسن .

وقالوا فى بيان : تَجمَّل تجمُّلاً « أن معناه تزيَّن وتحسَّن [1] ، وقال الراغب : الجمال الحسن الكثير » [2] .

هذا هو وضع الجمال والحسن فى اللغة ، وفى استعمالات الناس ، عامتهم وخاصتهم ، فهل هما فى لغة القرآن سواء ؟

وهل ما يوصف بالحسن يوصف بالجمال ؟ وما يوصف بالجمال يوصف بالحسن ؟

وهل إحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى سائغ ومقبول ؟

إن الاستعمال القرآنى لهاتين الكلمتين هو الذى يحدد الإجابات الواضحة على هذه التساؤلات ، ولنبدأ بكلمة « الجمال » ومشتقاتها لقلة ورودها فى لغة القرآن بالنسبة لورود الحسن ومشتقاتها :

* *

---

(١) المصباح المنير : مادة (ج م ل) - (١١٠) .   (٢) المفردات : (٩٧) .

● **أمثلة « الجَمَال » :**

ونذكر جميع مواضعها فى القرآن لقلتها :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٣) .

﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (٤) .

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (٥) .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (٦) .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (٧) .

النظر فى هذه الآيات التى استعمل القرآن فيها « الجمال » ، و« جميل » يُسْفِر عن الحقائق الآتية :

* استعمل القرآن كلمة « جميل » سبع مرات ، وكلمة « الجمال » مرة واحدة .

* كلمة « جميل » لم ترد إلا وصفًا . والموصوف بها فى هذه المواضع أمر معنوى معقول ، لا مادى محسوس . فقد وصف بها « الصبر » مرتين . ووصف بها « الصفح » مرة واحدة ، ووصف بها « التسريح » ، وهو الطلاق ، مرتين ، ووصف بها « الهجر » ، وهو الاعتزال ، مرة واحدة .

(١) النحل : ٦ (٢) يوسف : ١٨ ، ٨٣ (٣) الحجر : ٨٥
(٤) الأحزاب : ٢٨ (٥) الأحزاب : ٤٩ (٦) المعارج : ٥
(٧) المزمل : ١٠

وكل هذه الموصوفات أمور ذهنية معنوية .

* أما « الجمال » فى آية « النحل » ، فهو السعادة النفسية والمجد [1] .

وهو أمر نفسى شعورى .

* *

● **منهج القرآن فى « الجمال » :**

أولاً : لم يرد منه فى القرآن إلا المصدر « الجمال » ، والصفة المشبهة «جميل » .

ثانيًا : لم يستعمل القرآن « الجمال » ، و« جميل » إلا فى سياق الحديث عن « الأمور المعنوية » غير الحسية المادية .

ثالثًا : قلة ورود المادة فيه بالنسبة لمادة (ح س ن) .

● **أمثلة « الحسن » :**

هذه المادة (ح س ن) كثيرة الدوران فى الذكر الحكيم ، وجاءت فيه فى صيغ متعددة :

أفعالاً ومصادر وصفات ، ثلاثية ، ورباعية ، وسنقتصر على سوق بعض آيات ورودها ، بالقدر الذى يُجَلِّى لنا منهج القرآن فيها ، ويوضح الفروق بينها وبين مادة : (ج م ل) ، ومن الله وبه التوفيق :

﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [2] .

﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [3] .

---

(١) انظر : (الكشاف) للزمخشرى (٢/ ٤٠١) .

(٢) النساء : ٦٩ (٣) الكهف : ٣١

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (٢) .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٤) .

﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٥) .

﴿ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (٦) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (٧) .

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ ، وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . ﴾ (٨) .

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٩) .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ (١٠) .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ (١١) .

﴿ وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ (١٢) .

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ (١٣) .

﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) .

إجالة النظر فى هذه الآيات ترينا أن القرآن الحكيم يُطلق « الحُسْن » ،

---

(١) الأنعام : ١٥٤ — (٢) الكهف : ٣٠ — (٣) غافر : ٦٤

(٤) النساء : ١٢٨ — (٥) الكهف : ١٠٤ — (٦) آل عمران : ١٤

(٧) العنكبوت : ٨ — (٨) الأحزاب : ٥٢ — (٩) القصص : ٦١

(١٠) فاطر : ٨ — (١١) الحديد : ١١ — (١٢) النساء : ٩٥

(١٣) القصص : ٧٧ — (١٤) البقرة : ١٩٥

و« الحَسَن » على الأمور المعنوية المعقولة ، وعلى الأمور المادية المحسوسة سواء بسواء ، ففى شأن زوجات النبى ﷺ وتثبيته على مَنْ فى عصمته ، ونهيه عن التزوج بغيرهن يقول : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ .

والحُسْن فى النساء مادى محسوس .

وفى سياق الحديث عن « الوعد » يقول : ﴿ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ .

وحُسْن الوعود معنوى معقول .

وفى سياق الحديث عن « القرض » يقول : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ، وحُسْن القرض معنوى اعتبارى ، وهو خلوه من المنّ ، وأن يراد به وجه الله .

والحُسْن فيه كالجمال ، والحَسَن كالجميل فى المصدرية والوصف ، ولكل منهما : (الحُسْن والحَسَن) مقام . فالحُسْن مقامه أن لا يقع وصفًا مباشراً لموصوف مذكور فى الكلام ، ﴿ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾ .

أمَّا « الحَسَن » فوصف مباشر لموصوف مذكور قبله فى الكلام ، مثل : ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ ﴾ .

وبهذا يظهر الفرق جليًا بين « الجمال » ، و« الحُسْن » فى لغة القرآن .

* *

● منهج القرآن فى « الحُسْن » :

أولاً : هو أوسع دائرة ، وأكثر ورودًا وصيغًا لغوية من « الجمال » .

ثانيًا : يطلق القرآن « الحُسْن » ومشتقاته على الأمور الحسية والأمور المعنوية، فكل جميل فيه حَسَن ، وليس كل حَسَن جميلاً ما لم يكن أمرًا اعتباريًا .

ثالثًا : الحُسْن في القرآن كالجمال كلاهما مصدران . والحَسَن فيه كالجميل كلاهما وصفان .

رابعًا : يأتي « الحُسْن » في القرآن « عمدة » لا « وصفًا » تابعًا لموصوف ، أما « الحَسَن » فيأتي فيه وصفًا مباشرًا لموصوف مذكور قبله في الكلام .

ذلك هو منهج القرآن في « الحُسْن » ، و« الحَسَن » ، والفرق بينهما وبين « الجمال » ، و« الجميل » نسق محكم لا خلط فيه ولا غموض .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

* * *

(1) الأعراف : ٥٢

الميِّتْ - الميْت

الميْت والميِّت كلمتان أصولهما الثلاثية واحدة ، هى الميم والياء والتاء ، وهما من كلمات القرآن الحكيم ، والاستعمال القرآنى يكشف عن فرق عظيم بينهما ، والوقوف على هذا الفرق بين : مَيْت بسكون الياء ، وميِّت بتحريك الياء مشددة يحسم خلافًا نشأ قديمًا وما يزالَ قائمًا بين العلماء من مفسرى كتاب الله الكريم وغيرهم من الباحثين . وسنعود لهذه المسألة بعد التمثيل لـ « مَيْت وميِّت واستجلاء الفرق بينهما :

● أمثلة « ميِّت » :

﴿ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّت ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ﴾ [1] .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ﴾ [2] .

﴿ .. حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَد مَيِّت .. ﴾ [3] .

﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ .. ﴾ [4] .

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [5].

﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ .. ﴾ [6] .

﴿ .. فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴾ [7] .

---

(١) آل عمران : ٢٧ — (٢) الأنعام : ٩٥ — (٣) الأعراف : ٥٧

(٤) يونس : ٣١ — (٥) إبراهيم : ١٧ — (٦) الروم : ١٩

(٧) فاطر : ٩

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [1] .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ [2] .

فى هذه الآيات التسع ذُكر اسم الفاعل : ميِّت ، وميِّتون ، وميِّتين أربع عشرة مرة ، وكان معناه فى كل هذه المرات : الحى الذى قُضِى عليه بالموت ، فهو سيموت بعد حياته تلك .

والدليل على هذا خطاب الله لرسوله حال حياته :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ ، هذا دليل قاطع على أن القرآن أطلق كلمة « ميِّت » ، و« ميِّتون » على الرسول ﷺ ، وعلى أصحابه - رضى الله عنهم - ، وهو حى ، وهم أحياء . و« مَيِّتُونَ » وصف شامل لكل حى بعد صحابة رسول الله من الناس جميعًا ؛ لأن الموت سنة من سنن الله فى الأحياء من خلقه .

وفى كتب اللغة :

« وَأَمَّا الْحَى فَمَيِّتٌ بالتثقيل لا غير ، وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ، أى : سيموتون » [3] .

* *

● **الموصوف نوعان :**

فى الآيات التسع المذكورة نجد الموصوف بكلمة « ميِّت » نوعين :

الأول : ما كان له روح نشأت عنها الحياة ، وهم الموصوفون فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

والثانى : ما ليس له روح وهو الأرض كما فى قوله - عزَّ سلطانه - : ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

(1) الزمر : 30 (2) الصافات : 58

(3) المصباح المنير : (مادة : م و ت 584) .

● سؤال :

ويترتب على ما قلناه من أن القرآن يطلق كلمة « ميِّت » على الحى الذى سيموت ، سؤال وجيه حاصله أن القرآن وصف « البلد » مرتين بـ « ميِّت » ، كما أجرى على لسان بعض أهل الجنة أنه قال :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى . . ﴾ .

و« البلد » التى وصفت بـ : « ميت » غير قابلة للموت لأنها لا زرع فيها ولا ماء ، وخلوها من الزرع والماء هو موتها الواقع بالفعل ، فكيف ستموت بعد موتها هذا ؟

وأهل الجنة أحياء أبدًا لا يموت منهم أحد . فكيف يستقيم القول بأن القرآن يطلق « ميت » أيا كان نوع الموت حقيقيًا أم مجازيًا على الحى الذى سيموت ؟

● الجواب :

والجواب - فيما نرى - يتلخص فى الآتى :

* أما ما حُكِىَ عن بعض أهل الجنة فهو حكاية حال ماضية وسياق الكلام يقضى بهذا .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (1) .

فقول بعض أهل الجنة - هذا - تذكير لقرين السوء بما قال فى الحياة الدنيا،

---

(1) الصافات : ٥٤ - ٥٩

بعد أن وقع ما كان يكفر به ، وأهل الجنة ليسوا بمعذبين ، وإنما قال هذا لقرينه تعريضًا وتبكيتًا ، وبهذا يندفع السؤال المعترض على اطراد القاعدة التى لاحت لنا ، يندفع هذا السؤال فى شقه المتعلق بهذه الآية : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ .

* أما الشق الثانى المتعلق بوصف « البلد » بـ « ميِّت » فقد هدينا فى الإجابة عليه إلى الآتى :

والجواب من وجهين :

* كان الأصل أن يوصف « البلد » بـ « مَيْتْ » الساكن الوسط لا المحرَّك المشدد « ميِّت » تشبيهًا له بمن مات من الأحياء - كما سيأتى . ولكنه وصف بـ « ميِّت » المحرك المشدد الوسط تشبيهًا له بالحى الذى سيموت . وهذا يجاب عنه من وجهين :

الأول : أن الآيتين اللتين وصف فيهما « البلد » بـ « ميِّت » اتفقتا فى أمرين :

أ - أن السحاب مسوق « سقناه » فى « الأعراف » ، و« فسقناه » فى الزمر .

ب - أن « السَّوْق » فيهما معدى بحرف جر « لبلد » فى الأعراف و« إلى بلد » فى الزمر .

وهذا معناه أن مسافة ممتدة بين منشأ السحاب ، وبين البلد الذى سيق إليه ، فلا يبعد أن يكون فى هذا « البلد » آثار من حياة ريثما يصل إليها السحاب فيجدد أسباب الحياة فيها ، فعومل - أى البلد - معاملة « الحىّ » الذى سيموت .

ذلك أن الفعل « سقناه » وحرف الجر المعدى به « إلى - لـ » لا بد أن تكون لهما دلالة فى بناء الجملة ، وهذه الدلالة هى التى نصصنا عليها قَبْلاً .

الوجه الثانى : أن يكون المراد من « البلد » أهله ، وهم قطعًا أحياء سيموتون . ونظير هذا فى القرآن من إطلاق المكان وإرادة أهله قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (١) .

وغير ذلك فى القرآن كثير .

وبهذا تطرد القاعدة التى يكشف عنها منهج القرآن فى كلمة « ميِّت » .

* *

● **منهج القرآن فى كلمة « ميِّتٌ » :**

أولاً : يستعمل القرآن كلمة « ميِّت » بتحريك الوسط وتشديده وصفًا للحى الذى سيموت ، وليس وصفًا لمن مات من الأحياء .

ثانيًا : كما استعمل « ميِّت » فى الدلالة اللغوية الوضعية وفى الدلالة على الموت المجازى لما لا روح فيه .

ثالثًا : جاءت ثلاثة مواضع خارجة عن الأصل الذى أشرنا إليه من حيث ظاهر اللفظ ، وقد طرحنا حولها وجهة نظر ، نرجو أن تكون صائبة ، تقضى باطراد القاعدة القرآنية فى المواضع الأربعة عشر إن شاء الله .

* *

● **أمثلة « مَيْت » :**

﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. ﴾ (٢) .

﴿ .. وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٤ (٢) الأنعام : ١٢٢ (٣) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا . . ﴾ (١) .
﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (٢) .
﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٣) .
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ (٤) .
﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ (٥) .
﴿ . . وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ (٦) .
﴿ . . إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ (٧) .
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ (٨) .
﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ (٩) .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة جاءت « ميْت » وصفًا مجازيًا خمس مرات ، والموصوف هو « بلدة » فى ثلاثة مواضع ، والأرض فى موضع واحد ، والجاهل أو الضال أو الكافر فى موضع واحد .

ووصف « بلدة » ، و« الأرض » بـ « ميْت » تشبيهًا لهما بالميْت الحقيقى فى عدم النفع على سبيل الاستعارة التصريحية ، التى حذف فيها المشبه وذكر المشبه به .

ووصفت الجاهل أو الضال أو الكافر بـ « ميْت » فهو استعارة – كتلك – والجامع بين الجاهل والضال والكافر ، وبين الميْت موتًا حقيقيًا هو عدم الاعتداد بالحياة مع الجهل والضلال والكفر . هذا هو الجانب المجازى فى استعمال « ميْت » فى لغة القرآن الحكيم ، أما المواضع الستة الأخرى ، فقد

(١) الزخرف : ١١ — (٢) الحجرات : ١٢ — (٣) سورة ق : ١١
(٤) البقرة : ١٧٣ — (٥) المائدة : ٣ — (٦) الأنعام : ١٣٩
(٧) الأنعام : ١٤٥ — (٨) النحل : ١١٥ — (٩) يس : ٣٣

استعمل القرآن كلمة « ميْت » فيها فى معناها اللغوى الوضعى أو الحقيقى ، وهو مفارقة الروح البدن . وجاء ذلك على ضربَيْن :

الأول : فى شأن الإنسان مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .

الثانى : فى شأن ما يؤكل لحمه من الأنعام والطيور والدواجن فى خمسة مواضع من الآيات المذكورة . وهذه الآيات الإحدى عشرة هى كل ما فى القرآن الذى استُعْمِل فيه « مَيْت » بسكون الياء .

* *

● **منهج القرآن فى : « مَيْت »** :

أولاً : يستعمل القرآن كلمة « ميْت » الساكن الوسط فى الدلالة على الموت المعروف ، وهو مفارقة الروح البدن .

ثانيًا : مجئ « ميْت » فى القرآن مجازًا فى خمسة مواضع وحقيقة فى ستة مواضع . وقد تقدم تفصيله .

* *

● **تعقيب** :

وقد يسأل سائل : لماذا اختُصَّ « ميِّت » المشدد الوسط بالحى الذى سيموت؟ .

ولماذا اختص « ميْت » الساكن الوسط بمن كان حياً فمات فعلاً .

والجواب :

قد تكون هيئة اللفظ - والله أعلم - لها مدخل فى هذا الاختصاص فى الموضعين :

فالمشدَّد الوسط : « ميِّت » ، فيه حركة صاخبة ، وشدَّة ملحوظة عند النطق به ، وهذا يناسب الحياة بما فيها من قوة ونشاط . أما « ميْت » الساكن

الوسط ففيه رخاوة وضَعْفٌ يلحظان - كذلك - عند النطق بـ « مَيْت » ، وهذا يناسب الموت بما فيه من انقطاع الحركة والنشاط . وليس هذا ببدعٍ فما أكثر الكلمات التى بينها هيئة ونطقًا ، وبين معناها تلازم وتلاحم .

* *

● يخرج الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّت :

عرفنا مما تقدم أن القرآن يطلق على الحى الذى مصيره الموت كلمة « المَيِّت » بتحريك الياء وتشديده ، ويُطلق على من كان حيا ثم مات فعْلاً كلمة « المَيْت » بسكون « الياء » ، وهذا مطرد فى لغة القرآن ، لا يقبل جدلاً . وقد أشرنا من قبل أن هذا الفهم من شأنه أن يحسم خلافًا قديمًا وما يزال قائمًا بين مفسرى القرآن وغيرهم حول آيات وردت فى القرآن الحكيم تدور وتكرر حقيقة واحدة هى :

إخراج الله المَيِّت من الحى ، وإخراجه الحى من المَيْتْ ، وتلك الآيات هى :

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ، ذَلِكُمُ اللهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَم مَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ،

---

(١) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ (٢) الأنعام : ٩٥

فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ • فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (١) .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) .

هذه هى الآيات الأربع التى تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية ذكرناها كاملة - وأحيانًا - مع جارتها - كما فى آية آل عمران - ؛ لأن المقام يقتضى ذلك لما لهذه الآيات - بطولها - من صلة بالمعنى الجديد الذى هُدينا إليه ، راجين الله أن نكون موفقين فيه ، وأن يكتب له القبول عند أهل العلم وصالحى المؤمنين .

* *

• مذاهب المفسرين فى الموضوع :

حاول المفسرون تفسير هذه الحقيقة الإلهية ، وذكروا فيها أقوالاً مختلفة ، وفيما يأتى نسوق بعضًا من أقوالهم فى آية آل عمران ؛ لأنها أول آية فى المصحف الشريف تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية العظيمة ، وبعد الفراغ من ذكر أقوالهم نذكر المعنى الجديد الذى هدينا إليه .

يقول أبو السعود العمادى : « ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، أى : تنشئ من موادها ، أو من النطفة ، وقيل : تخرج المؤمن من الكافر ، ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، أى : تخرج النطفة من الحيوان ، وقيل تخرج الكافر من المؤمن » (٣) .

وذكر ابن عطية أقوالاً مشابهة ثم قال :

---

(١) يونس : ٣١ ، ٣٢ (٢) الروم : ١٩

(٣) تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم) (٢/٢٢) .

« واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، فقال الحسن : معناه : تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . . وقال عكرمة : هو إخراج الدجاجة ، وهى حية من البيضة ، وهى ميتة ، ، وإخراج البيضة ، وهى ميتة ، من الدجاجة ، وهى حية » [1] .

وقال النسفى : « ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، أى : الحيوان من النطفة ، أو الفرخ من البيضة ، أو المؤمن من الكافر ، و﴿ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، النطفة من الإنسان ، أو البيضة من الدجاج ، أو الكافر من المؤمن » [2] .

ويقول الشوكانى : « ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ تخرج الرجل الحى من النطفة الميتة . ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، تخرج النطفة الميتة من الرجل الحى . . أو هى البيضة تخرج من الحى ، وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحى . . أو المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن » [3] .

ويتابع الطاهر بن عاشور ، وهو من المفسرين المعاصرين - يتابع ما قاله المفسرون الأقدمون ، فيقول :

« وإخراج الحى من الميِّت هو إخراج أطفال الحيوان من النُّطف ومن البيض، فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ، ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ، ثم تكون فيها الحياة . . وإخراج الميِّت من الحى إخراج النطفة والبيض من الحيوان » [4] .

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : (٣/ ٥١) .

(٢) تفسير أبى البركات عبد الله بن أحمد النسفى : (١/ ١٥٢) .

(٣) فتح القدير : (١/ ٣٨٠) ، للإمام الشوكانى (م ١٢٥٠ هـ) ، وقد ساق آثاراً منها أحاديث منسوبة للنبى ﷺ ولم ينص على صحتها .

(٤) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١١/ ١٥٦) .

فالطاهر بن عاشور لم يأخذ عن المفسرين إلا هذا القول ، وترك ما عداه كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، وكأنه لم يرتض تلك الأقوال التى أعرض عنها ، وهو على حق فى ذلك .

والذى اعتمده الطاهر قول صحيح فى جملته ، ولكن طريقة تفسيره لا تصح .

وابن عاشور وغيره اعتبروا النطفة والبيضة ميتتين وهذا هو مكمن الخطأ فى التفسير ، وقد وجد بعض خصوم الإسلام مدخلاً للطعن فى صدق القرآن بناء على هذا التفسير ، وقد أشار الشيخ يوسف الدجوى - رحمه الله - فى فتاويه إلى بعض طعون هؤلاء الحاقدين [١] .

ذلك أن العلم الحديث أثبت للنطفة وللبيضة حياة كاملة تليق بتركيب كل منهما . فراح هؤلاء الحاقدون يحاولون أن يشككوا فى صدق القرآن متخذين من التفسير المذكور مدخلاً لطعونهم على كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والواقع أن القرآن ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وهذه الطعون لا تصدق عليه ، فالقرآن لم يقل إن « الحى » هو الحيوان ، وإن الميت هو النطفة والبيضة ، وإنما هذه اجتهادات مفسرين ، وهم بشر يصيبون ويخطئون ، أما « النص القرآنى » فهو فوق هذه التصورات « الاجتهادية » والأوهام الحاقدة ، والآن نعرض على القارئ المعنى الجديد الذى هُدينا إليه واطمأنت قلوبنا به ، وركنت نفوسنا إليه ، واقتنعت به عقولنا .

* *

---

(١) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوى (٢/٢٥) وما بعدها - طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .

● المعنى الجديد :

عرفنا مما تقدم أن القرآن الحكيم استعمل كلمة « ميْت » فى من كان حيا حياة حقيقية ثم مات موتًا حقيقيًا ففارقت روحه بدنه .

وأنه استعمل كلمة « ميِّت » بتحريك الياء وتشديدها فى مَنْ هو حى سيموت يومًا ما .

فإذا أخذنا بمنهج القرآن فى هذا الاستعمال المطرد - ولا بد لنا من الأخذ به - كان معنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ هو توالد الأبناء من الآباء والأمهات ، أيًّا كانوا ، من بنى آدم ، أو من غيرهم ، على أن حمله على الآدميين أظهر وأشهر .

الآباء والأمهات حين يتوالد عنهم أبناؤهم - ذكورًا وإناثًا - يوصفون حسب منهج القرآن الحكيم بأنهمَ (ميِّتون) أى أحياء مصيرهم الموت .

والأبناء حين يتوالدون يصدق عليهم قطعًا أنهم (أحياء) ثم إن هؤلاء الأبناء لما كان مصيرهم مصير آبائهم وأمهاتهم فى أنهم أحياء مقضى عليهم بالموت، فإنهم يصدق عليهم ما صدق على أصولهم ، فقال فى شأنهم : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، وهكذا يُحْكِمُ الله سنته فى عباده ، فليس منهم أحد خالدًا لا من كان عهده بالحياة أقدم ، وهم الآباء والأمهات ، ولا من كان عهده بالحياة أحدث ، وهم الأبناء ، فكلٌّ منهم يحمل وصفين ، وهما : حياة ثم موت لاحق .

وقدمت حياة الأبناء ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ لأنهم أحدث حياة وأبقى - فى الأغلب - من أصولهم .

وقُدِّم موت الأصول ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ على موت الفروع فى الشق الثانى

من الآية ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، لأنه أسبق من موت الأبناء - فى الأغلب - .

وهذا التكرار فى الحى والميت والتقديم والتأخير فيهما يسميه البلاغيون « العكس والتبديل » .

هذا الفهم المنبثق من خصائص الاستعمال اللغوى فى القرآن أولى بالاعتبار للأسباب الآتية :

أولاً : لأنه يسُدُّ منافذ الطعن فى صدق التنزيل الحكيم ، ويُحْكم قبضة الدفاع عنه إحكامًا يستحيل على أهل الزيغ والهوى اختراقه .

ثانيًا : لأنه يليق بمقام التمدح الإلهى وجلال قدرته وبديع صنعه وحكمة تصرفه فى خلقه . وتَبدُّل أحوالهم .

ثالثًا : لأنه إجراء للدلالة اللغوية فى القرآن فى كلمتى : « الميْت » ، و«الميِّت » على نسق واحد فى هذه الآيات الأربع والآيات الأخرى التى وردت فيها .

رابعًا : لأنه لا يمنع منه مانع قط ، فضلاً عما يتضمنه من مزايا وأولويات .

* * *

مَدَّ - أمدَّ

مدَّ وأمدَّ لهما أصول ثلاثية مشتركة بينهما ، وهى الميم والدال والدَّال المدغمة فيها . ودلالتهما فى اللغة أشار إليها الراغب ، فقال :

« وأكثر ما جاء الإمداد - يعنى أمد ومصدره - فى المحبوب والمدُّ فى المكروه » [1] .

هذا ما جزم به صاحب المفردات ، أى أن الفرق بين مدَّ وأمدَّ أن الأصل فى « مدَّ » مجيؤه فى المكروه ، وقد يستعمل فى المحبوب .

وأن الأصل فى « أمدَّ » استعماله فى المحبوب ، وقد يجئ فى المكروه .

فإذا كان هذا هو منهج اللغة فيها - بوجه عام - فما هو منهج لغة القرآن فيهما ؟

هل هو كما قال الرغب ؟ أم لهما فيه شأن آخر ؟

والإجابة على هذا تتضح بعد التمثيل والنظر ، فتعال معى إليهما فى لغة التنزيل الحكيم .

● **أمثلة « مَدَّ »** :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وأَنهَارًا ﴾ [2] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ [3] .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ . . ﴾ [4] .

---

(1) المفردات : (٤٩٥)

(2) الرعد : ٣

(3) الفرقان : ٤٥

(4) الحجر : ١٩ ، وسورة ق : ٧

﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ (١) .

﴿ كَلا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدا ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مدا ﴾ (٣) .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ إن لَّنْ يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَو أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ . . ﴾ (٥) .

﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِخْوَانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ (٨) .

هذه اثنتا عشرة آية استُعْمِلَتْ فيها كلمة « المد » على صيغتي الفعل الماضي والمضارع ، وقد أسفر النظر فى هذه الآيات أن القرآن الحكيم يفرق بين « مدَّ يمُدُّ » إذا جاءت فى سياق الحديث عن الإنسان وبين مجيئها فى سياق الحديث عن غير الإنسان .

- فإذا جاءت فى سياق الحديث عن الإنسان فإن دلالتها فى هذا المقام مرتبطة بـ « المكروه » ، أو فى « مقام الشر » ، وجاء ذلك فى سبع آيات من الآيات المذكورة مضمومًا إليها آية « طه » المشار إليها فى الهامش رقم (١) .

ومن هذا « المكروه » ما هو محرم ، وهو مد الأعين إلى ما متع الله به بعض عباده ؛ لأن من خُلُق المؤمن أن يرضى بما قسم الله له بعد الأخذ بالأسباب .

---

(١) الحجر : ٨٨ ، وطه : ١٣١ (٢) مريم : ٧٩
(٣) مريم : ٧٥ (٤) الحج : ١٥ (٥) لقمان : ٢٧
(٦) البقرة : ١٥ (٧) الأعراف : ٢٠٢ (٨) الانشقاق : ٣

وهكذا بقية المواضع :

المد فى العذاب ، المد فى الضلال ، المد فى الغى ، المد فى الطغيان ، المد فى الظنون المعادية للإيمان .

أما إذا جاءت فى سياق الحديث عن غير الإنسان فإن القرآن يستعملها فى « مقام المحبوب » أو مقام الخير مع العظة والاعتبار ، وجاءت على هذا النسق فى خمس آيات ، والخير أو المحبوب فيها هو :

مدُّ الأرض وبسطها لنفع الناس وغيرهم .

مدُّ الظل وتحريكه وتعاقب الضياء بعده فى نظام بديع .

مدُّ البحر بسبعة أبحر للفت النظر إلى سعة علم الله .

مدُّ الأرض يوم القيامة فيحظى الصالحون برضوان الله ويبوء الطالحون بالخسران ، فمنهج القرآن إذن فى « مد » هو الآتى :

* *

● **منهج القرآن فى « مدَّ » :**

أولاً : اختصاصها بالمكروه أو الشر إذا جاءت مجراة على أوضاع الإنسان .

ثانيًا : اختصاصها بالمحبوب أو الخير إذا جاءت مجراة على غير الإنسان .

وما أشار إليه الراغب من قبل من مجئ « المد » فى الخير والشر مع غلبة الشر أو المكروه فيها كلام صائب إذا قارنَّا بين منهج القرآن - هنا - وبين كلام الراغب ، ولكن فاته هذا التفصيل الذى هدينا إليه من واقع لغة القرآن نفسها ، والتفرقة القرآنية بين « مد » حديثًا عن الإنسان ، و« مَدَّ » حديثًا عن غير الإنسان جديرة بالتأمل لأنها من سمات الإعجاز فيه .

* *

● أمثلة « أمدّ » :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ (١) .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٣) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ .. ﴾ (٤) .

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴾ (٥) .

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٧) .

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ .. ﴾ (٨) .

﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾ (٩) .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١٠) .

فى هذه الآيات تكرر الفعل « أمدّ - يُمدّ » عشر مرات ، واسم الفاعل منه « ممدكم » مرة واحدة ، وغير خاف أن القرآن الكريم استعمل كل هذه المواضع فى مقام الخير ، أو فى مقام « المحبوب » ، ولم يخرج موضع واحد منها عن هذا النَّسق .

وغير خاف - كذلك - أن جميع هذه المواضع وردت فى سياق الحديث عن الإنسان مترددة بين الوَعْد الحسن ، والخير الصادق ، ولم يشذ منها موضع واحد عن هذا الإطار .

* *

---

(١) الشعراء : ١٣٢ ، ١٣٣ (٢) الإسراء : ٦ (٣) الطور : ٢٢
(٤) النمل : ٣٦ (٥) الإسراء : ٢٠ (٦) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦
(٧) آل عمران : ١٢٥ (٨) نوح : ١٢ (٩) آل عمران : ١٢٤
(١٠) الأنفال : ٩

● لماذا هذا الاختصاص :

قلنا إن « مدَّ » إذا استُعْمِل فى القرآن فى سياق الحديث عن الإنسان اختُص بالمكروه ، وأن « أمد » إذا جاءت فى سياق الحديث عن الإنسان - ولم تأت فى غيره قط - اختصت بالخير أو « المحبوب » فلماذا إذًا هذه التفرقة القرآنية بين « مدَّ » ، و« أمد » مُجْرَيَيْن على الإنسان ؟

والجواب :

أشار بعض علماء اللغة إلى أن « المدَّ » معناه الجر - أى السحب أما « الإمْداد » فمعناه الزيادة فى الخير والتقوية من أمددت الجيش إذا عززته بقوة أخرى من الجند والسلاح .

وعلى هذا فإن القرآن فى استعماله لـ « مَدَّ - أمد » راعى هذين المعنيين .

فكان « المد » فيه مهانة ، والإمداد كرامة ، والمد مصدر مدَّ ، والإمداد مصدر « أمد » .

أما ما ذكره الراغب من أن الأصل فى « أمدَّ » الاستعمال فى « المحبوب » ويقل استعماله فى « المكروه » فهذا لا وجود له فى لغة القرآن ، فكل مواضعه كانت فى مقام « المحبوب » (١) .

* *

● منهج القرآن فى « أمدَّ » :

أولاً : قَصْرُ دلالتها على « المحبوب » أو الخير دائمًا .

ثانيًا : قَصْرُ استعمالها فى سياق الحديث عن الإنسان .

ثالثًا : لم يرد منها شىء فى مقام « المكروه » أو الشر .

* * *

---

(١) وليس للراغب دليل على قوله هذا فى آيتى « المؤمنون » (٥٥ - ٥٦) المذكورتين فى الهامش رقم (٦) فى صفحة (١٢٦) لأن الإمداد بالمال والبنين مما تحبه النفوس حتى لو كان استدراجًا من الله للعصاه من عباده .

العمل - الفِعل

العمل والفعل يبدوان مترادفين على معنى واحد ؛ لأنهما شديدا التقارب ، وبعض اللغويين ذهب إلى أن الفعل أخص من العمل ، ودليله على هذا أن العمل يحتاج إلى قَصْد وهدف عند العامل ، ولذلك فإنه لا يُسْند إلى غير العاقل من الحيوانات أو الجمادات ، بينما الفعل يُسْند إلى العاقل وغير العاقل ، ويندر إسناد العمل لغير العقلاء ، وإنما كان العمل والفعل متقاربين فى الدلالة ؛ لأنهما كنايتان عن صدور « حَدَث » من « مُحْدِث » هذا هو « الأصل » الجامع بينهما .

وهاتان الكلمتان كثيرتا الاستعمال - وبخاصة عمل - فى لغة القرآن الحكيم ، وقد رأينا القرآن فى الكلمات التى درسناها من قبل ، رأيناه يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل موسومًا بالإعجاز والتفرد ، جاريًا على سنن العرب فى طرائق البيان المختلفة ، موظفًا اللغة - مفردات وتراكيب - توظيفًا يسمو فوق أفصح الأساليب التى عُرِفت عنهم ، وفوق أبلغ ما أُثر عنهم من نماذج البيان الناصع والكلام المحكم .

وسيرًا على المنهج الذى انتهجناه من قبل فى دراسة مفردات اللغة المستعملة فى القرآن ، واستخراج ما فيها من أسرار لاحت ، ودقائق إعجازية ظهرت سيرًا على هذا المنهج نمضى مع « عمل » ، و« فَعَل » فى القرآن ، وننظر إلى ما يسفر عنه النظر فيهما .

* *

● أمثلة « عَمِل » :

مادة « عمل » من أكثر المواد استعمالاً فى لغة القرآن والإحاطة بها - هنا - عزيزة المنال ، فلنذكر بَعْضًا من مواضع ورودها بقدر ما يُسْعفنا بالتعرف على أبرز سمات المنهج القرآنى فيها :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . ﴾(١) .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . . ﴾(٢) .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا . . ﴾ (٣) .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . . ﴾ (٤) .

﴿ . . وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ . . وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٦) .

﴿ . . وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧) .

﴿ . . فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ . . ﴾ (٨) .

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًا وَلا نَصِيرًا ﴾(٩) .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . . ﴾ (١٠) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (١١) .

---

(١) البقرة : ٦٢ (٢) النحل : ٩٧ (٣) غافر : ٤٠
(٤) آل عمران : ٣٠ (٥) النحل : ١١١ (٦) الكهف : ٤٩
(٧) البقرة : ٨٥ (٨) النحل : ٢٨ (٩) النساء : ١٢٣
(١٠) الأنعام : ١٣٥ (١١) يس : ٧١

النظر فى هذه الآيات - بمختلف صيغها يسفر عن الحقائق الآتية :

* أن القرآن يستعمل مادة (ع م ل) فى جانبى الخير والشر ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ - ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. ﴾ - ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ - ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

* أن استعمال القرآن لها فى جانب الخير أضعاف استعمالها فى جانب الشر ، وبخاصة الفعل الماضى منها ، حيث أوقع بكثرة لا مثيل لها على «الصالحات» .

* يذكر معمولها بكثرة إذا كانت فعلاً ماضيًا ، ويحذف ذلك المعمول بكثرة مماثلة ، إذا كانت فعلاً مضارعًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

* يستعملها - أحيانًا - شاملة لجانبى الخير والشر ، كقوله تعالى : ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾

* يستعملها كثيرًا فى مقام التهديد إذا كانت فعل أمر ، كقوله تعالى : ﴿وَقُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

* ومن اللافت للنظر أن هذه المادة على كثرة ورودها فى القرآن لم يأت منها موضع واحد أُسنِدَتْ فيه إلى اسم الجلالة - الله - أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو إلى ضمير عائد على اسم من أسمائه الكريمة . وإنما جاءت مسندة إليه بواسطة « الأيدى » ، فى قوله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ مع ملاحظة مهمة ، وهى :

أن هذا الإسناد غير المباشر جاء فى حيز الفعل « خلقنا » ، وهو « عمدة الجملة » بلا نزاع .

* أن القرآن الحكيم خلا خُلُوًا تامًا من إسناد أى فعل من هذه المادة إلى

أسماء الله إسنادًا مباشرًا ، كما خلا من إسنادها إلى أى ضمير يعود عليها . وهذا مما يدعو إلى التأمل والتفكير .

● ولماذا خلا ؟

كلام الله مُحْكم كفعله ، ولا بد أن يكون لخلو القرآن من إسناد « عمل - يعمل » إلى اسم من أسمائه المباركة ، أو ضمير عائد على شيء منها ، لا بد أن يكون لذلك من حكمة ، فما هي يا ترى ؟

والجواب :

العمل - كما قال بعض أهل العلم - يحتاج إلى تفكر ومقارنة بين الفعل والترك ، وتقليب النظر فى صوره واختيار ما يهدي إليه النظر فيها . والله سبحانه - لا يخفى عليه شيء ولا تلتبس عليه الأمور . **هذه واحدة** .

والثانية : أن العامل قد يعمل له غيره ، والله غنى عن العالمين .

والثالثة : أن العامل يعمل ليحصل على ثمرة عمله من خير هو فقير إليه ، والله أغنى الأغنياء .

لهذه المحظورات - والله أعلم - خلا القرآن من إسناد (عمل - يعمل) إلى أسماء الله الحسنى ، تقديسًا له وتنزيهًا ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

* *

● منهج القرآن فى « عَمِل » :

أولاً : الإكثار من استعمالها فى المحبوب وقلة استعمالها فى المكروه .

ثانيًا : خلوه من الإسناد المباشر لله أو أى اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو أى ضمير عائد عليها تنزيهًا له وتقديسًا .

ثالثًا : مجيؤها - أحيانًا - شاملة للخير والشر فى صيغة واحدة ، وبخاصة فى الفعل المضارع الواقع فى فواصل الآى .

* *

● **أمثلة « فَعَل »** :

فعل كعمل فى استفاضة ورودها فى القرآن الحكيم ، وسنسلك فى التمثيل لها ما سلكناه فى « عمل » بقدر ما يمكننا من الوقوف على منهج القرآن الحكيم فيها :

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . . ﴾ (٢) .

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ . . ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٨) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٩) .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٠) .

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (١١) .

---

(١) النحل : ٣٣ — (٢) آل عمران : ١٣٥ — (٣) المائدة : ٧٩
(٤) البقرة : ١٩٧ — (٥) النساء : ١٢٧ — (٦) الحج : ٧٧
(٧) الانفطار : ١٠ - ١٢ — (٨) النحل : ٩١ — (٩) البقرة : ٢٥٣
(١٠) آل عمران : ٤٠ — (١١) المرسلات : ١٨

﴿ وتبيّن لكمْ كيفَ فعلْنَا بِهِمْ وضرَبْنَا لكمُ الأمْثَالَ ﴾ [١] .

﴿ ألَمْ تَرَ كيْفَ فعَلَ ربُّكَ بأصْحَابِ الفِيلِ ﴾ [٢] .

﴿ . . وسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ ، وكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [٣] .

الآيات الأربع عشرة التى تقدمت ، ترسم لنا بكل وضوح ملامح المنهج القرآنى فى استعمال مادة (ف ع ل) والقارئ الكريم يستطيع أن يستشف تلك الملامح إذا أنعم النظر فى هذه الآيات .

* وغير خاف أن القرآن يستعمل صيغ « فعل » فى مجالى المحبوب والمكروه ، أو الخير والشر مثلما جاءت فيه مادة « عمل » من قبل .

ففى الخير - مثلاً - كان قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ ، وفى الشر : ﴿ وإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ .

* جاءت « فعل » ومشتقاتها مسندة إلى غير الله كثيرًا ، وهى التى تتردد بين مجالى الخير والشر ، أو المحبوب المرغَّب فيه ، والمكروه المنفَّر منه .

* وجاءت مسندة إلى « الله » وبعض أسمائه الحسنى « رب » كما جاءت مسندة إلى ضمير اسم الجلالة ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ .

* ما أُسند منها إلى اسم « الجلالة » أو « رب » أو إلى ضمير عائد عليه شمل الفعلين الماضى والمضارع ، ثم اسم الفاعل : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ، وصيغة المبالغة ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [٤] .

* والمسند منها إلى « الله » و« رب » واسمى الفاعل والمبالغة على ضربين :

الأول : التمدح بجلال الله ﴿ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

الثانى : التهديد والاعتبار : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ، ثم :

---

(١) إبراهيم : ٤٥ (٢) الفيل : ١

(٣) الأنبياء : ٧٩ (٤) البروج : ١٦

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ، و﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ . . ﴾ (١) .

أو الاعتبار فحسب ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

* خلو المسند إلى الله من المادة من فِعْل الأمر لاستحالة وجود من يأمره ، وهو العلى العظيم . حتى على سبيل الدعاء مع ورود مثله فى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأن فعل الأمر المستعمل (قرآنيا) فى الدعاء متعلقه مخصوص كطلب الهداية ، والنصر ، وغفران الذنوب ، وهذا إلا يتأتى فى «افْعَل » لعموم معناه .

وكما خلا من « فعل الأمر » وإن كان على سبيل الدعاء خلا من المضارع المنهى عنه « لا تفعل » حتى على سبيل الدعاء كذلك ؛ لأن علة امتناع الأمر « افْعَل » هى علة امتناع « لا تفعل » تنزيهًا لله وتقديسًا ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد ، هكذا نزل القرآن مُحْكمًا بريئًا من المآخذ لأنه نزل بعلم الله .

* *

● منهج القرآن فى« فَعَلَ » :

أولاً : استعمال « فَعَلَ » فى مجالى الخير والشر إذا أسندت إلى غير الله .

ثانيًا : مجيؤه مسندًا إلى « الله » و« رب » والضمير العائد عليه فى صيغ الفعلين الماضى والمضارع واسم الفاعل وصيغة المبالغة .

ثالثًا : ما جاء مسندًا إلى « الله » منها إما للتمدح بجلال الله ، أو للتهديد مع العظة والاعتبار ، أو الاعتبار فقط .

---

(١) سبأ : ٥٤

رابعًا : لم يأت منه مسندًا إلى « الله » فعل أمر ولا نهى وإنْ على سبيل الدعاء تقديسًا لله وتنزيهًا ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

* *

● لماذا المنع هناك والجواز هنا ؟

فى مادة « ع م ل » عرفنا خلو القرآن من إسنادها إلى « الله » أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو ضمير عائد عليه . كما عرفنا سبب ذلك الخلو .

أما « فَعَلَ » فقد أسندت إلى « الله » مرات . والسبب - فيما نعتقد - انتفاء الموانع التى لوحظت فى « عمل » ، ومن أبرزها أن الفعل هو ما صدر عن الفاعل مباشرة بدون واسطة .

وأن أفعال الله صادرة عن قوة سلطانه ، والفعل - كما قال اللغويون : لا يحتاج إلى تفكير وطول نظر بل الشأن فيه أن يصدر ابتداء .

لذلك - وغيره - امتنع إسناد « عمل » إلى « الله » وجاز إسناد « فعل » إليه ؛ لأنه من صفات الكمال والجلال والجمال .

* * *

الجِهَادُ – القِتَالُ

الجهاد والقتال كلمتان ثقيلتا الوزن إذا كانا فى سبيل الله وأُدِّيا بخلوص النية ، وصدق العزم ، وبرآ من الأهواء ، ووقعا موقعهما من الصحة والصواب ؛ ولغة القرآن حفلت بالأمر بهما ، والترغيب فيهما ، وجزيل المثوبة عليهما ، وهما – وإن اتحد موضوعهما – ليسا بمعنى واحد من كل الوجوه ، بل بينهما فرق جليٌّ كما ينبئ عنهما استعمال القرآن لهما . ذلك الفرق نتبينه من النظر فى النماذج القرآنية الآتية :

● **أمثلة « الجهاد »** :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ .. ﴾ (٢) .

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ (٤) .

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ .. ﴾ (٥) .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ﴾ (٦) .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ .. ﴾ (٧) .

---

(١) التحريم : ٩ (٢) التوبة : ١٦ (٣) العنكبوت : ٦

(٤) النساء : ٩٥ (٥) المائدة : ٥٤

(٦) العنكبوت : ٨ ، وانظر آية « لقمان » (١٥) (٧) الحج : ٧٨

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

الجهاد فى سبيل الله هو تحمل المشاق فى نصرة دين الله ودحر الباطل سواء كان باللسان أو بالمال أو بحمل السلاح ومقاتلة العدو إذا وجب القتال .

ويشمل الجهاد كل عمل يؤديه المؤمن من شأنه إعلاء كلمة الله ، فيجاهد المؤمن نفسه لتنأى عن المعاصى والمنكرات ، ويجاهد غيره فيدعوهم إلى القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية ، آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، داعيًا إلى الخير .

ووسائل هذا الجهاد أكثر من أن تُحصى :

خطبة تُؤَدَّى ، أو محاضرة تُلْقى ، أو مقالة تُنشر ، أو إصلاح بين الناس أو مال تُسَدُّ به حاجات المعوزين ، أو كتاب يتصدى لدعاوى المارقين أو تعليم لبث الوعى ، أو مرض يعالج ، أو استعمار يُقَاوَم ، أو مساجد تُشاد ، أو مستشفيات ، أو ملاجئ أيتام تقام .

والقتال فى سبيل الله أسمى مراتب الجهاد ، وله دواعٍ خاصة به ، وأسباب تقتضيه . بيد أن الجهاد أوسع دائرة من القتال . لأن الجهاد هو الجهد المبذول بإخلاص بغية إعلاء كلمة الله .

دليل ذلك أن الله سمَّى إلحاح الوالدين على ولدهما ليشرك بالله مجاهدة ، وهما لا يحملان على ولدهما سلاحًا .

كما سمى إقامة الحجة على « الكافرين » بالقرآن ، ومجادلتهم به جهادًا ، ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (٣) .

---

(١) الفرقان : ٥٢ (٢) التوبة : ٤١ (٣) انظر « تفسير النسفى » (١٧١/٣) .

ولما كان الجهاد أوسع دائرة من القتال فإنه يصدق على نشاطات الدعوة كلها . وله فى لغة القرآن ضوابط منظمة هى :

* أن يكون فى سبيل الله لا فى أغراض أخرى عصبية أو شخصية .
* أن يكون لإعلاء كلمة الله ابتغاء مرضاة الله مع خلوص النية والتجرد .
* أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

* *

● منهج القرآن فى « الجهاد » :

أولاً : اتساع دائرته بما يشمل نشاطات الدعوة كلها ، ووسائله لا تكاد تُحصى ، وعلى كل فرد فى الأمة عبء منه حسب مقدرته وميدان عمله فى المجتمع .

ثانيًا : أن يكون عملاً واعيًا ومخلصًا مرادًا به وجه الله ولإعلاء كلمته فى كل شأن من شئون الحياة .

ثالثًا : أن يكون بالحكمة ، والموعظة الحسنة .

* *

● أمثلة القتال :

إذا كان الجهاد مشتقًا من « الجهد » وهو المشقة ، فإن القتال مشتق من القتل ، أو مرادف له فى الدلالة مع أعمية « القتال » و« أخصية » القتل .

ومن أمثلة « القتال » فى القرآن الآيات الآتية :

-﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حقا فِى التَّوْرَاةِ

وَالإِنجيلِ وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (١) .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ ألا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ . . فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ؛ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٦) .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌ لَّكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

﴿ وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً . . ﴾ (٨) .

---

(١) التوبة : ١١١

(٢) آل عمران : ١٥٧

(٣) آل عمران : ١٦٩ - ١٧١

(٤) آل عمران : ١٩٥

(٥) النساء : ٧٤

(٦) البقرة : ١٩٠

(٧) البقرة : ٢١٦

(٨) التوبة : ٣٦

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١) .

هذه الآيات بعض من حديث القرآن عن القتال وفضله ، وقداسته ، وهو - كما سبق - أسمى درجات الجهاد ، لهذا نجد القرآن يبدئ ويعيد فى فضله والجزاء الحسن الجميل الذى أعده الله للمقاتلين ، سواء قتلوا فى سبيل الله ، أو حققوا الغلب على العدو ، وأعلَوا كلمة الله خفاقة فى الآفاق .

ونلحظ تفاوتًا كبيرًا فى المثوبة على مجرد الجهاد ، والمثوبة على خوض غمار المعارك ، لما فيه من تعريض النفس للأخطار - وكُلا وعد الله الحسنى -

وللقتال فى القرآن ضوابط ، كما كان للجهاد ضوابط ، إلا أن ضوابط القتال أكثر حيطة ، وأشد إحكامًا ، لأن القتال فيه إزهاق للأرواح ، وإسالة للدماء فكان لا بد فيه من « ضمانات » تكفل العدالة ، وتصون الحقوق ، وترعى الحرمات .

هذه الضوابط منها ثلاثة جاءت مجموعة فى آية واحدة :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فهو أولاً : لا يكون إلا فى إعلاء كلمة الله ، وهذه عبارة جامعة لمعان كثيرة .

وهو ثانيًا : لا يكون إلا مع الذين يقاتلوننا فعلاً أو عزمًا مؤكدًا .

وهو ثالثًا : مشروط بعدم الاعتداء والتجاوز .

وورود كلمتى « الجهاد » و« القتال » فى لغة القرآن مبدآن تنظيميان للحفاظ على الحقوق ورعاية الحرمات ، ونصرة الحق ، ودحر الباطل ، الجهاد يؤدى

---

(١) الصف : ٤

دوره فى الداخل بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقتال يدفع الأخطار الخارجية ، ويصد أى عدوان يمس رسالة الأمة ، أو يهدد أمنها . كلاهما - الجهاد والقتال - صماما الأمن العام والخاص . ولكل عدوان سلاح يليق به ، فإذا لم تحقق الوسائل السلمية الأهداف ، فلا مناص من شهر السلاح حتى يحكم الله بيننا وبين الخصوم .

* *

● منهج القرآن فى «القتال» :

أولاً : هو ضرورة تدعو إليها ظروف لا يُجدى فيها إلا حملُ السلاح .

ثانيًا : هو أخص من « الجهاد » المرادف لـ « الدعوة » وأسمى درجات الجهاد .

ثالثًا : يحيطه القرآن بـ « ضمانات » محكمة لئلا يترتب عليه ظلم أو قتل برئ .

رابعًا : أجره عند الله أعظم من « مجرد الجهاد » بالوسائل السلمية لما فيه من أعباء جسام ، وتعريض النفس لأقدح الأخطار .

خامسًا : أن يكون لإعلاء كلمة الله ، ونصرة الحق ، ودحر الباطل ، وتأمين الحقوق ، ورعاية الحرمات ، وتحقيق الأمن خارجيًا وداخليًا .

* * *

المُخْطِئ - الخَاطِئ

تشترك هاتان الكلمتان فى ثلاثة أصول ، هى : الخاء والطاء ، والهمزة ، ولكل منهما بعد هذا الاشتراك تصريفاتها اللغوية ، بل ودلالتها الخاصة بها ، وللغويين آراء متباينة حول المعانى التى تدلان عليها ، فمنهم من يسوى بينهما فى الدلالة ، وممن يسوى بينهما فى الدلالة أبو عبيدة ، فهما عنده بمعنى واحد هو « ضد الصواب » [1] ، أى أن أخطأ وخطئ سواء .

ومنهم من قال : خطئ فى الدين - أى فى أمور الدين ، وأخطأ عام فى كل شىء عَمْدًا كان أو غير عمد [1] .

أما لغة القرآن فإن لكل كلمة منهما معنى خاصًا بها ، ولم تأت واحدة منهما مكان الأخرى .

وسنخالف المنهج الذى اتبعناه من قبل بعض المخالفة ، فنذكر أمثلة الكلمتين تباعًا ثم ننظر ما تدل عليه كل منهما .

● **أمثلة « أخطأ » :**

أخطأ اسم الفاعل منها « مخطئ » ، و« خَطِأَ » اسم الفاعل منها « خاطئ » ، أما مصدر الأولى فهو فى الأصل : « إخطاء » كأرسل « إرسال » ، ولكن القرآن لم يستعمله ، بل استعمل اسم المصدر « خطأ » ، ولم يستعمل منه اسم فاعل ، وعلى هذا يجرى التمثيل :

﴿ .. رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴾ [2] .

---

(١) المصباح المنير : (١٧٤) .　　(٢) البقرة : ٢٨٦

﴿ .. وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً .. ﴾ (٢) .

﴿ .. وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ .. ﴾ (٢) .

هذا كل ما ورد فى القرآن من « أخطأ » فعلاً ومَصْدراً .

* *

● أمثلة « خَطِئَ » :

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٤) .

﴿ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٥) .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٦) .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (٧) .

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا ﴾ (٨) .

﴿ كَلا ، لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٩) .

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأحزاب : ٥ — (٢) النساء : ٩٢ — (٣) الحاقة : ٣٦ ، ٣٧
(٤) يوسف : ٢٩ — (٥) يوسف : ٩١ — (٦) يوسف : ٩٧
(٧) القصص : ٨ — (٨) الإسراء : ٣١ — (٩) العلق : ١٥ ، ١٦
(١٠) الشعراء : ٨٢

﴿ إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا .. ﴾ (١) .

إن ما يسفر عنه النظر فى هذه الآيات هو الحقائق الآتية :

* جاءت صياغات « خطئ » كثيرة التنوع بالنسبة لصيغ أخطأ . فهناك لم يأت إلا الفعل (الماضى) ثم اسم المصدر ، أما هنا فجاءت اسمًا واسم فاعل مذكر ومؤنث ، كما جاءت مصدرًا ، واسم الفاعل جمعًا ومفردًا .

* أن القرآن يفرّق بين دلالتى الكلمتين تفرقة دقيقة فى كل صورهما .

فـ « أخطأ » معناها : جانبه الصواب سواء كان الخطأ مقصودًا أو غير مقصود ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

أما « خطئ » وجميع صورها فمعناها : أثم ، أو ارتكب إثمًا ، وهذا ظاهر جدًا ، خذ إليك - مثلاً - قوله تعالى :

﴿ وَلا طَعَامٌ إلا مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إلا الْخَاطِئُونَ ﴾ ، أى : «الكافرون أصحاب الخطايا ، وخطِئَ الرجل إذا تعمد الذنب » (٢) .

وقول العزيز لامرأته التى راودت يوسف عن نفسه ، ﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، أى : المذنبين الآثمين .

وقول إخوة يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ ، أى آثمين حين ألقوا يوسف فى البئر وكذبوا على أبيهم وزعموا أن الذئب أكله وهم عنه غافلون .

وقوله تعالى فى النهى عن قتل « الأولاد » خشية الفقر : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) طه : ٧٣ (٢) تفسير النسفى : (٤/٢٨٩) .

إذن فقول بعض اللغويين أن « أخطأ » و« خطئ » بمعنى واحد فيه غفلة وبُعْد عن الصواب .

وكذلك ما نراه شائعًا - الآن - فى وسائل الإعلام وفى كتابات كثير من أصحاب الأقلام ، حيث يستعملون « خاطئ » و« خاطئون » مكان « مخطئ » ، و« مخطئون » ولو كان الأمر كما يقولون - فى الواقع - لما التزم الكتاب العزيز كلمة « خطئ » وصورها فى الدلالة على « الإثم » و« أخطأ » فى الدلالة على مجانبة الصواب .

* *

● منهج القرآن فى « أخطأ » و« خطئ » :

أولاً : التفرقة الواضحة بين « دلالتيهما » ، فالأولى بمعنى مجانبة الصواب ، سواء كان « الخطأ » مقصودًا أو غير مقصود ، والخطأ المقصود إثم ولكن باعتبار القصد والنية ، وهى أمر نفسى خفى ، لا من حيث دلالة اللفظ .

والثانية بمعنى الإثم والذنب ، وكل صورها فى القرآن تدل دلالة واضحة على هذا المعنى .

ثانيًا : « خطئ » أكثر استعمالاً وصورًا فى لغة القرآن ، وأكثر تصرفًا من « أخطأ » .

ثالثًا : اختصاص « أخطأ » بمقام التشريع مدنيًا وجنائيًا (الأيمان - القتل الخطأ) .

أما « خطئ » فمختصة بمقام السلوك الإنسانى عقيدة ، وأخلاقًا ، وسيرة .

هذه الدقة فى استعمال مفردات اللغة ، التى تلوح لنا من خلال دراستنا لبعض مفردات لغة القرآن ، هذه الدقة التنظيمية العجيبة وجه عظيم من وجوه الإعجاز البلاغى للقرآن العظيم ، وحقًا إنه أنزل بعلم الله المحيط .

* * *

غفر - كفَّر

هاتان الكلمتان : غفر - كفَّر . يكاد استعمالهما أن يكون مقصورًا على لغة القرآن ، فإن لهما فيه وبخاصة غفر - لشأنًا عظيمًا ، والسبب فى قلة استعمالهما فى غير القرآن أن معناهما والوصف بهما من المعانى والأوصاف العلية التى يستأثر بها الله نفسه إلا ما ندر ، وإسنادهما والوصف بهما يتطلبان فى المسند إليه والموصوف اعتبارات ليس لها وجود حقيقة إلا فى العلى القدير . فإن أُسْنِدَ منهما شىء أو وصف بهما - غير الله - ففيه شىء من التسامح أو التجوز .

والذى نريده من دراسة هاتين الكلمتين فى القرآن هو استخراج منهج القرآن فيهما ، وهل هما بمعنى واحد أم أن لكل كلمة منهما معنى ؟

ثم الدقائق واللطائف فى استعمال القرآن لهما . وقبل الأخذ فى التمثيل والنظر نلفت نظر القارئ إلى ورود هاتين الكلمتين - وصورهما - له فى القرآن ثلاث طرائق :

الأولى : أن يُذْكَرا معا فى سياق واحد .

الثانية : أن تذكر « كفر » فى سياق مستقل .

الثالثة : أن تذكر « غفر » فى سياق خاص بها .

فلنسر فى التمثيل لهما على هذا النسق ، وبالله ومنه التوفيق ، وبَدَهى أننا لن نتقيد فى التمثيل بصيغتى الفعل الماضى (غفر - كفَّر) بل سنمثل لكل صورهما الواردة بقدر ما تسمح لنا فرصة الوقوف على منهج القرآن فيهما .

* *

● ورودهما فى سياق واحد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

فى هاتين الآيتين جُمع بين « غفر – كفَّر » فى سياق واحد مع ملاحظة أن « غفر » خُصَّت بالذنوب ، و« كفَّر » خُصَّتْ بالسيئات .

* *

● ورود « كفَّر » وحدها :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٤) .

﴿ .. لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٥) .

﴿ .. لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ﴾ (٦) .

---

(١) الأنفال : ٢٩ (٢) آل عمران : ١٩٣ (٣) محمد : ٢
(٤) المائدة : ٦٥ (٥) آل عمران : ١٩٥ (٦) المائدة : ١٢

﴿ إن تَجتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ (٤) .

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . ﴾ (٦) .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (٧) .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . . ﴾ (٨) .

﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ (٩) .

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ . . ﴾ (١٠) .

﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ . . ﴾ (١١) .

هذه مواضع ورود « كفَّر - يكفر - كفارة » ، منها اثنتا عشرة مرة جاءت فيها فعلاً ماضيًا أو مضارعًا أو أمرًا (دعاء) ، وثلاث مرات جاءت فيها اسمًا « كفَّارة » ، ونلاحظ أن ما جاء منها كان مفعوله « السيئات » أو « أسوأ »

---

(١) النساء : ٣١ — (٢) العنكبوت : ٧ — (٣) البقرة : ٢٧١
(٤) الزمر : ٣٥ — (٥) الفتح : ٥ — (٦) التغابن : ٩
(٧) الطلاق : ٥ — (٨) التحريم : ٨ — (٩) المائدة : ٤٥
(١٠ ، ١١) المائدة : ٨٩

مثلما كانت « السيئات » مفعولها - كذلك - فى الموضعين اللذين جُمع فيهما بينها وبين « غفر » .

وهذا من أبرز خصائص منهج القرآن فى « كفّر » حيث لم ترد فيه معدّاة إلى غير « السيئات » كما أنها لم تأت - ولا فى موضع واحد - محذوفة المفعول أو منزلة منزلة اللازم غير المعدى هذه واحدة .

أما الثانية : فإن « كفّر - يكفّر - كفّرْ » ليس لها فاعل فى لغة القرآن إلا الله ، فهى مسندة إليه دائمًا ، إما إلى لفظ الجلالة « الله » ، أو إلى ضمير عائد عليه فى الأفعال الثلاثة :

﴿ كَفَّرَ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ - ﴿ يُكَفِّرُ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ - ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ - ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ .

والثالثة : أنها جاءت - دائمًا - مقرونة بحرف الجر مجروراً به ضمير « عنهم » أو « عنكم » أو « عنه » مع أنها فعل يتعدى بنفسه ولا يحتاج واسطة ، ولهذا مغزى بلاغى عظيم ، وهو إظهار الامتنان على المتحدَّث عنهم والتفضل عليهم بنعمة الله .

وزان ذلك أن قول أحدنا : « أدّيتُ دَيْن فلان » ، غير قوله « أدّيت عن فلان دَيْنه » ففى « عنه » إظهار لبراءته وتحمل الغرم عنه ، أما العبارة الأولى فتخلو من هذه اللطيفة الخافية .

والرابعة : أن ما جاء منها فعلاً اختص بمقام الوعد الحسن ، إلا موضعًا واحدًا جاء فى مقام « الدعاء » ﴿ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ .

أما ما جاء اسمًا ، فهو مختص بمقام التشريع كما هو ظاهر .

* *

● منهج القرآن فى « كَفَّرَ » :

أولاً : تخصيصها بـ « السيئات » أو « أسوأ » دائمًا .

ثانيًا : قصرُها على « الله » دون غيره من الفاعلين .

ثالثًا : اقترانها - دائمًا - بحرف الجر « عن » ومجروره ضمير المتحدث عنهم جمعًا وإفرادًا ، خطابًا وغيبة .

رابعًا : إذا كانت فعلاً مضارعًا أو ماضيًا اختصت بمقام الوعد الحسن ، وإذا كانت فعل أمر اختصت بمقام الدعاء .

خامسًا : ما جاء منها اسمًا اختص بمقام التشريع .

سادسًا : التزام تعديتها إلى مفعول ، ولم ترد بمنزلة اللازم قط .

سابعًا : قصرُ استعمالها على الأفعال والأسماء ، ولم يأت منها اسم فاعل « مكفِّر » ولا اسم مفعول « مكفَّر » ولا صيغة مبالغة « كفَّار » إلخ .

ثامنًا : شَفْعُ الوعد بها بوعد حسن غيرها كإصلاح البال فى « محمد » وإدخال الجنات فى « المائدة » و« آل عمران » ، والجزاء الحسن فى «العنكبوت » وإعظام الأجر فى « الطلاق » .

وهكذا جميع مواضع ورودها فِعْلاً ، حيث لم يخلُ موضع واحد منها من إنعام الله عن المتحدث عنهم .

تاسعًا : قلة ورودها بالنسبة لنظيرتها « غفر » عددًا وصيغًا .

* *

● « غَفَرَ » وحدها :

مادة « غ ف ر » كثيرة الاستعمال فى لغة « القرآن » عددًا وصيغًا . وسبيلنا معها التمثيل لصورها لا الاستقصاء لتعذره هنا . ومنهجنا فى التمثيل لها سيكون على النسق الآتى :

* الماضى متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .
* المضارع متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .

* الأمر متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .
* ثم الصور الأخرى غير الفعلية .
* إسنادها لغير الله .

● الماضي متعديًا ولازمًا :
﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وإنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ ﴾ (١) .
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ . . ﴾ (٢) .
﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي . . ﴾ (٣) .

* *

● المضارع متعديًا ولازمًا :
﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ . . ﴾ (٤) .
﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . . ﴾ (٥) .
﴿ . . ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا اللهُ . . ﴾ (٦) .
﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، ألا تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ . . ﴾ (٧) .
﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ . . ﴾ (٨) .

* *

● الأمر متعديًا ولازمًا :
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا . . ﴾ (٩) .

---

(١) سورة ص : ٢٥ (٢) القصص : ١٦ (٣) يس : ٢٦ ، ٢٧
(٤) البقرة : ٥٨ (٥) آل عمران : ٣١ (٦) آل عمران : ١٣٥
(٧) النور : ٢٢ (٨) الفتح : ١٤ (٩) آل عمران : ١٤٧

﴿ .. وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا .. ﴾ (1) .

● الصيغ غير الفعلية :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (2) .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (3) .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ .. ﴾ (4) .

﴿ .. إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (5) .

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ (6) .

﴿ .. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (7) .

* *

● إسنادها إلى غير « الله » :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴾ (8) .

﴿ .. وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .. ﴾ (9) .

﴿ .. وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (10) .

﴿ .. وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ .. ﴾ (11) .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .. ﴾ (12) .

الآيات المذكورة شملت الصيغ الواردة من « غفر » في القرآن الحكيم .

---

(1) البقرة : ٢٨٦ (2) طه : ٨٢ (3) نوح : ١٠

(4) غافر : ٣ (5) القصص : ١٦ (6) البقرة : ٢٦٣

(7) البقرة : ٢٨٥ (8) الجاثية : ١٤ (9) الشورى : ٣٧

(10) التغابن : ١٤ (11) يوسف : ٢٩ (12) آل عمران : ١٣٥

أفعالاً متعدية ولازمة ، وصفات مشتقة ، ومصادر وأسماء ، والنظر فى هذه الآيات - جميعها - يسفر عن الحقائق الآتية :

* هذه المادة « غ . ف . ر » أكثر استعمالاً - عدداً وصيغاً من مادة « ك . ف . ر » فى لغة القرآن .

* ما كان منها فعلاً جاء متعدياً ولازماً لم يذكر له مفعول على خلاف ما كان عليه الحال فى مادة « ك . ف . ر » حيث لم يأت منها لازم .

* بعض مواضعها الفعلية أسندت إلى غير « الله » بينما لم يُسند من « كفر » شئ إلى غير الله .

* لم تُسَلَّط « غفر - يغفر » على « السيئات » مفعولاً لها قط ، بل كان مفعولها « الذنوب » أو « الخطايا » مع التزام إضافتهما إلى « الضمائر » خطاباً وغيبة وتكلما ، فإن لم تكن إضافة ناب التعريف بـ « أل » عنها فى « الذنوب » دون « الخطايا » مثل :

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ ﴾ ، و﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (١) .

* ما جاء منها مع السين والتاء فعلاً ومصدراً التزم القرآن إسناده أو إضافته إلى غير « الله » ، مثل : ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، و ﴿ واسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ ﴾ ، و﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾(٢) .

ومثل :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٣) .

---

(١) الزمر : ٥٣ (٢) التوبة : ١١٤ (٣) التوبة : ١١٣

* وسر هذا الالتزام أن السين والتاء للطلب : أى طلب المغفرة ، وهذا من صفات المخلوقين لا من صفات « الخالق » عزّ وجلّ وهذا - ونحوه - من احتراسات البلاغة القرآنية البديعة ، ومن لطائف التنزيل المحكم من سمات التقديس والتنزيه .

* *

● لماذا اختصت « كفَّر » بالسيئات ؟

عرفنا أن « كفَّر » ليس لها مفعول إلا « السيئات » ، وأن « غفر » لم تُسَلَّط على « السيئات » بل على « الذنوب » و« الخطايا » ولم يأت فى لغة القرآن : اغفر لى سيئاتى قط . فهل لهذا الاختصاص من سر ؟

لقد حاولنا فهم هذا السر ، والذى هدينا إليه أن المعاصى نوعان :

الأول : نوع تصح التوبة منه بالإقلاع عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه ، والندم على ما وقع منه ، وهو الغالب على المعاصى .

الثانى : نوع تتوقف التوبة فيه على « غُرْم مالى » ، أو « جَهْد بدنى » المعبَّر عنهما فى الفقه بـ « الكفَّارات » مثل :

القتل الخطأ ، والظهار من الزوجات ، والحنث فى الأيمان ، والإفطار المتعمد بلا عذر فى نهار شهر رمضان ، ومخالفات مناسك الحج مما ينجبر بالدم أو الفدية ، وجزاء الصيد حال الإحرام ، ورد المظالم إلى أصحابها ، ووطء الحائض والاقتصاص من الظالم للمظلوم .

فالتوبة فى النوع الأول يسيرة ، وفى النوع الثانى عسيرة ، لأنها تتوقف على عملين :

* عزم وإقلاع وندم .

* غُرْم مالى أو جهد بدنى .

لذلك - والله أعلم - تسمى المعاصي من النوع الثاني « سيئات » والعفو عنها « تكفير » .

وتسمى المعاصي من النوع الأول « ذنوب » أو « خطايا » والعفو عنها « غُفران » .

والله تعالى - ذو الطول » إذا صدقت التوبة من العبد كفَّر عنه معاصيه بلا غرم مالي ولا عناء بدني ، وغفر له ذنوبه ما لم يكن مشركًا ظل على إشراكه .

هذا ما لاح لنا من الفروق بين السيئات والذنوب والتكفير والغفران ، وفوق كل ذي علم عليم .

* *

● **منهج القرآن في « غَفَر » :**

أولاً : كثرة استعمالها وتعدد صورها .

ثانيًا : ورود بعض أمثلتها مسندة إلى غير « الله » - عزَّ وجَلَّ - .

ثالثًا : اختصاصها بـ « الذنوب » و« الخطايا » .

رابعًا : ورودها متعدية ومنزلة منزلة اللازم .

خامسًا : ما اقترن منها بـ « السين والتاء » مقصور على غير « الله » رعاية لواجبات « عقيدة التوحيد » .

سادسًا : اقترانها - دائمًا - بالجار والمجرور « له - لهم - لكم - لك - لي » إظهارًا للامتنان على المغفور له كما كان في « كفَّر » حيث التزم اقترانها بـ « عن » .

سابعًا : التزام إضافة « الذنوب » و« الخطايا » إلى « الضمائر » خطابا

وغيبة ، وتكلما ، فإن لم تكن « إضافة » ناب التعريف بـ « أل » مناب الإضافة فى « الذنوب » دون « الخطايا » .

ثامناً : اختصاصها - إن صحَّ ما فهمناه - بالمعاصى التى لا تتوقف التوبة عنها على غُرْم مالى أو عناء بَدنى « الكفارات » فى العبادات ، والجنايات ، وبعض المعاملات .

هذا ما هُدينا إلى ملاحظته ورصده فى منهج القرآن فى « كفَّر » و« غفر » وكم فى القرآن من المناهج التنظيمية « البديعة » فى استعمالاته لمفردات اللغة .

* * *

مَرِضَ – مَرَضٌ

المرض فى اللغة هو العلة التى يصاب بها الجسم فتؤثر فى قواه تأثيرًا يجعله غير قادر على القيام بوظائفه ، ومنه ما يعترى الجسم كله كارتفاع ضغط الدم ودرجة الحرارة ، وما يصيب بعض أعضاء الجسم كالرمد . فالمرض نوع من الفساد يحول دون تحقيق المنافع التى يحتاج إليها الإنسان . وقد استعملت لغة القرآن هذه الكلمة وبعض تصاريفها استعمالاً خاضعًا لمنهج لم تحد لغة القرآن عنه . وهذا ما سيتضح لنا من الآيات الآتية :

● **التمثيل** :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (1) .

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا . . ﴾ (2) .

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ . . ﴾ (3) .

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ . . ﴾ (4) .

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ . . ﴾ (5) .

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . . ﴾ (6) .

﴿ . . وَإِنْ كُنتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا . . ﴾ (7) .

---

(1) الشعراء : 80 — (2) البقرة : 10 — (3) المائدة : 52

(4) الأنفال : 49 — (5) الفتح : 17 — (6) البقرة : 184

(7) النساء : 43

﴿ .. وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ ﴾ (1) .

﴿ .. فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ .. ﴾ (2) .

نستنتج من الآيات التسع التى مثلنا بها لمادة (م . ر . ض) فى القرآن الكريم أن الصور التى جاءت عليها ثلاث :

الأولى : الصورة الفعلية : « مرضت » .

الثانية : الصورة المصدرية : « مرض » .

الثالثة : الصورة الاسمية « المريض - مرضى » .

والصورة الفعلية لم تذكر إلا مرة واحدة ، هى المحكية عن إبراهيم عليه السلام .

أما الصورتان المصدرية والاسمية فقد تكررتا مرات وبخاصة المصدرية .

* كما يسفر النظر فى هذه الآيات أن معانى المادة « م . ر . ض » ترددت بين الحقيقة والمجاز .

وأن المجاز ملازم للصورة المصدرية حيثما ذكرت ، كما أن هذه الصورة المصدرية ملازمة للقلوب ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، وليس المراد به العلة المرضية بل المراد المرض المجازى ؛ لأن مرض القلوب المراد من ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هو الكفر والنفاق وحب الشهوات . ولما كانت هذه الآفات «المعنوية» تحول دون طهارة القلوب بالإيمان والاستقامة والعفة والعمل الصالح شبهت بالأمراض الحسية التى تحول بين الجسم وبين أداء واجباته ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، ولذلك وصفت القلوب فى القرآن بـ « العمى » فى قوله تعالى :

---

(1) النساء : 102 (2) البقرة : 196

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

والعمى لا يكون وصفًا حقيقيًا إلا للأبصار ، أما فى القلوب ، فهو وصف مجازى ، شبّه فيها فساد القلوب المانع من إيصال الهدى إليها بعمى الأبصار المانع من إيصال الرؤية إليها .

كما شبّه فساد القلوب بمرض الأجسام بجامع تعطيل كل منهما عن المنافع .

أما الجانب الحقيقى فخاص بالصورة الفعلية ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، وبالصور الاسمية : « المريض - مرضى » لأن المراد من المرض فى هذه الصور المرض الحقيقى الذى يصيب الجسم أو بعض أجزائه فيعجزه عن العمل كُلا أو بعضًا .

* *

● **منهج القرآن فى « مَرِضَ » :**

ومما تقدم برزت لنا فى وضوح ملامح المنهج القرآنى فى هذه المادة :

فأولاً : لم يرد فى القرآن منها إلا فعل ماض واحد « مرضت » مع تكرار الصور المصدرية والاسمية .

وثانيًا : ترددت تصريفات المادة بين الحقيقة والمجاز .

وثالثًا : المجاز فيها ملازم للصورة المصدرية حيثما وردت .

ورابعًا : أما الحقيقة فملازمة للصور الفعلية والاسمية .

وخامسًا : الصورة المصدرية ملازمة لمقام الذم والتشنيع ، وهى - دائمًا - وصف فى المعنى للقلوب . مع ملاحظة إضافة القلوب إلى ضمير الغائبين «هم» .

وسادسًا : الصورة الفعلية اختصت بمقام تمجيد الله وآلائه .

وسابعًا : الصور الاسمية اختصت بمقام التشريع فى كل موضع وردت فيه .... فما أعظم هذا النظام وما أحكمه ؟

* * *

---

(١) الحج : ٤٦

المرْأة – البَعْلُ

للمرأة فى العرف اللغوى العام والخاص دلالتان : إحداهما : الدلالة على « الأنوثة » المقابلة لـ « الرجولة » ، والمقصود بهما هنا : النوع .

والثانية : الدلالة على « الزوجة » وبخاصة إذا أضيفت إلى الزوج ، مثل : « امرأة نوح » يعنى زوجته أو « زوجه » بدون تاء التأنيث .

أما البعل فهو فى اللغة الفصحى ، أو العرف اللغوى الخاص ، يراد منه الزوج أحد عَميدَى الأسرة .

وكلتا الكلمتين وردت فى لغة القرآن ، ولهما فيه استعمال خاص فيه اعتبارات بديعة ، لطيفة ، حكيمة ، هى من سمات إعجاز القرآن البيانى اللغوى ، وقد قلنا مرات من قبل إن القرآن يستعمل مفردات اللغة استعمالاً « أمثل » لا نجد له نظيراً فى كلام البشر ، مهما علا حظهم من البلاغة والفصاحة ونصاعة البيان .

وأمثلية استعمال القرآن لمفردات اللغة له خصائص مرَّ بنا الكثير منها :

كاستعماله الكلمة فى موضع لا تصلح له غيرها مهما كان بينهما من تشابه واتصال .

وكتوزيع مادة الكلمة الواحدة على منهج بديع ، فيستعمل بعض صورها فى معنى لا يستعمل فيه صورة أخرى من صورها وكأن الكلمة الواحدة فيه كلمات بحسب ما تدل عليه ، وليست كلمة واحدة .

وهاتان الكلمتان : (المرأة – البعل) ، تحملان من سمات الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ما يدعو إلى الدهش وشدة الإعجاب ، فتعال – معى – نجتلى ما يثلج الصدور ويقر العيون من عجائب البيان .

● **التمثيل :**

﴿ .. وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ .. ﴾ (١) .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ (٢) .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينِ فَخَانَتَاهُمَا .. ﴾ (٣) .

﴿ .. وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ .. ﴾ (٤) .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ .. ﴾ (٥) .

﴿ .. وَقَد بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ .. ﴾ (٦) .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِى عَاقِرًا .. ﴾ (٧) .

﴿ .. فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ .. ﴾ (٨) .

﴿ .. وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ .. ﴾ .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا .. ﴾ (٩) .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا .. ﴾ (١٠) .

﴿ .. وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا .. ﴾ (١١) .

﴿ .. وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ .. ﴾ (١٢) .

---

(١) النساء : ١٢ (٢) يوسف : ٣٠ (٣) التحريم : ١٠
(٤) هود : ٨١ (٥) هود : ٧١ (٦) آل عمران : ٤٠
(٧) مريم : ٨ (٨) البقرة : ٢٨٢ (٩) النساء : ١٢٨
(١٠) هود : ٧٢ (١١) البقرة : ٢٢٨ (١٢) النور : ٣١

من النظر فى الآيات التى ذكرناها يتبين لنا الآتى :

* أن القرآن يؤثر أن يطلق على زوجة الرجل كلمة « امرأة » إذا اختلت عُرى الحياة الزوجية ، أيا كان نوع ذلك الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين كآية الكلالة التى صدَّرنا بها آيات « التمثيل » ومثلها مما لم نذكره :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا .. ﴾ (1) .

* أو حدث نزاع بين الزوجين سواء أدّى إلى طلاق أو لم يؤدِ مثل :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا .. ﴾ .

* أو لاختلاف الدين بين الزوجين مثل :

﴿ .. وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ .. ﴾ لأن امرأة لوط عليه السلام كانت على دين قومها .

* أو كانت العلاقة الزوجية قائمة على غير دين صحيح ، مثل ما جاء عن أبى لهب وامرأته :

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (2) ، لم يقل : زوجه .

* أو كانت الحياة الزوجية لا إنجاب فيها مثل :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ .

* أو كانت المرأة غير ذات زوج ، مثل ما جاء فى ابنتى شعيب :

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ .

* أو كان الزواج لا مدخل له فى المعنى المراد ، مثل ما جاء فى الشهادة على الدَّيْن :

﴿ .. فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ .

---

(1) آل عمران : 35 (2) المسد : 4

فالشهادة تصح من المرأة سواء كانت ذات زوج أو لم تكن ، والسر في هذا - والله أعلم - أن المرأة أو الزوجة في الحالات التي أشرنا إليها ليست أهلاً للوصف بـ « الزوج » أو الزوجة لأن معاني الزوج في اللغة « الاثنان » المضموم أحدهما إلى الآخر ، ولذلك سمي الزوج زوجًا مضمومًا إلى «زوجته » وسميت الزوجة زوجًا مضمومة إلى زوجها . وهذا الضم لا يكون على كماله إلا في حالات الوئام التام ، والوفاق الكامل والصفاء الخالص ، بين عميدي الأسرة ، والعقم سواء كان من الرجل أو المرأة أو هما معًا يهز العلاقات الزوجية ، ويوهن الروابط بينهما ويعرض اقترانهما للزوال .

وانظر - مثلاً - إلى نبي الله زكريا وهو يشكو حاله إلى ربه من دبيب الشيخوخة إليه وعقم امرأته :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (١) .

قارن هذا بما جاء في سورة الأنبياء (٢) :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ لقد كانت في سورة آل عمران ومريم « امرأتي » حين كانت عاقرًا ، أما هنا في « الأنبياء » فقد أصبحت « زوجَهُ » لأن وصف العقر زال عنها وأنجبت « يحيى » .

أرأيت كيف ضنَّ القرآن عليها بوصف « الزوجية » لما كانت عقيمًا لا تلد ؟ وكيف سخا به عليها في « الأنبياء » لما أصلحها الله للإنجاب ؟

---

(١) مريم : ٥ - ٨ (٢) الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠ .

أرأيت مثل هذا الصنْعَ البديع فى كلام أحد غير الله ؟ إنه للإعجاز الإلهى فى أدق وأعمق معانيه .

* *

● ثلاث شبهات مردودة :

ولقائل أن يقول : لقد أطلق القرآن وصف « الزوجية » على نساء فى حالات الشقاق ، بل والفراق ، وذلك فى ثلاثة مواضع :

الأول : على نساء النبى وقت حدث الشقاق المشهور بينه وبينهن ، ومع هذا قال الله فى شأنهن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

والثانى : فى شأن زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ وزوجه زينب بنت جحش لما دبَّ النزاع الذى أدى إلى الفراق بينهما ، ومع هذا قيل فى شأنها :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ . . ﴾ (٢) .

فأطلق على زينب وصف « زوجك » ولم يقل : « امرأتك » .

والثالث : فى تسوية النزاع بين المسلمين وبين مشركى مكة بعد صلح الحديبية ، فقد وصف النساء اللاتى فارقن أزواجهن بأنهن « أزواج » ، فقال :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) التحريم : ١ (٢) الأحزاب : ٣٧ (٣) الممتحنة : ١١

● الردود على هذه الشبهات :

الرد على الشبهة الأولى :

لم يكن اختلاف النبى مع زوجاته اختلافًا ذا خطر ، بل كان الوفاق الخالص هو الذى يسود العلاقات بينه وبينهن ، بدليل أنه عليه الصلاة والسلام حرَّم على نفسه بعض ما أحله الله له تطييبًا لمشاعرهن وتوددًا إليهن ، وهو الأمر الذى أفصح عنه القرآن وعاتب الله رسوله فيه . وفى الموضوع رد آخر سنذكره عند الرد على الشبهة الثالثة .

الرد على الشبهة الثانية :

أما قول الرسول ﷺ لمولاه زيد : « أمسك عليك زوجك » ، ولم يقل : امرأتك ، فهذا التعبير : « زوجك » هو المطابق لمقتضى الحال . والحال - هنا - هو الأمر بالإمساك وإبقاء الحياة الزوجية قائمة ، فكأنه - عليه الصلاة والسلام - اعتبر النزاع الدائر بين زيد وزينب كأنه لم يكن ، ولو قال : « امسك عليك امرأتك » ، لكان هذا تسليمًا منه بنتيجة النزاع ، وهو التطليق . وكلمة « زوجك » أرأب للصدع من كلمة « امرأتك » بلاغيًا .

الرد على الشبهة الثالثة :

أما وصف النساء المفارقات لأزواجهن فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا . . ﴾ .

فهذا التعبير « أزواج » هو المتعيِّن هنا ؛ لأنهن « جَمْعٌ » لا « مفرَد » ولم يقُلْ : امرأتهم جريا على منهجه فى المفرد لأمرين :

الأول : أن هذا الجمع غير مستعمل فى اللغة لا فى فصيحها ولا فى غريبها ، والقرآن نزل على طرائق العرب فى كلامهم .

الثانى : أن هذا الجمع « إمرآتهم » جاف مستثقل خشن « الجرس » وفى لغة القرآن رشاقة وصفاء وسهولة ، ينبو عنها هذا اللفظ وأمثاله لبعده عن الفصاحة؛ لأنه غير مستعمل فى لغة العرب .

وهذا ينطبق على الموضع الأول الخاص بـ « أزواج » النبى ﷺ لو سلمنا - جَدَلاً - بأن شقاقًا ذا بال حدث بينه وبينهن .

فإن قال القائل : ولِمَ لَمْ يقُلْ : نسائكم - نساؤهم - بدل « أزواجكم » ، و« أزواجهم » ؟

قُلْنَا : إن كلمة « نساء » عامة تشمل ذوات الأزواج وغير ذوات الأزواج ، فلا تصلح قط مكان « أزواج » ، وبهذا نزل القرآن الحكيم حقًا .

وبهذا يسلم ما فهمناه من دقائق الاستعمال القرآنى لكلمتى : « امرأة - وزوج » وعدم الخلط بينهما كما هو الحال فى كلام غير الله .

* *

● منهج القرآن فى استعمال كلمتى : « امرأة » ، و« زوج » :

أولاً : يطلق القرآن كلمة « امرأة » فى حالة الإفراد على « الزوجة » إذا أصاب العلاقات الزوجية اختلال كنشوب نزاع بين الزوجين ، أو عقم لدى أحدهما أو كليهما ، أو اختلاف دين أحدهما عن الآخر ، أو حدث تفريق بينهما بطلاق ، أو موت ، أو وقعت خيانة فى العلاقات الزوجية .. إلخ .

ثانيًا : كما يطلق كلمة « امرأة » فى الحالات التى لا يكون للوصف بالزوجية علاقة بالمعنى المراد كمقام « الإشهاد على الديون » أو إرث الكلالة .

ثالثًا : ويطلق كلمة « زوج » إفرادًا لا جمعًا فى كل الأحوال التى لا يعكر صفو الحياة الزوجية فيها شىء ، طبيعيًا كان أو مكتسبًا كالعقم واختلاف الدين .

رابعًا : فى حالات « الجمع » يؤثر كلمة « أزواج » . دون « إمرآت - جمع امرأة » لأن هذا الجمع غير مستعمل لغة فضلاً عن ثقله وخشونة «جرسه » .

خامسًا : قد يؤثر كلمة « زوج » إفرادًا في بعض حالات النزاع المكدرة لصفو الحياة الزوجية لعدم الاعتداد بالنزاع ولمطابقتها لمقتضى الحال .

* *

● **بَعْل وبعولة :**

لما ضنَّ القرآن بإطلاق كلمة « زوج » على الزوجة فى حالات تدهور العلاقات الزوجية ، وأطلق عليها كلمة « امرأة » ضنَّ - كذلك على الزوج الذكر بإطلاق كلمة « زوج » عليه ، ثم أطلق عليه كلمة « بَعْل » والآيات التى ذكرناها وفيها إطلاق كلمة « بَعْل » أو « بُعُولة » لا تخلو آية واحدة منها مما يهدد ، أو هدَّد الحياة الزوجية فعلاً من شقاق بين الزوجين أو سوء معاملة من الزوج للزوجة ، أو سلوك شائن من الزوجة ينافى قدسية الحياة الزوجية ، خذ - مثلاً - قوله تعالى :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ فها هنا توجس وخيفة وقلق من جور زوجها ، لذلك صارت « امرأة » مضنونًا عليها بكلمة « زوجًا » أو « زوجة » وصار زوجها « بعل » مضنونًا عليه بكلمة « زوج » .

وقوله تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام وزوجه « سارة » ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ لأن الشيخوخة تمنع الإنجاب عند الزوجين ، لذلك صار الزوج « بَعْلاً » والعقم من شأنه تقويض الحياة الزوجية ، أو جعلها كأنها لم تكن قط ، لعدم حصول ثمارها ، وهى ولادة الأولاد .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ فاطلق على الأزواج « بعولة » جمع « بعل » لأن المقام فيه مخالفة من الزوجات ، وهى النظر إلى غير أزواجهن وإظهار زينتهن لغيرهم بدليل أمرهن بغض أبصارهن ، وحفظ فروجهن ونهيهن عن إبداء زينتهن لغير محارمهن :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ .. ﴾ (١) .

والشيء لا يؤمر به فى القرآن إلا إذا كان معدومًا ، ولا ينهى عنه إلا إذا كان موجودًا ، هذا هو الأصل فى الخطاب القرآنى .

لذلك – والله أعلم – أُطلق على « الأزواج الذكور » هنا : بعولة والوصف بمجرد « المرأة » فيه تجريد من المعانى الإضافية التى تفيدها كلمة «الزوج » أو « الزوجة » وبمجرد « البعل » فيه تجريد من المعانى الإضافية التى تستلزمها كلمة « الزوج » ولكأن القرآن – ببلاغته العالية ، وبيانه المعجز يشير إلى انعدام الروابط الزوجية – كما ينبغى أن تكون – وهو يطلق على الزوجة «امرأة » وعلى الزوج « بَعْلاً » ، حين يقتضى هذا الإطلاق – بنوعيه – داع من الدواعى التى أشرنا إليها من قبل ، مما يعكر صفو الحياة الزوجية .

وكلمة « امرأة » هنا تشف عن معنى قرآنى دقيق للغاية ، لأنها واسطة بين كلمتين بديلتين هما :

أنثى – زوجة . فأنثى لفظ عام لا ينبئ عن علاقة الزوجية بل يطلق على كل « حواء » وكلمة « زوجة » تنبئ عن خلو الحياة الزوجية من كل ما يكدّر صفوها . فلا تصلح واحدة منهما على ما نحن فيه من رباط زوجى بين زوجين لم تصف حياتهما الزوجية من مكدرات . أما كلمة « امرأة » التى آثرها القرآن فى هذا المقام « المتوتر » فتدل على علاقتها الزوجية بـ « بعلها » فهى امرأة ذات زوج لا مجرد « أنثى » ولا « زوجة » صفت حياتها مع بعلها من كل المكدرات .

---

(١) النور : ٣١

وهذا المعنى القرآنى الدقيق تحمله - كذلك - كلمة « بَعْل » فهى واسطة بين كلمتين بديلتين لم تصلح واحدة منهما مكان « بَعْل » ، وهما :

« رجل » و« زوج » فلفظ رجل عام لا ينم عن علاقة زوجية قائمة ، بل يُطلق على كل « آدم » ، فهو قاصر عن تصوير المراد ، وكلمة « زوج » تدل على روابط زوجية قائمة خالية من كل المنغصات . وهذا مع وجود المنغصات لا وجود له .

أما « بعل » فهو الكلمة الوحيدة التى تصور الواقع بكل أمانة ووفاء ؛ لأنها تدل على أن مَنْ أطلِقَتْ عليه له روابط زوجية بـ « امرأة » لكنها مشوبة بما يتنافى معها .

هذا ما هدينا إليه فى إيثار لغة القرآن التعبير بكلمتى « امرأة » و« بعل » فى هذا المقام ، وشرح الله به لنا صدرنا ، فإذا صح هذا « الاجتهاد » - ونرجو أن يكون كذلك - فإنه سمة من سمات الإعجاز القرآنى البيانى اللغوى ، يقتضى « السجود » إعجابًا وإجلالاً لمنزِّل هذا الكلام - عَزَّ وجَلَّ .

● **وإن تعجَب فَعَجَبٌ :**

نعم ، إن تعجب فعجبٌ تفرقة القرآن بين موضعين لا يبدو بينهما تفاوت ، لكن القرآن ذكر فى كلٍ منهما ما يلائمه من الألفاظ ، فلفت أنظارنا إلى فرق جدُّ دقيق بينهما ، لا يهدى إليه إلا طول نظر ، وعمق تأمُّل ، وإدامة فكر ، والموضعان هما :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ، إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا .. ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢٢٨

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ .. ﴾ (1) .

* * *

● **مقارنة بين الموضعين :**

غير خاف أن الموضعين فيهما نساء مطلقات .. وفيهما جواز إعادة العلاقات الزوجية بينهن وبين الذين طلقوهن ما لم تنقض العدة فى الطلاق الرجعى ، وكما عرفنا من قبل أن الطلاق يقتضى أن يُعبَّر عن المطلِّق بـ «البعل» دون الزوج . والآية جاءت على هذه السنة القرآنية البيانية فأطلق على « المطلِّقين » كلمة « بعولتهن » .

أما الآية الثانية فمع اتحاد مقامها مع مقام الأولى ، فلم يُطْلَق على المطلقين لفظ « بعولتهن » بل « أزواجُهنَّ » ، فما الذى اقتضى هذه المخالفة فى التعبير مع اتحاد المقام فى الآيتين يا تُرى ؟

إن الذى هُدينا إليه بعد طول نظر هو الآتى :

● فى الآية الأولى يشير المقام إلى وجود منافس من الرجال للمطلقين ، والقرآن يقضى بأولوية المطلقين فى التزوج من مطلقاتهم ، فهم أولى من غيرهم ممن يبدون رغبتهم فى التزوج من مطلقاتهم .

هذا المعنى يُفهم - بقوة - من قوله تعالى : ﴿ وبعولتهن أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً ﴾ .

وافعل التفضيل « أحق » يقتضى اشتراك طرفين فى معنى مع أرجحية احدهما على الآخر ، فجاء التعبير على القاعدة ، فقال : « بعولتهن » دون «أزواجهن » .

---

(1) البقرة : ٢٣٢

أما الآية الثانية فهى تتجه من أول الأمر إلى ولاة أمور المطلقات وتنهاهم عن منعهن من التزوج بمطلقيهنَّ إذا أراد المطلقون والمطلقات العودة إلى الحياة الزوجية معاً مرة أخرى .

فميل كلٍ إلى الآخر - هنا - متحقق تحققاً يجعل الطلاق كأنه لم يكن . فاقتضت البلاغة القرآنية أن يُطْلَق على « المطلقين » « أزواجهن » دون بعولتهن، وهذا أنسب بمقام النهى عن العَضْل فى بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة .

ومما يرجِّح كلا اللفظين فى موضعه ما يأتى :

* وجود المنافسة فى الأولى وعدمها فى الثانية .

* ضعف الرغبة فى المراجعة فى الأولى المستفاد من أداة الشرط « إن » الموضوعة لاحتمال حصول جواب الشرط وعدم حصوله .

وقوة الرغبة فى المراجعة فى الثانية المستفادة من أداة الشرط « إذا » الموضوعة لتحقق وقوع الشرط .

* خلو الأولى من النهى عن العَضْل ، واشتمال الثانية عليه

أيها القارئ الكريم . ألست معى فى أن هذا البيان المعجز حقاً يستحق منا أن نخر للأذقان سجدًا إجلالاً وإعظامًا لمن أنزل هذا الكتاب هدًى للمتقين ، وحجة على الكافرين ؟

* * *

● **منهج القرآن فى كلمة « بَعْل » :**

أولاً : استعمالها فى الأحوال التى يشوب الحياة الزوجية فيها بعض المكدرات كالشجار والعقم والطلاق الرجعى .

ثانيًا : أن يدلَّ بها على معنى دقيق بين معنى مُطَلِّق رجل وخصوصية معنى

ثالثًا : مجئ كلمة « زوج » أو « أزواج » بدلاً منها إذا اقتضى المقام ذلك.

رابعًا : مجيؤها أقل استعمالاً من كلمة « امرأة » المقابلة لها لكثرة دواعى استعمال كلمة « امرأة » وقلة دواعى استعمال كلمة « بعل ».

خامسًا : مجئ « بعل » فى لغة القرآن ملازمة للإضافة إلى الضمير : « بعلى - بعلها - بعولتهن » وعدم هذا الالتزام فى « امرأة » المقابلة له [1].

* * *

(١) لا يقدح فى هذا ورودها مقطوعة فى آية الصافات (١٢٥) : « تدعون بَعْلاً وتذرون أحسن الخالقين » لأنه بمعنى : « الصنم » ، وليس بمعنى : الزوج .

خَتَمَ - مَخْتُومٌ

فى القرآن الحكيم ثلاث كلمات ، أو مواد لغوية استعارها للدلالة على معان تتوارد على محل واحد ، هو « القلب » مع مجئ بعضٍ منها - أعنى الكلمات أو المواد الثلاث - فى سياق الحديث عن غير ذلك المحل ، وهما السمع والبصر ، وتلك الكلمات أو المواد اللغوية الثلاث هى :

ختم - طبع - ربط ، أو « الختم والطبع والرباط » ، وللقرآن الحكيم مناهج فى استعمالها - كما له فى غيرها - تُبرز - بقوة - صوراً أخرى حافلة بالإعجاز البيانى اللغوى ، آثرنا النظر فيها لتسجيلها ولفت الأنظار إليها ، فى هذه الدراسات التى تحاول - جاهدة مخلصة - عرض الإعجاز القرآنى فى ثوب جديد ، قوامه التطبيق العملى من الداخل ، بدلاً من تلك المناهج التقليدية ، التى تصف الإعجاز من « الخارج » وقل أن تخوض بحره الزاخر ، وأن تستخرج لآلئه المكنونة وجواهره الثمينة من أعماق نظمه البديع العجيب .

وآثرنا - كذلك - أن نبدأ بـ « ختم » قبل أختيها : طبع وربط ، لاختصاصها بمعنى دونهما سنفصح عنه قريبًا بإذن الله .

● التمثيل :

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٧

(٢) الأنعام : ٤٦

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ﴾ (١) .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٢) .

﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ، فإن يشإ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ (٣) .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (٤) .

﴿ يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك . . ﴾ (٥) .

ما ذكرناه من الآيات هو كل ما وردت فيه هذه المادة (خ . ت . م) فى القرآن الحكيم .

وظاهر من النظر فيها أن القرآن يفرّق بين ما جاء منها فعلاً ، وما جاء منها اسمًا .

* فالصور الفعلية : (ختم - يختم - نختم) استعملها القرآن الحكيم فى مواضع الذم والعقاب المؤلم ، إلا موضعًا واحدًا - سنذكره - اختلف فى معناه ، والأصوب أنه جارٍ على نسق القرآن من استعمال هذه المادة إذا كانت فعلاً فى مواضع الذم والعقاب .

* أما إذا كانت اسمًا : « خاتَم - ختام - مختوم » فإن القرآن قصرها - بلا خلاف - على مواضع المدح والجزاء الحسن .

* *

---

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) يس : ٦٥ (٣) الشورى : ٢٤
(٤) الأحزاب : ٤٠ (٥) المطففين : ٢٥ ، ٢٦

● **بيان ذلك :**

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ، هو استئناف بيانى بعد أن وصف الكفار فى الآية السابقة مباشرة على هذه الآية ، وقد جاء فيها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فلما أخبر بأنهم لا يؤمنون فى جميع الأحوال بيَّنَ سبب استمرارهم على الكفر ، بأنه ختم ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ عقابًا لهم على عدم انتفاعهم بالإنذار ، وإعراضهم عن الإذعان مع ظهور دلائل الحق عليه .

وقوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

فصورة العقاب هنا - فضلاً عن الذم - أشد ما تكون وضوحًا ، فيُمنعون من الدفاع عن أنفسهم ، ويفاجأون بأعضاء من أجسامهم - تتكلم وتشهد - بما يدينهم ، وليس من عادتها الكلام ولا الشهادة .

وهكذا بقية المواضع ، لا تخلو من عقاب وذم من الصيغ الفعلية كلها .

بيد أن موضعًا واحدًا ، اختُلفَ فى معناه اختلافًا غير متكافئ ، وهو قوله تعالى الذى سبق ذكره :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ .. ﴾ .

---

(١) البقرة : ٦

فقد جزم النسفى فى تفسيره بما أسنده إلى مجاهد من أن معنى ﴿ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ هنا هو :

« يَرْبِط على قلبك بالصبر عَلَى أذاهم . . لئلا تدخله مشقة تكذيبهم »[1] .

وأشار جار الله الزمخشرى إلى هذا بصيغة التمريض « وقيل » أما معناه عنده، فهو :

« فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم . . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله - صلى الله عليه وسلم - وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم . . »[2] .

أما ابن عطية الأندلسى فيقول فى معنى : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ : « معناه فى قول قتادة وفرقة من المفسرين : ينسيك القرآن . والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها وذلك كأنه يقول :

« وكيف يصح أن تكون مفتريًا وأنت من الله بمرأى ومسمع وهو قادر لو شاء - على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق »[3] .

هذا هو الأصوب - بل الصواب ، لا ما جزم به النسفى من قبل عن مجاهد .

والمقصود من هذا الأسلوب - وأمثاله - تبرئة صاحب الدعوة ﷺ مما يرميه به منكرو الرسالة . ولهذا نظائر فى القرآن منها :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾[4] .

---

(١) تفسير النسفى : (٤/١٠٧) . (٢) الكشاف : (٣/٤١٨) .
(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (١٤/٢١٦) .
(٤) الإسراء : ٨٦

وقوله تعالى :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٢) .

هذه - كلها - جزاءات فَرْضية رُتِّبَتْ على أمور لم تقع منه - صلى الله عليه وسلم .

وبعد هذا الإيضاح نقول - جازمين - إن مادة الخاء والتاء والميم ما جاء منها فعلاً فإن القرآن التزم فيها استعمالها فى الذّم والمجازاة المؤلمة - ولم يشذ منها موضع واحد عن هذا المنهج حتى آية « الشورى » على ما بيَّناه آنفا .

* وَلِلقُرْآن التزام آخر فى الصور الفعلية ، وهو استعمالها فى المعانى المجازية دون الحقيقية ؛ لأن المراد بـ « الختم » منع القلوب من دخول الهدى فيها ، وخروج الضلال منها ، كأنها مختومة بخاتم حقيقى محكم يحول دون الدخول والخروج .

وهو مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، شبه فيها المنع المذكور بالختم المادى تصويراً للمعنى المعنوى العقلى ، بصورة الختم الحسى . وفى توجيه هذه المسألة تفاصيل واسعة ينظرها من يشاء فى مظانها من كتب التفسير، وبخاصة تفسير : الزمخشرى - أبى السعود

(١) الإسراء : ٧٣ - ٧٥ (٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧

ثم حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوى ، وحاشية الكازرونى على البيضاوى كذلك [١] .

* *

● **الصور الاسمية :**

أما الصور الاسمية الثلاث : خاتم - مختوم - ختام ، فقد التزم القرآن الحكيم استعمالها فى مواضع المدح والجزاء الحسن .

* *

ففى آية « الأحزاب » :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

جاء « خاتم » فى ذروة المدح والثناء العطر على صاحب الدعوة ﷺ ودلالة « خاتم » هنا على المنع الذى هو أصل دلالة المادة ، دلالة ظاهرة ، حيث أن نبوته منعت مجئ نبوات بعده ، فهو الرسول النبى المصطفى لجميع العباد من لدن بعثته إلى قيام الساعة .

لان رسالته الخاتمة أغنت البشرية عن أية رسالات أخرى ، لاشتمالها على كل الفضائل ، ونهيها عن كل الرذائل ، وصدق شاعرنا الذى قال :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله　　　جاء الصباح فاطْفــــأ القنديلا

*

وآيتا « المطففين » :

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [٢] .

---

(١) تراجع هذه التفاصيل فى المصادر المشار إليها عند تفسير الآية السابعة من سورة البقرة .

(٢) المطففين : ٢٥ ، ٢٦

فيهما إظهار التفضل على عباد الله الصالحين ، وإشادة بالجزاء الحسن الذي وعدهم الله به .

وهذا يرسم لنا خطوات المنهج القرآني في مادة (خ . ت . م) ، ولكن قبل تسجيل هذا المنهج نجيب عن السؤال الآتي :

لماذا اختص الفعل بالذم والعقاب ؟

والجواب : معروف أن الفعل له ثلاث دلالات هي : دلالته على « الحدث » من حيث معناه . ودلالته على « الزمن » من حيث صياغته ، ثم دلالته على « الفاعل » التزامًا .

والاسم أو الصفات المشتقة ، والمصدر يشترك مع الفعل في دلالة واحدة هي « الحدث » .

فالفعل أكثر مرونة من الاسم لدورانه مع الزمن ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً ، وصالح للتعليق كذلك ، كقوله تعالى :

﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ فقد علّق « يختم » على مشيئة الله . والاسم بمنأى عن هذا .

ولما كان الفعل بهذه المرونة والمطاوعة صلح للإخبار عن الماضي في قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ كما صلح للمستقبل في الآية السابقة : ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهذا سيكون يوم الحساب .

لذلك اختص بمقام الذم والعقاب ، وملاحقة الأحوال التي حدثت أو هي حادثة ، أو ستحدث .

أما الاسم : « خاتَم » ، و« مختوم » ، و« ختام » فلتجرده عن الزمن

صارت دلالته ثابتة . فـ « محمد » ﷺ خاتم النبيين فى كل وقت ، وليس خاصًا بوقت دون آخر ، ولا فى ختمه للنبيين تجدد وانقطاع ، وشراب أهل الجنة تحقق الختم بالمسك عليه وثبت فهو - دائمًا - مختوم وختامه مسك ، وإن شئت فجرِّب وضع اسمًا بدل الفعل فى مواضع الفعل ، أو فعلاً بدل الاسم فى مواضع الاسم ثم انظر عقبى الكلام كيف تكون ؟ والمعنى إلى أى جهة ذَهب ؟

* *

● **منهج القرآن فى « خَتَم » :**

أولاً : استعمال الصيغ الفعلية فى مقام الذَّم وسوء المصير والعقاب الأليم .

ثانيًا : قَصْرُ استعمال الصيغ الاسمية فى مقام المدح والتكريم والجزاء الحسن .

ثالثًا : التزام إيقاع أفعالها على القلوب ، وحينًا السمع .

رابعًا : إسناد الصور الفعلية إلى « الله » أو إلى أحد الضمائر المكنى بها عنه - عَزَّ وجَلَّ .

خامسًا : التزام الدلالات المجازية فى الصور الفعلية بلا خلاف .

* * *

طَبَعَ - يَطْبَعُ

فى اللغة يفسرون - غالبًا - الطبْع بالختم ، ويفسرون الختم بالطبع ، فَبَيْن الكلمتين تشابه ، وقد مرَّ بنا منهج القرآن فى « ختم » ورأينا أن استعمالها فيه قائم على التفرقة بين صورها الفعلية ، وصورها الاسمية ، فصورها الفعلية مقصورة على مقام الذَّم والعقاب ، وصورها الاسمية مقصورة على مقام المدح والتكريم وحسن الجزاء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن ما كان منها فعْلا فلا ينفك عن المجاز اللغوى الاستعارى ، وقد عرفنا - الآن - أن بين « ختم » ، و« طبع » في اللغة تشابهًا لدرجة أن كُلاً منهما تُفسَّر بالأخرى . فهل هما فى القرآن كذلك ؟ أى يثبت لـ « طبع » ما ثبت لـ « ختم » أم أن بينهما تباينًا ملحوظًا فى لغة القرآن ؟ هذا ما سيظهر لنا بعد التمثيل والنظر .

● التمثيل :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَـقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١٥٥ (٢) التوبة : ٩٣ (٣) النحل : ١٠٨

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ (١) .

﴿ .. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

﴿ .. فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْل ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٦) .

﴿ رَضُوا بان يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٧) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لا يَفْقَهُون ﴾ (٨) .

هذه الآيات الإحدى عشرة هي كل ما وردت فيها كلمة « طبع » في صور مختلفة ، والنظر فيها يسفر عن الآتي :

* لم يستعمل القرآن منها إلا الأفعال ، ولم يأت منها اسم ولا مصدر قط .

* والأفعال التي وردت في الآيات إما أفعال ماضية ، وإما مضارعة ، فالمضارعة ستة أفعال مبنية للفاعل ، والماضية خمسة أفعال ثلاثة للفاعل واثنان للمفعول .

(١) الأعراف : ١٠٠ — (٢) محمد : ١٦ — (٣) يونس : ٧٤

(٤) الأعراف : ١٠١ — (٥) الروم : ٥٩ — (٦) غافر : ٣٥

(٧) التوبة : ٨٧ — (٨) المنافقون : ٣

* الأفعال المبنية للفاعل كلها مسندة إلى « الله » ولم يُسْنَد منها موضع واحد لغير الله ، سواء كانت ماضية أو مضارعة ، ولهذا الإسناد صورتان :

الأولى : وهي الغالبة ، الإسناد إلى الاسم الظاهر « الله » .

والثانية : الإسناد إلى الضمير « نحن » وجاء ذلك في موضعين : ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ - و﴿ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

أما ما بنى للمفعول ، وهو موضعان ، ففاعلهما « الله » حَمْلاً للمطلق على المقيد ؛ ولأن هذا الفعل لا فاعل له إلا « الله » .

* إيقاع « الطبع » على « القلوب » مثلما كان في « ختم » إلا في موضع واحد قُرِن السمع والأبصار مع القلوب :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ .

* أن يذكر « الطبع » مقرونًا بصفات ذم أخرى لاحقة له أو سابقة ولاحقة. فمثال اللاحقة قوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ فوصفوا بـ « الغافلون » بعد الطبع . ومثال السابقة اللاحقة قوله تعالى :

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فوصفوا بعدم الإيمان والتكذيب قبل الطبع ، ووصفوا بـ « المعتدين » بعد الطبع .

* جاءت جملة « الطبع » مسبوقة بأداة التشبيه « الكاف » داخلة على اسم الإشارة « ذلك » في ثلاثة مواضع ، ولم يأت هذا في « ختم » .

* قَصْرُ كل مواضع « طبع » على مقام الذمّ وسوء العقاب ، ولم يأت

موضع واحد منها فى مقام المدح والتكريم ، والجزاء الحسن كما كان فى «ختم» .

* شدة الإنذار فى « طبع » أظهر من « ختم » .

* تصرُّف لغة القرآن فى « طبع » أقل من تصرفها فى « ختم » حيث لم يأت من « طبع » إلا الأفعال . وجاء فى « ختم » الاسم والمصدر واسم المفعول .

* *

• لماذا اختُصَّتْ « طَبَع » بمقام الذم وسوء العقاب ؟ :

مع قوة التشابه بين « طبع » و« ختم » خُصَّت « طبع » بمواضع الذم وسوء العقاب ، بينما جاءت الصور الاسمية من « ختم » فى مواضع المدح والتكرم والجزاء الحسن ، فهى - أى ختم - فى القرآن أداة ذم ومَدح .

أما « طبع » فقد رأينا القرآن يَقْصرها على مواضع الذم وسوء المصير . فهل لهذه التفرقة الأسلوبية فى القرآن الحكيم من سبب ؟ أم الأمر مجرد اتفاق ؟

والجواب :

مادة الطاء والباء والعين لها مصدران فى اللغة :

أحدهما : الطبْع ، بسكون الباء ، ويدور معناه بين ضرب الدراهم وصُنْع السيوف ، والجِبِلَّة التى خُلِق عليها الإنسان [1] .

والثانى : الطبَع ، بفتح الباء ومعناه : الدَّنَس والصدأ الذى يصيب الحديد فيفسده ، ويعلو جوانب السيوف فيضعف حدتها ، وقد تتآكل [2] .

والذى نرجحه أن كل مواضع « طبع » فى القرآن مشتقة من « الطبَعُ » بفتح

(١ ، ٢) انظر : (لسان العرب) لابن منظور ، و(المصباح المنير) : مادة (ط ب ع) .

الباء ، لذلك اختصت بالذّم وسوء المصير ، لأن القلوب المطبوع عليها صارت « فاسدة » كَما يُفْسِد « الطبَعُ » الحديد .

فهذا المعنى ملحوظ فى كل المواضع التى ذكرناها من القرآن الحكيم ، وهذا هو سبب تفرقة القرآن بين « طبع » و« ختم » فيما نفهم وتستريح إليه نفوسنا .

* *

● **منهج القرآن فى « طبع » :**

أولاً : قصرُها على مواضع الذم وسوء المصير .

ثانيًا : التزام المجاز فى جميع صورها ، حيث شبّه فساد قلوبهم بالكفر والنفاق بفساد الحديد يعلوه الصدأ والأوساخ .

ثالثًا : التزام إسنادها إلى « الله » ظاهرًا ومضمرًا .

رابعًا : اقترانها بأوصاف ذم أخرى لاحقة لها أو سابقة ولاحقة .

خامسًا : إيقاعها على « قلوب » العصاة دائمًا ، وحينًا عليها وعلى سمعهم وأبصارهم .

سادسًا : قصرها على الأفعال دون الأسماء والصفات .

سابعًا : تصاعد شدة الإنذار فيها حيثما وردت .

ثامنًا : أرجحية اشتقاقها من « الطبَع » بفتح الباء أى : الدنس ، على اشتقاقها من « الطبْع » بسكون الباء ، لتناسب معناها مع « الأول » دون « الثانى » .

* * *

رَبَطَ - يَرْبِطُ

وقفنا من قبل على منهجَى القرآن فى « ختم » و« طبع » وعرفنا ما بينهما من اتصال وانفصال . فما هو منهج القرآن فى « ربط » ؟ والتشابه بين الكلمات الثلاث قائم كما قلنا فى التقديم لها . هذا ما نحاول الوصول إليه فيما يأتى :

● **التمثيل :**

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَّدعُوَا من دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (١) .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

﴿ إِذا يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ

---

(١) الكهف : ١٣ ، ١٤ (٢) القصص : ١٠
(٣) الأنفال : ١١ (٤) آل عمران : ٢٠٠

اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

هذه هى كل مواضع ورود « ربط » فى القرآن الكريم ، خمس آيات ، وقليل من النظر فيها يضع أمامنا الحقائق الآتية :

* هذه المادة « ر . ب . ط » لم تستعمل فى القرآن إلا فى مقام الفضل والنبل ، والمدح والثناء ، والقوة والطهر ، وكل هذه معان شريفة ، وخصال حميدة ، فلا هى مادة ذم ومدح كما كانت « ختم » ولا مادة ذم كما كانت «طبع » بل هى مادة رفعة وسمو فى كل صورة من صورها الواردة فى التنزيل العزيز .

* فى الثلاث الآيات الأولى شاركت « ربط » كلا من « ختم » و« طبع » فى إيقاعها على « القلوب » كما اشتركت معهما فى « التعدية » بحرف الجر « على » .

* فى كل موضع من المواضع الخمسة الواردة فيها حُفَّتْ بهالة من صفات النبل والشرف :

* ففى الآية الأولى تقدم عليها الوصف بالإيمان وزيادة الهدى ، ثم تلاها الإعلان بالإيمان برب السموات والأرض ، والبراءة من الإشراك ووصفه بالشناعة .

* وفى الآية الثالثة سبقت بظلال الأمن ، والماء المطهر من الدنس الحسى والمعنوى : رجز الشيطان ، ثم تثبيت الأقدام ، وهو كناية عن التمكين والغلبة على الأعداء .

* وفى آية « أم موسى » جُعِل الربط على « قلبها » سببًا فى الثبات على « الإيمان » .

---

(١) الأنفال : ٦٠

وفى آية آل عمران سبقت بنداء المؤمنين والصبر والتصابر ، ثم تلاها الأمر بالتقوى والفلاح .

أما آية الأنفال فقد سبقت فيها « رباط » بالأمر بالإعداد للقوة ، ثم تلاها إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين ، سواء من ظهر منهم وعُرِف ، ومن هو سارب بالليل مستخف بالنهار ، فـ « ربط » فى القرآن كوكب درى يدور فى « مطالع السعد واليمن » فِعْلاً كانت أو اسمًا .

* وهى مادة مجاز فى لغة القرآن إلا فى « رباط الخيل » فحمله على الحقيقة سائغ ، أو هو كناية عن « حماية الثغور » وربما كان « ورابطوا » شريكًا لها فى هذا المعنى . والكناية فيها جانبا الحقيقة والمجاز .

* *

● ولماذا اختُصَّتْ « ربط » بمعانى الفضل والنبل ؟ :

للإجابة على هذا السؤال نقول للقارئ الكريم ارجع إلى ما شئت من « معاجم اللغة العربية » ، أو المؤلفات التى وُضِعَتْ فى بيان مفردات القرآن ، تجد هذه المادة « ر . ب . ط » لم تستعملها اللغة العربية إلا فى المعانى الشريفة ، ومنها : « الحفظ » وهو لا يكون إلا لـ « المحبوب » والأشياء الثمينة ، وحماية الحرمات .

والقرآن عربى عربى ، نزل بلغة العرب فى أسمى أساليبها البيانية .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

* وظَّف القرآن مواضع مادة « ربط » فيه للدلالة على معنيين عظيمين لا يعادلهما شىء فى الوجود بل ، ولا يدانيهما :

---

(١) يوسف : ٢ (٢) الزمر : ٢٨

الأول : حفظ القلوب من الزيغ والفساد وحب الشهوات ، **وهى - أى** القلوب - إذا صلحت صلح الجسد كله كما جاء فى الحديث الشريف . .

الثانى : حفظ رسالة الأمة وعزتها وكرامتها وحرماتها ومقدساتها من عبث العابثين وعدوان الظالمين . ففى « الرباط » إذاً سعادتها العاجلة والآجلة .

* *

● **منهج القرآن فى « ربط »** :

أولاً : هى فى القرآن عنوان الفضائل ومصدر القوة والعزة والنيل والشرف .

ثانيًا : فاعل الأفعال فيها هو « الله » - أعنى الأفعال الماضية والمضارعة - أما فعل الأمر الوحيد فيها « ورابطوا » ففاعله جماعة المؤمنين .

ثالثًا : مجيؤها مصحوبة بهالة من صفات الكمال والشرف ، وكريم الخصال .

رابعًا : توظيفها فيما يحفظ للأمة سلامة عقيدتها ، ونزاهة سلوكها ، وحماية بيضتها .

* * *

سخَّر - مُسخَّرات

المادة اللغوية « س . خ . ر » وردت في لغة القرآن الحكيم على ضربين :

أحدهما : سخَّر بتضعيف الخاء ، على وزن « فَعَّل » .

والآخر : سخِر بتخفيف الخاء ، على وزن « فعِل » .

ولاستعمالهما فى لغة القرآن نظام ومنهج ، نستجليه بذكر الآيات التى وردت فيها المادة فى الضربين المشار إليهما . ولنبدأ بالمضعَّف الخاء الذى على وزن « فعَّل » ؛ لأنه الأهم من حيث الواقع ، ومن حيث الفاعل الذى سنعرفه من واقع النصوص القرآنية الحكيمة :

* *

• سخَّر المضعَّف :

التمثيل :

﴿ اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (١) .

﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ‌* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (٢) .

---

(١) الرعد : ٢ (٢) إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴾ (2) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى الأَرْضِ ﴾ (3) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (4) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ (5) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (6) .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ يَجْرِى لأجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (7) .

﴿ .. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمى .. ﴾ (8) .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (9) .

﴿ اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (10) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ .. ﴾ (11) .

﴿ .. وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ، وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (12) .

---

(1) النحل : ١٢ (2) النحل : ١٤ (3) الحج : ٦٥
(4) العنكبوت : ٦١ (5) لقمان : ٢٠ (6) لقمان : ٢٩
(7) فاطر : ١٣ (8) الزمر : ٥ (9) الزخرف : ١٣
(10) الجاثية : ١٢ (11) الجاثية : ١٣ (12) الأنبياء : ٧٩

﴿ إنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ (١) .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٢) .

﴿ .. كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (٤) .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٥) .

هذا ما ورد من « سَخَّر » فعلاً . وبقى منها صور اسمية ، هى :

﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٦) .

﴿ .. وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (٧) .

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٨) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللهُ .. ﴾ (٩) .

* وردت كلمة « سخَّر » مشددة الخاء فعلاً ماضيًا فى مجموعة الآيات الاولى اثنتين وعشرين مرة .

* وفى مجموعة الآيات الثانية وردت اسم مفعول أربع مرات :

مرة واحدة وردت مفردًا مجرورًا ﴿ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وثلاث مرات جمع مؤنث سالمًا « مسخرات » بحركات إعراب مختلفة .

* فى جميع الصور الفعلية كان الفاعل ضميرًا عائدًا على اسم الجلالة

---

(١) سورة ص : ١٨ — (٢) سورة ص : ٣٦ — (٣) الحج : ٣٦

(٤) الحج : ٣٧ — (٥) الحاقة : ٦ ، ٧ — (٦) البقرة : ١٦٤

(٧) النحل : ١٢ — (٨) الأعراف : ٥٤ — (٩) النحل : ٧٩

« الله » إما لفظًا ومعنى ، وهو فى إحد وعشرين موضعًا وإما معنى ، وهو فى موضع واحد ، هو قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ .

* تردد الضمير المسند إليه « سخَّر » بين ضمير « الغيبة » وضمير « التكلم » مع غلبة « ضمير الغيبة » (ثمانى عشرة مرة) على ضمير « التكلم » (أربع مرات) .

* الفعل « سخَّر » بصوره الاثنتى عشرة وزِّع على محورين اثنين :

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائه فى الكون ، ثم بعض تعلقات القدرة الإلهية بالآيات الكونية .

وجاء هذا المحور على ضربيْن :

أ - لفت الأنظار إلى حقائق إلهية تعم جميع عباده مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم . وذلك مثل :

* تسخير الشمس والقمر .

* تسخير الفلك تجرى فى البحر .

* تسخير الأنهار .

* تسخير الليل والنهار .

* تسخير البحر لمنافع العباد .

* تسخير ما فى السموات والأرض .

والخطاب الإلهى فى هذا الشق عام وموجه إلى جميع العباد . وفى أفعال هذا الشق كان الإسناد إلى ضمير « الغيبة » .

ب - الامتنان على المؤمنين خاصة بنعم لا تكون لغيرهم ، وهذا مقصور

على بهيمة الانعام فى مناسك الحج والعمرة ، والفعلان الواردان فيها أولهما مسند إلى ضمير « التكلم » ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ .

والثانى : مسند إلى ضمير « الغيبة » ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ .

المحور الثانى : مقصور على لفت الأنظار إلى وقائع تاريخية وهو - كذلك - شقّان .

(أ) خاص بما منّ الله به على بعض رسله ، وهما داود وسليمان عليهما السلام .

فلداود سخر الله الجبال والطير يسبحن معه ، ولسليمان سخَّر الله الريح تجرى بأمره حيث يريد .

(ب) ويقابل هذا الشق ، شق الانتقام من مكذبى الرسل ، وهم عاد قوم هود . سخَّر الله عليهم ريحًا عاتية دمرتهم تدميرًا .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، ولما كانت « ريح سليمان » نعمة عُدِّيت بحرف الجر « اللام » (لَه) .

ولما كانت « ريح عاد » نقمة عُدِّيت بحرف الجر « على » - « عليهم » .

* *

● لماذا الفعل الماضى ؟ :

لم يأت من هذه المادة فى لغة القرآن إلا الفعل الماضى ، فلم يأت منها مضارع قط ، ولم يأت منها فعل أمر . فلماذا أوثر الماضى على نظيريه المضارع والأمر .

ومن البديه أن فعل الامر لا مكان له - هنا - فقد علمنا أن فاعل هذه الأفعال - كلها - هو الله . وليس فى مقدور أحد غير الله تحقيق أو الإتيان بشئ من « مفاعيل » هذا الفعل « سخَّر» حتى يأمره الله به ، وليس فوق الله سلطة تأمره بشئ .

إذن فلا محل للمناظرة بين الماضي والأمر - هنا - قط . وإنما التنظير بين الماضي الذى جاء به التنزيل الحكيم وبين المضارع المتروك .

والتعبير بالماضي هنا - سخَّر - هو المتعيِّن بلاغة وإعجازًا ؛ لأن التسخير هو سوق الشيء لنيل المراد منه قهرًا ، وبدون توقف على إرادة منه . وهذا المعنى وُجِد فى الأشياء التى سخرها الله لنا مرة واحدة منذ خلقها الله مع استمراره دون توقف .

فالشمس تؤدى للعباد المنافع من يوم خُلِقَتْ ولا إرادة لها فيها ، ولم يحدث هذا منها شيئًا بعد شيء .

وكذلك القمر يؤدى المنافع التى خُلِق من أجلها من أول يوم خُلِق فيه . ولذلك قال سبحانه فى سورة « إبراهيم » عليه السلام فى وصف تسخير الشمس والقمر :

﴿ دَائِبَيْنَ ﴾ وكل « مفاعيل » الفعل « سخَّر » التى فصلتها الآيات السابقة ينطبق عليها هذا المعنى ، وهو : سوقها لتأدية المراد منها قهرًا وبلا إرادة منها ، تلك هى طبيعتها التى خلقها الله عليها .

والله - سبحانه - سخَّرها مرة واحدة ولم يستأنف منها تسخيرًا بعد تسخير . فهو - أى تسخير الله لها - ماض مستمر غير منقطع .

ولا يفى بهذا المعنى إلا الفعل الماضي الذى جاء به التنزيل الحكيم .

مثال ذلك :

الله - سبحانه وتعالى - يقول دائمًا :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ بإيثار الفعل الماضي دون المضارع ، ولم يقل : « يَخْلق السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » لأنه خلقهما من قبل . ولو قيل : « يخلق » لكان معناه يخلق الآن . وهذا معنى باطل . ومع تقدم خلق السموات والأرض فهما باقيان ، وكذلك الأشياء التى قال الله : إنه

« سَخرها لنا » ، فالتسخير حصل قبل نزول القرآن ، وبقاء هذا التسخير فى كل زمان ليس معناه أن الله « يسخرها » وإنما « سخرها » وبلا انقطاع كما خلق السموات والأرض بلا زوال .

فالفعل الماضى « سخَّر » هو التعبير الوحيد المتعين فى الآيات المذكورة للدلالة على المراد .

أما المضارع فلا يصلح لتلك الدلالة ؛ لأنه إما أن يدل على « الحال » ، وهذا ممتنع فى آيات التسخير ؛ لأن التسخير حصل من يوم خلق الله الكون .

وإما أن يدل المضارع على « الاستقبال » وهذا أبعد ما يكون عن الواقع ؛ لأن معناه أن التسخير لم يحدث وسيحدث فى المستقبل .

لهذا وذاك امتنع « المضارع » كما امتنع « الأمر » ولم يبق إلا الماضى الذى نزل به التنزيل المحكم . أليس هذا إعجازًا بلاغيًا لغويًا فى أجلى مجاليه ؟ .

* *

● وحدة الإسناد :

تقدمت الإشارة إلى أن فاعل « سخَّر » فى جميع الآيات السابقة هو « الله » أو أحد الضمائر العائدة إليه ، والسبب فى « وحدة الإسناد » هنا لأن هذه الأفعال ليس فى مقدور أحد إلا « الله » خالق كل شىء . لذلك كان الله - وحده - هو فاعل هذه « الخوارق » .

* *

● الوقائع التاريخية :

أما الوقائع التاريخية فى المحور الثانى الذى ورد فيه الفعل « سخَّر » ماضيًا . فإن لمجيئه ماضيًا تفسيرًا آخر غير تفسير « سخَّر » فى المحور الأول ، ففى المحور الأول وسمنا الفعل « سخَّر » بأنه ماض مستمر ، أما فى الوقائع التاريخية الثلاث ، وهى :

* تسخير الجبال والطير مع داود عليه السلام .

* تسخير الريح لسليمان عليه السلام .

* تسخير الريح العاتية العقيم على عاد قوم هود ، فإن الفعل الماضي فيها « ماض منقطع » أي وقع وانقطع قبل نزول القرآن به .

لذلك أوثر الفعل الماضي معه ؛ لأنه لا وجود له يوم نزل به القرآن . فهو قد حدث في زمن محدد ثم زال . وما كان هذا سبيله فليس له وسيلة أو أداة تصوره إلا الفعل الماضي « سخرنا - سخرها » وبهذا - كذلك - نزل التنزيل المحكم . فسبحان مَنْ أنزل هذا الكلام !

* *

● اسم المفعول من « سخَّر » :

جاء اسم المفعول من « سخَّر » أربع مرات :

مرة في وصف السحاب ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ .

ومرة في وصف النجوم وحدها على قراءة الرفع في النحل في قوله تعالى : ﴿ .. وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ .

ومرة في وصف الشمس والقمر والنجوم معًا في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ .

ومرة في وصف الطير في سورة النحل في قوله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. ﴾ .

* *

● ولماذا اسم المفعول ؟ :

أطلنا التفكير حول السبب الذى استدعى التعبير باسم المفعول فى المواضع

الاربعة ، وقد لاحظنا ان « مسخراتٍ » لم يَأتِ وصفًا للشمسِ والقمر إلا مع عطف النجوم عليهما فى آية الاعراف :

﴿ إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضَ فِى سِتَّةِ أيامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يطلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأمْرِهِ ، ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (1) .

وجاء اسم المفعول وصفًا مستقلاً لـ « النجوم » وحدها فى آية النحل ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأمْرِهِ . . ﴾ (2) .

فقد اختصت آية النحل « النجوم » بوصف « مسخراتٌ » بعد أن جاءت بحرف الاستئناف « الواو » وصارت « النجوم » مبتدأ خبره « مسخرات » ولم تعطف « النجوم » على المنصوبات التى قبلها ، وهى :

الليل - النهار - الشمس - القمر ، ولم تشترك « النجوم » فى الحكم الذى سبق لما قبلها .

وهذا يدل على خاصية فى « النجوم » جعلت الحكم عليها - الخبر - مباينًا لحكم ما قبلها .

فما الفرق - إذًا - الذى اقتضى هذه « المباينة » بين « الحكمين » ؟ هذا ما حاولنا أن نفهمه . وبعد طول نظر لاح لنا أمران صالحان - فيما نرى - لتفسير هذا التباين - اجتهادًا منا - مع تفويض العلم لله . وقد يرى غيرنا غير

---

(1) الاعراف : 54   (2) النحل : 12

ما نرى ، ونحن لا نزعم أن فهمنا هذا هو قول جهيزة الذى يقطع قول كل خطيب [1] . وإليك ما فهمناه .

* *

• الفهم الذى فهمناه :

هذا الفهم يعتمد على الملاحظات الآتية :

الأولى : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل « سخَّر » على أفراد من آيات الله الكونية ؛ الليل - النهار - الشمس - القمر - البحر - الفلك - ما فى الأرض - ما فى السموات - أو جمع قلة : الأنهار [2] .

أما النجوم فجمع كثرة لا يعلم حقيقة عددها إلا الله ، وقد رصد العلم الحديث حوالى ثلاثمائة مليون نجم فى مجرتنا وحدها فما بالك بغيرها [3] .

الثانية : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل « سخَّر » على « مفاعيل » عظيمة الحجم ، نظامها الكونى مشاهد بقوة ولافتة للأنظار لفتًا قويًا لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بالنسبة للنجوم - مع عظم حجمها - ليس مدركًا إدراكًا حسيًا كجرى الفلك فى البحار ، وجرى الشمس والقمر فى منازلهما .

الثالثة : أن القرآن يوقع الفعل « سخَّر » على ما هو ثابت غير متغير ولا

---

(١) « قطعت جهيزة قول كل خطيب » مثل عربى قديم له قصة . ويضرب لمن يأتى بالقول الفصل فى مسألة يختلف الناس حولها . فيحسم الخلاف .

(٢) لا يقدح فى هذا إيقاع « سخر » على « الجبال » فى شأن داود - عليه السلام - وهى من جموع الكثرة ، أو « البدن » فى آية آيتى الحج ؛ لأن حديثنا هنا خاص بما ورد فى المحور الأول من الآيات التى تلفت أنظارنا إلى ظواهر كونية جمادية دائمة من المخلوقات العلوية والسفلية .

(٣) انظر : (هندسة النظام الكونى) : (٥١) . للدكتور : عبد الكريم خضر .

تفنى عناصره فى هذه الحياة ، فالشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ، والليل هو الليل ، والنهار هو النهار .

أما النجوم فقد أثبت العلم الحديث أن لها أعماراً تفنى بعدها ، إما بالانفجار أو التضاؤل . هذه فروق ملحوظة بين « النجوم » وبين غيرها مما أوقع عليه القرآن الفعل « سخَّر » وهى فى إيجاز :

١ - فرق من حيث القلة والكثرة فى عدد المفاعيل المسخرة .

٢ - فرق من حيث الظهور والخفاء فى حركة التسخير .

٣ - فرق من حيث الاستمرار والفناء فى أجرام الكتل المسخرة ، هذا ، وليس بلازم اجتماع هذه الفروق - جميعًا - فى كل ما أوقع عليه القرآن الفعل « سخَّر » فالفلك يجتمع فيها فرقان وهما :

* الكثرة .

* قوة ظهور حركة التسخير .

* أما الفرق الثالث « استمرار ذواتها » فليس له فيها وجود ، وهذه الفروق - كلها أو بعضها - صالحة لإطلاق اسم المفعول « المسخر » على « السحاب » فى آية البقرة .

* فهى كثيرة كثرة مستفيضة .

* وذواتها تفنى ولا تدوم .

وساغ لإطلاق اسم المفعول « مسخرات » على الطير فى آية النحل :

* لأنها كثيرة كثرة لا يعلمها إلا الله .

* ولأن ذواتها تفنى ولا تدوم .

أما إطلاق اسم المفعول « مسخرات » على الشمس والقمر فى آية الأعراف فله مسوغان صحيحان .

الأول : ذِكْرُها فى سياق واحد مع « النجوم » التى الأصل فيها أن توصف

باسم المفعول « مسخرات » فى لغة القرآن ، كما أشرنا من قبل مع إيلاء « مسخرات » لـ « النجوم مباشرة » .

الثانى : أن كل ما قال القرآن فيه « سخَّر » فهو « مسخَّر » فعلاً .

هذا ما هدينا إليه ، فإن يك صوابًا فمن الله ، والحمد له - وإن يك غير ذلك فمنى ، وشفيعى عند الله أنى مجتهد حسن النية ، والله على ما أقول شهيد ، مبرأ من الهوى ، والله بقصدى عليم .

* *

● **منهج القرآن فى « سخَّر » المشدَّد الوسط** :

لن أقول جديدًا - هنا - لم أقله من قبل ، وإنما أوجز ما تقدم وبالله التوفيق :

أولاً : وردت مادة السين والخاء والراء المشددة الوسط فى القرآن الكريم فى صيغة الفعل الماضى « سخَّر » اثنتين وعشرين مرة ، ولم يأت منها مضارع ولا أمر ، لأن المقام يُعَيِّن التعبير بالماضى ، ويمتنع فيه - بلاغة وواقعًا المضارع والأمر .

ثانيًا : فاعل هذا الفعل « سخَّر » فى جميع مواضع وروده هو الله وحده ؛ لأن « موضوعه » من خواص « الألوهية » وليس فى مقدور أحد سواه .

ثالثًا : إسناد هذا الفعل فى لغة القرآن جاء على ضربين :

أحدهما : إسناد مباشر إلى اسم الجلالة « الله » .

الثانى : إسناد إلى ضمير « الغيبة » ، وهو الغالب ، وإسناد إلى ضمير « التكلم » فى أربعة مواضع .

رابعًا : الفعل « سخَّر » فى الاثنتين والعشرين مرة جاء موزعًا على محورين :

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائه وآياته فى الكون .
وتحته شقان :

(أ) خطاب عام لجميع العباد ، مؤمنهم وكافرهم .

(ب) خطاب خاص لجماعة المؤمنين .

المحور الثانى : مقصور على لفت الأنظار إلى وقائع تاريخية . وتحته شقان كذلك :

(أ) إظهار المنَّة والتأييد لبعض الرسل (داود وسليمان) - عليهما السلام- .

(ب) إحلال النقمة على بعض مكذبى الرسل (عاد قوم هود) عليه السلام .

خامسًا : وجاءت المادة اسم مفعول : (المسخر - مسخرات) فى أربعة مواضع .

سادسًا : المواضع الأربعة التى جيئ فيها باسم المفعول لوحظ فيها فروق بينها وبين ما جاء فعل ماضيًا سوغت الفعل الماضى فى مواضع وروده ، واسم المفعول فى مواضع وروده .

سابعًا : أن مادة (سخَّر) فى القرآن الكريم مادة إنعام وتفضُّل ، حتى فى تسخير الريح عَلَى « عاد » لأن فى إهلاكهم قطعًا للباطل ، ونَصْرًا للحق ، ونَصْرُ الحق من جلائل النعم على المؤمنين .

* * *

سَخِر – يسْخَر

سَخِر المحركة الخاء مع التخفيف تشترك مع « سَخَّر » في الحروف الأصول ، وهى : السين والخاء والراء ، وفي مطلق الدلالة – كما سيأتي – وتختلف عنها في التعدى واللزوم ، فـ « سخَّر » المشدد متعد لمفعول واحد ، ويتعدى للمفعول الثاني بواسطة « حرف جر » مناسب يقتضيه المقام – كما مرَّ – : « اللام » ، وهو الغالب ، ثم « على » في الإهلاك والانتقام .

أما « سخِر » المخفف ، فلازم ، وتعديته بحرف الجر « مِنْ » أما الدلالة الخاصة لكلٍ من الفعلين فبينهما ما بين المشرق والمغرب .

وهذا ما سيظهر لنا جليًا من واقع استعمال لغة القرآن لـ « سخِر » المخفف .

● التمثيل :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (1) .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُم فَيَسْخَرُونَ مِنهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنهُم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) .

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (3) .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (4) .

---

(1) الأنعام : 10 (2) التوبة : 79

(3) هود : 38 (4) البقرة : 212

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. ﴾ (١) .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ (٤) .

وهذه هي المواضع التي وردت فيها « سخرَ » مخفف الخاء في القرآن الحكيم في صيغ مختلفة (٥) .

* ثلاث مرات جاءت فيها فعلاً ماضيًا .

* وثماني مرات وردت فيها فعلاً مضارعًا .

* وموضع واحد جاءت فيه اسم فاعل للمفرد المذكر ، أي أن جميع مواضع ورودها اثنا عشر .

* ويلاحظ أن الأفعال الأحد عشر لم يأت فيها ما هو مسند إلى « الله » إلا موضع واحد في سورة التوبة ، وسنعود إليه مرة أخرى .

أما بقية المواضع فمسندة إلى غير الله من مكذبي الرسل أو العصاة إلا موضعًا واحدًا أُسند فيه الفعل إلى « نوح » عليه السلام ، وذلك في آية سورة « هود » عليه السلام ، وسنعود إليه قريبًا إن شاء الله .

* كما نلاحظ أن المادة اختصت بالأسلوب الخبري إلا موضعًا واحدًا جاء على الأسلوب الإنشائي وهو آية « الحجرات » - ﴿ .. لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ .

---

(١) الحجرات : ١١ . (٢) الصافات : ١٢ (٣) الصافات : ١٤

(٤) الزمر : ٥٦ (٥) بقيت ثلاث صور ستعرض في « النظر والتحليل » .

* إن هذه المادة جاءت فى لغة القرآن مقصورة على مقام الذّم وسوء الخلق . وهذا هو الفارق الكبير بينها وبين مادة « سخَّر » المشددة الخاء . وهذا هو السبب فى خلو القرآن من إسنادها إلى « الله » أو صالحى المؤمنين .

أما الموضع الوحيد الذى جاءت فيه مسندة إلى « الله » ، فليس على ظاهره . بل هو مشاكلة ، « لفظية » للفعل الذى جاءت فى سياقه :

﴿ فَيَسْخَرُونَ منهُمْ سَخِرَ اللهُ منْهُمْ ﴾ ، والمراد من « سخر الله منهم » جازاهم من جنس عملهم . فسخرية الله هنا المراد منها العقاب ، وأن الجزاء من جنس العمل ، وفى هذا تبكيت للساخرين من المؤمنين .

وأما الموضع الذى جاء فيه الفعل « نَسْخَر » مسندًا إلى نوح عليه السلام ، فهو - كذلك - ليس على ظاهره ، بل المراد نعاملكم بمثل معاملتكم لنا : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [1] .

فليس فى إسناد « سخر » إلى « الله » ولا فى إسناد « نسخر » إلى نوح قبح ، بل مشاكله لفظية ، والمعنى مختلف ، فالسخرية من مكذبى الرسل سوء خُلُق حقيقى ، أما من « الله » ومن نوح ، فاللفظ لفظ « السخرية » ، والمعنى هو العقاب من الله ، والمعاملة بالمثل من نوح عليه السلام .

* السخرية فى القرآن فعل الأشرار ، ولذلك نهى الله المؤمنين عنها فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . ﴾ أى لا يَستهزئ ولهذا - كذلك - يُقرِّعُ الله الاشرار يوم القيامة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُون * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيا حَتَّى

(١) الشورى : ٤٠

أنسَوكُمْ ذِكْرِى وكُنتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) .

كما أن الأشرار أنفسهم يتندَّمون على سخريتهم واستهزائهم بعباد الله . وقد حكى عنهم القرآن ، فقال :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأشْرَارِ * أتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيا أمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبْصَارُ * إنَّ ذَلِكَ لَحَق تَخَاصُمُ أهْلِ النَّارِ ﴾ (٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ .. وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) .

فـ « سُخْرِيا » بضم السين ليس من الاستهزاء بل من الاحتياج وتبادل المنافع : الغنى يحتاج إلى خدمة الفقير ، والفقير يحتاج إلى مال الغنى . وأحرى بهذا الموضع أن يكون من التسخير للمنفعة المحمودة لا من « السُّخْر » بمعنى الهزء والاستخفاف ، وأيا كان الأمر فإن مادة السين والخاء والراء - مطلقة - تشترك فى معنى مطلق هو عدم الامتناع والإباء ، ثم تفترق بعد ذلك من حيث التشديد والتخفيف . وإذا ما استثنينا آية الزخرف ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيا ﴾ ، فإن « سَخِر » المخفف المكسور الخاء لا يدل إلا على سوء الخُلُق وبذاءة اللسان .

* *

● منهج القرآن فى « سَخِر » المخفف المكسور الخاء :

أولاً : تنوُّع استعمالها بين الأفعال - ما عدا الأمر - والصفات والأسماء .

---

(١) المؤمنون : ١٠٨ - ١١١ (٢) سورة ص : ٦٢ - ٦٤

(٣) الزخرف : ٣٢

ثانيًا : هى فى لغة القرآن فعل الأشرار ولا تدل إلا على سوء الأخلاق وبذاءة اللسان .

ثالثًا : ما أُسنِد منها إلى « الله » - موضع واحد - وما أسند إلى نوح عليه السلام ، إنما هو مشاكله لفظية ومعناه من الله : العقاب ، ومن نوح المعاملة بالمثل ليرتدعوا ويكفوا عن سخريتهم منه .

رابعًا : نَهْىُ المؤمنين عن « السخرية » بعضهم من بعض ، لأن الإيمان عمل صالح .

خامسًا : السبب فى عدم ورود فعل الأمر منها لأنها من المنكرات القولية .

سادسًا : يفرق القرآن بين « سِخْريا » بكسر السين ، و« سُخْرِيًا » بضم السين ، فالأول منكر قبيح ، والثانى سنة لله فى « عباده » لتتفاعل طاقاتهم وتنمو حركة الحياة .

* * *

السَّكِينَة – الشَّجَاعَة

فى اللغة الفصحى ، وفى دنيا الناس كلمات لها بريق وانتشار ، وتحمل « شحنات » هائلة من الشرف وطيب السمعة . ومع هذا فإن القرآن يخلو منها ، ولم ترد فيه ولا مرة واحدة ، مع وجود المناسبات التى يحسن ورودها فيها .

ومن هذه الكلمات « الشجاعة » وهى فى اللغة الفصحى كثيرة الاستعمال ، ويُقْصَد بها قوة القلب ، والاستخفاف بالخطر ومواجهة « الصعاب » . وقد اكتسبت كلمة « الشجاعة » هالة من النبل والشرف ، وكادت تستأثر بالدلالة على المدح فى التصدى للأخطار ، وخوض غمار الخطوب ، ولم تحظ هذه الكلمة « السيَّارة » بشرف استعمال القرآن الحكيم لها مع تكرار معانيها فيه مدلولاً عليها بغيرها من الألفاظ .

ونبدأ الآن بهذا السؤال :

ما البديل الذى استعمله القرآن فى الدلالة على معنى الشجاعة التى هجر استعمال لفظها ؟

والإجابة تتكفل بها الآيات الآتية :

● **التمثيل :**

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢) .

---

(١) الفتح : ٤ (٢) الفتح : ١٨

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ (١) .

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما ﴾ (٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ﴾ (٣) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ (٤) .

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ (٥) .

إذا دققنا النظر في هذه الآيات التي أثبتناها هنا اتضح لنا أمران :

الأول : أن القرآن الحكيم آثر في الآيات الأربع الأولى كلمة « السكينة »

---

(١) التوبة : ٤٠ (٢) الفتح : ٢٦ (٣) الأنفال : ١٥

(٤) الأنفال : ٤٥ (٥) آل عمران : ١٤٦ - ١٤٧

على كلمة « الشجاعة » وقد أضاف اللهُ عزَّ وجلَّ هذه السكينة إلى نفسه في قوله جلَّ شأنه ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾

وفي قوله : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما في الآيتين الآخريين ، فقد جاءت السكينة معرفة بالألف واللام : « السكينة » .

والمراد منها مضافة وغير مضافة : الثبات ، والقرار ورباطة الجأش .

وآثر عليها « الثبات » في آية الأنفال (٤٥) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ ، فالسكينة والثبات بديلان إيجابيان عن الشجاعة حيث لم يقل : أنزل الشجاعة ، وحيث لم يقل : تشجعوا ، أما آيتا الأنفال (١٥) ، وآل عمران (١٤٦) ، فقد عبّر عن الشجاعة بنفي أضدادها :

﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ في الأنفال : أي لا تفروا منهم ، و﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ في آية آل عمران الأولى : أي ثبتوا وسكنوا ولم يجبنوا .

وهذان بديلان سلبيان عن معنى الشجاعة ، حيث نهى في الأنفال عن الفرار ، ونفى في آل عمران الضعف والاستكانة .

وفي دعاء الربيين في آية آل عمران الثانية قالوا : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ، وهذا بديل إيجابي ثالث ، لأنه كناية عن معنى « الشجاعة » ولم يقولوا : شجِّعْنا وهكذا نجد القرآن في جميع الأحوال لم يستعمل لفظ الشجاعة ، مؤثرًا عليها مصطلحات أخرى أشرنا إليها وأسميناها بدائل إيجابية تحقيقًا للضبط . هذا وجه .

أما الوجه الثاني ، فهو : إرادة معنى الشجاعة إما بالنهي عن أضدادها ، أو بنفي تلك الأضداد .

وأظهر مصطلح إيجابى يؤثره القرآن على كلمة « الشجاعة » هو « السكينة » وما دمنا عرفنا أن « الشجاعة » ليست من لغة القرآن ، فلنقل إن البدائل التى أسميناها سلبية إنما هى كنايات عن « السكينة » لا عن « الشجاعة » .

* *

● ولماذا هجر القرآن كلمة « الشجاعة » ؟ :

الإجابة على هذا السؤال ستكشف لنا إلى أى مدى بلغت دقة اختيار كلمات القرآن ؟ وفى الإجابة إضافة جديدة إلى ترسيخ ما سبقت الإشارة إليه من أن القرآن يستخدم اللغة استخدامًا أمثل ، بل منقطع النظير فى أى كلام سواه مهما بلغت جودته .

الإجابة فى إيجاز :

إن مادة « سكن » حيث وردت فى اللغة ، أو فى القرآن ، تدل على المعانى الشريفة البريئة من أدنى المآخذ ، تأمل معناها فى سياق الحديث عن صلاة النبى لمؤتى الزكاة ، وصلاته عليهم هى دعاؤه لهم : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (1) .

وتأمل معناها فى سياق الحديث عن الروابط الحميمة بين الأزواج :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) .

وتأمل معناها فى سياق الحديث عن نعم الله على عباده . ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا .. ﴾ (3) .

تأمل معانى المادة فى هذه الآيات - وغيرها - تجدها معانى حبيبة إلى

---

(1) التوبة : ١٠٣ (2) الروم : ٢١ (3) النحل : ٨٠

النفوس ، تشيع فيها البهجة والقرار والأريحية ، فهى مادة فضل وخير وسعادة دائمًا .

أما الشجاعة ، فعلى ما فيها من معنى شريف ، فإن شوائب مكدرة تفوح منها أحيانًا .

فهى مطية التهور والطيش إلا من رحمه الله .

وهى تطلق على نوع من الحيات قبيح المنظر ، عدوانى السلوك ، ومنها ما ينسب إلى الجنون أو ما يشبه الجنون . كل هذه « المثالب » تجدها لصيقة بمادة « شجع » فى معاجم اللغة المشهورة (١) .

ولأن لغة القرآن لغة إعجاز وبراءة من كل أخذ ورد ، لم يستعمل القرآن شيئًا من صيغ هذه المادة المحظوظة عند الناس ، والتى لا حظ لها فى الكتاب العزيز ؛ لأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

السكينة : قوة قلب ، وثبات أقدام ، ورجاحة عقل ، واتزان تصرف ، ووضوح رؤية ، وسلامة سلوك .

أما الشجاعة فقد تؤدى إلى شدة اندفاع ، وعفوية تصرُّف ، واختلاط رؤية ، ومغبة مصير ، وبطش غير مدروس ، فاستعمال القرآن « السكينة » دون « الشجاعة » إعجاز لغوى بلاغى حافل بالدقائق والأسرار .

* *

---

(١) انظر - مثلاً - لسان العرب : مادة : (ش . ج . ع) .

(٢) هود : ١

● منهج القرآن فى « السَّكِينة » :

أولاً : استعمال كل « صيغ » المادة فى المعانى الفاضلة ، والغايات النبيلة والنعم الوارفة .

ثانيًا : ورودها فى القرآن عنوانًا على الثبات فى الشدائد ومواجهة الأخطار ، كسبًا للمحامد فى الدنيا والآخرة .

ثالثًا : تشريفها بإضافتها إلى « الله » فى محكم آياته .

رابعًا : تشريفها بِجَعْل « محلها » قلب رسوله الكريم ، وقلوب صالحى المؤمنين .

خامسًا : تشبيهها بالغيث النازل من السماء على سبيل الاستعارة المكنية ، المرموز للمشبه به فيها بالفعل « أنزل » وهو حقيقة يكون للغيث المشبه به المحذوف ، وهو مصدر الحياة والرحمة والألطاف الإلهية ، والنجدة .

* * *

الفوز – النجاح

كلمة « نجح » تشيع بين الناس شيوع الشمس في الآفاق ، ولها ارتباط وثيق بكل عمل يؤديه الإنسان ، ولا يخلو يوم لم يُردَّد فيه هذه الكلمة ، على أفواه النَّاس ، وتغزو كل مجال من مجالات الحياة ؛ إنها أكثر شيوعًا ، وأكثر حظا ، وأمس رحمًا بالواقع المعيش من كلمة « الشجاعة » ؛ لأن « الشجاعة » مرتبطة بدائرة واحدة من دوائر النشاط البشرى ، أما « النجاح » ، فهو بمثابة خطوط العرض والطول في نسيج الحياة كلها ، يرددها الساسة والعلماء ، والأطباء ، ورجال الأعمال ، وكل قطاع بشرى . فهى « الكرة » الطائرة لا تكاد تستقر في مكان . سواء في ذلك دوائر النشاط الجاد والهازل .

ومع هذا البريق الهائل ، فهى في لغة القرآن آفل نجمها ، عاثر حظها ، خامل ذكرها ، مع كثرة المناسبات التى تقتضى ذكرها في القرآن لو كان القرآن حاطب ليل ، يحشد الألفاظ حشدًا عشوائيًا – كما هو الشأن عند كثير من الناس – ولكنه كتاب نزل بعلم الله الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه شىء في الأرض ولا في السماء . ولهذا لم يكن لـ « كلمة النجاح » ، وهى فصيحة ومستعملة لغويًا ، أدنى ذكر ، وقد آثرالقرآن كلمات أخرى للدلالة على المعنى الذى تُفيده كلمة « النجاح » من حيث الجملة .

وهذا يسوقنا إلى سؤال هو مدخلنا للدراسة التى نمارسها في هذا المجال .

والسؤال هو : ما البديل الذى آثره القرآن الحكيم على كلمة « النجاح » ذات البريق والسحر في حياة الناس ؟ (١) .

---

(١) في القرآن عدة بدائل لكلمة « النجاح » ولكننا سنركز على بديل واحد تيسيرًا للموازنة بين البديل والمبدل عنه .

الإجابة تفصح عنها الآيات الآتية :

● التمثيل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٦) .

﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧) .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ (٣) النساء : ٧٣
(٤) النساء : ١٣ (٥) المائدة : ١١٩
(٦) الأنعام : ١٥ ، ١٦ (٧) التوبة : ٧٢

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنهُ وأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ، لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦) .

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧) .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٨) .

---

(١) التوبة : ٨٩ (٢) التوبة : ١٠٠ (٣) التوبة : ١١١
(٤) يونس : ٦٤ (٥) الصافات : ٦٠ ، ٦١ (٦) غافر : ٩
(٧) الدخان : ٥٦ ، ٥٧ (٨) الجاثية : ٣٠

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ . . وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (٤) .

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٦) .

﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الحديد : ١٢ — (٢) الصف : ١٠ - ١٢ — (٣) التغابن : ٩

(٤) البروج : ١١ — (٥) الفتح : ٥ — (٦) التوبة : ٢٠

(٧) المؤمنون : ١١١

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) .

﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ (٣) .

﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥) .

تساءلنا قبل ذكر هذه الآيات ، التى سعدنا بتسجيلها هنا عن البديل القرآنى لكلمة « النجاح » وقلنا إن الآيات الآتية هى التى ستحدد الإجابة عن السؤال الوارد من قبل ، والآن عسى أن يكون القارئ الكريم قد عَرَف ما هو البديل بعد نظره فى الآيات المذكورة .

* إنها سَبْع وعشرون آية اشتركت فى ذكر كلمة وردت فيها جميعها فى صياغات مختلفة ، هى البديل القرآنى لكلمة « النجاح » التى لم تحظ بشرف الورود فى القرآن . فما هى تلك الكلمة التى ذُكرت فى السبع والعشرين آية (٦) .

---

(١) النور : ٥٢ (٢) الحشر : ٢٠ (٣) النبأ : ٣١ ، ٣٢

(٤) آل عمران : ١٨٨ (٥) الزمر : ٦١

(٦) الآيات المذكورة أكثر من سبع وعشرين آية ، لأننا ذكرنا - أحيانًا ، قبل وبعد الآية التى وردت فيها كلمة « الفوز » آيات أخرى ، لأن لها ارتباطًا بالمعنى المراد من كلمة « الفوز » أو تجلية المعنى المراد .

* الفَوز :

أجل ، هي « الفوز » فما من آية من السبع والعشرين آية إلا وقد ذُكرت فيها كلمة « الفوز » فِعْلاً أو اسمًا أو مصدرًا حسبما هو واضح من نصوص الآيات .

* وبعض الآيات وردت فيها المادة مرتين ، وهما :

آية سورة « النساء » رقم (٧٣) .

وآية سورة « الأحزاب » رقم (٧١) .

وبهذا يكون عدد المرات التي وردت فيها المادة في السبع والعشرين آية تسعًا وعشرين مرة .

وليس في القرآن - كله - آيات أخرى ذُكرت فيها المادة لم نذكرها ، أي أن التسع والعشرين مرة لورود كلمة « الفوز » في صيغها المختلفة هي كل ما ورد في القرآن الكريم منها .

* وجاءت مثبتة في ثمان وعشرين مرة ، ومنفية مرة واحدة في الآية رقم (١٨٨) من سورة آل عمران ؛ لأن من ذُكِرَت في سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً لشرف الوصف بها وقد وزِّعَتْ صيغ المادة في الآيات السبع والعشرين على النسق الآتي :

* فعلان ماضيان لا ثالث لهما ، وهما :

« فقد فاز » ، و« فقد فاز فوزًا عظيمًا » .

* فعل مضارع واحد لا ثاني له ، وهو : « فأفوز » .

* لم يأت منها فعل أمرٍ ؛ لأن المادة مسوقة في الآيات في أساليب خبرية ، إلا آية آل عمران (١٨٨) ، فقد وردت في أسلوب إنشائي ، لكنها اسم لا فعل « بمفازة » .

* أما غير الأفعال فمنها أربعة عشر مصدرًا مستعملاً استعمال الأسماء ، ومعرفًا بالألف واللام (الفوز) .

* ومصدران منكران (فوزًا عظيمًا) .

* ومصدر واحد منكر مستعمل استعمال الأسماء « وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا » .

* وأربعة أسماء فاعلين « الفائزون » .

* وواحد اسم مكان : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ .

* ثم اسمان مؤنثان : « مفازة » .

* لم يستعمل القرآن صيغ هذه المادة إلا فى مقام الإيمان والعمل الصالح الذى يُرْجى به وجه الله ، والذى تكون عاقبته التمتع بنعيم الجنَّة ورضوان الله :

* ففى آية آل عمران (١٨٥) ، جاءت تعقيبًا على حال من زحزح عن النار وأدخل الجنة . ونلاحظ - هنا - أنه تعالى قال : ﴿ فَقَدْ فَازَ ﴾ ، ولم يصف الفوز بأى وصف مفخَّم كما جاء فى الآيات الأخرى ، وترك التفخيم - هنا - فيه مطابقة دقيقة لمقتضى الحال ؛ لأن من يُزَحْزَحْ عن النار - يكون من مستحقى دخولها لولا رحمة الله به . مثله كمثل الطالب الذى لا يحصل على درجات النجاح ، ولكنه قاربها فيُرأف بحاله ويمنح درجات النجاح .

* وفى آية الأحزاب (٧١) ، جاءت تعقيبًا على أوصاف حميدة منها طاعة الله ورسوله .

وفى آية النساء (٧٣) ، جاءت تعقيبًا على مصاحبة النبى ﷺ والمؤمنين معه .

وفى آية النساء (١٣) جاءت تعقيبًا على طاعة الله ورسوله ودخول الجنَّات.

وفى آية المائدة (١١٩) جاءت تعقيبًا على الصدق ، ودخول الجنات والخلود فيها ، ورضا الله عن الصادقين ورضا الصادقين عن الله .

وفى آية الأنعام (١٦) جاءت تعقيبًا على حصول رحمة الله وصرف العذاب عن المتحدث عنهم .

وفى آية التوبة (٧٢) جاءت تعقيبًا على الاتصاف بالإيمان والوعد بالجنات تجرى من تحتها الأنهار وحلول رضوان الله بالمؤمنين .

وفى آية التوبة (٨٩) جاءت تعقيبًا على دخول الجنات والخلود فيها .

وفى آية التوبة (١٠٠) جاءت تعقيبًا على السبق إلى الإسلام ، والاتباع بإحسان ، وحلول رضوان على المؤمنين ورضاهم عن الله ، والخلود فى الجنات .

وفى آية التوبة (١١١) جاءت تعقيبًا على الجهاد فى سبيل الله بالأنفس والأموال .

وفى آية يونس (٦٤) جاءت تعقيبًا على بشرى الله عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة .

وفى آية الصافات (٦٠) جاءت إشارة إلى نعيم الجنة .

وفى الدخان (٥٧) جاءت تعقيبًا على الوقاية من العذاب وحلول فضل الله بالمتقين .

وفى آية الجاثية (٣٧) جاءت تعقيبًا على الإيمان والعمل الصالح ودخول الجنَّات المعبَّر عنها بالرحمة .

وفى آية الحديد (١٢) جاءت تعقيبًا على الإيمان وسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم والبشرى بالجنات .

وفى آية الصف (١٢) جاءت تعقيبًا على الإيمان والجهاد بالمال والنفس وغفران الذنوب والتمتع بنعيم الجنات .

وفى آية التغابن (٩) جاءت تعقيبًا على الإيمان والعمل الصالح ، والخلود فى الجنات .

وفى آية البروج (١١) جاءت تعقيبًا على الإيمان والعمل الصالح .

وفى آية الفتح (٥) ، جاءت تعقيبًا على الإيمان وعمل الصالحات ، وتكفير السيئات والخلود فى الجنات .

وفى آية التوبة (٢٠) جاءت تعقيبًا على الإيمان والهجرة ، والجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله ورفعة الدرجات .

وفى آية المؤمنون (١١١) جاءت تعقيبًا على الصبر .

وفى آية النور (٥٢) جاءت تعقيبًا على طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه .

وفى آية الحشر (٢٠) جاءت تمييزًا لأصحاب الجنة على أصحاب النار .

وفى آية النبأ (٣١) جاءت تمهيدًا لتفصيل نعيم أهل الجنة .

وفى آية آل عمران (١٨٨) جاءت منفية عمن لا يستحقها من العباد .

أما فى آية الزمر (٦١) ، فقد جاءت واسطة بين التقوى والوقاية من سوء العذاب والحزن .

* فأنت ترى من هذه « الإشارات » أن الفوز عند الله له ثمن عظيم ، وأنه لم يأت إلا جزاء على القيام بأصول الإيمان فى العقيدة والعمل ، وفى الآيات خصائص أسلوبية آسرة ، كنا نود - لولا خشية الإطالة - أن نستجليها ، ولكنا نجتزئ بهذه الإشارات السريعة للكشف عن عظمة هذا « الفوز » فى كتاب الله .

* لم يخلُ موضع من مواضعه من ذكر كبريات الفضائل كالإيمان بالله ، وطاعة الله ورسوله ، والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، والصبر على الأذى فى الدين ، والهجرة لنصرة دين الله .

* تفخيم الأساليب التى وردت فيها المادة . فإذا كان الفوز هو المتحدث عنه جاء معرَّف الطرفين لإفادة القصر ، وأنه لا فوز غيره ، وأحيانًا يجاء بضمير الفصل (هو) بين الطرفين المعرفين تأكيدًا للنسبة بينهما .

مجيء الطرف الأول (المسند إليه) اسم إشارة « ذلك » الموضوع لبُعد المكان مستعارًا لبعد مكانه « الفوز » وتعظيمًا لشأنه .

ومن سمات تفخيم أساليب « الفوز » حرص القرآن على إتباعه بوصف فخم ، سواء كان معرفًا أو منكرًا .

فالمعرف وصف بثلاثة أوصاف :

وهي : العظيم ، وهو الغالب على ما عداه من أوصاف .

ثم : المبين في موضع واحد (سورة الجاثية) .

ثم : الكبير في موضع واحد كذلك (سورة البروج) .

والمنكر وصف بـ « عظيمًا » (سورة الأحزاب ، النساء ، الفتح) .

وقد حاولنا السر في تغاير الوصف بين : العظيم - المبين - الكبير ، والذى قذفه الله في قلوبنا أن تغاير الوصف هذا له دلالات وليست هذه الأوصاف بمعنى واحد .

فالوصف بـ « العظيم » تنويه بالكيفية التى عليها الفوز وتعظيم لشأنها ، والوصف بـ « الكبير » تنويه بالكمية التى عليها الفوز ، وبيان لكثرتها ، والوصف بـ « المبين » تجلية لظهور الفوز وكونه في أعلى عليين .

هذه هي بعض سمات الخصائص الأسلوبية فيما كان فيه الفوز متحدثًا عنه .

أما إذا كان الفوز حديثًا عن غيره ، أى خبرًا عن مبتدأ ، فإنه يأتى في جملة قصرية تفيد قصر الفوز على المتحدث عنهم ، وذلك ظاهر كل الظهور في المواضع الأربعة التى جاء « الفوز » فيها اسم فاعل جمع :

﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

* *

● لماذا الفوز ؟

ونخطو مع هذه الكلمة « الفوز » خطوة أخرى كاشفة عن سر إيثار القرآن لها دون كلمة « النجاح » البراقة فى دنيا الناس .

وصفوة القول فى الإجابة على هذا السؤال هى :

فى كتب المعاجم اللغوية أن معنى فاز قطع المفازة ، وهى الصحراء المهلكة ونجا من أخطارها ، وأن العرب سمَّوا المهلكة المفازة تفاؤلاً ، كما كانوا يطلقون على اللديغ السليم تفاؤلاً .

كما فسَّرت المعاجم فاز بنجا .

وكذلك فسَّرها مفسرو القرآن الكريم ، فهى تدل على نيل المحبوب ، والسلامة من المكروه .

ومؤدى هذا أن فاز بكل صياغاتها اللغوية لا يراد منها إلا الظفر بالمحبوب ، والسلامة من كل مكروه ، وليس فى المعانى المرادة منها ما فيه شائبة من شر أو ما يضاد المنفعة الطيبة .

لذلك آثرها القرآن وجعلها عنوانًا للجزاء الحسن .

* *

● ولماذا هجر القرآن « نجح » ؟

أما « نجح » وتصرفاتها اللغوية فتستعمل – كما هو الواقع – فى الخير والشر ، والمحبوب والمكروه ، والجد واللهو ، ومن كثرة استعمالها فى كل الأمور :

كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها ، شريفها ووضيعها ، أصابها الامتهان والابتذال ، وقد رأينا القرآن الكريم يستخدم فاز ويفوز ، والفوز وفوزًا والفائزون ومفازًا ومفازة ، فى أصول الإيمان وفروعه ، وفى الفضائل الأمهات ، وفى السعادة الحقة فى الآخرة ، وما يقرب إليها فى الدنيا من عقيدة ، وقول وعمل .

وليست « نجح » ومشتقاتها أهلاً لأن تقوم بهذه المهمة الجليلة الشأن . وليس فيها من صفاء ألفاظ القرآن ما يرقى بها إلى هذه المنزلة ، لأننا نقول : نجح اللص فى نهب الأموال ، ونجح القاتل فى الهروب بعد أن ارتكب جريمته ، ولا نقول : فاز اللص ولا فاز القاتل ، هذه الشوائب نحَّت « نجح » وما يتفرع منها عن أن تكون « نجمًا » فى سماء البيان المعجز .

* *

● **منهج القرآن فى « فاز » ومشتقاتها :**

أولاً : قصْرُ استعمالها على الخير الدائم ، والسعادة الأبدية .

ثانيًا : إضفاء هالة ضخمة من التفخيم البيانى على الأساليب التى وردت فيها صيغ المادة .

ثالثًا : توزيع استعمالاتها على الأفعال - ما عدا الأمر - والمصادر والأسماء .

رابعًا : كثرة ورودها فى جُمَل « قصرية » فى المصادر وأسماء الفاعلين ، وتصديرها بأداة التحقيق « قد » فى الفعل الماضى .

خامسًا : وصف المصادر المعرَّفة بالعظمة والكِبْر والإبانة ووصف المصادر المنكرة بالعظمة فحسب .

سادسًا : إيرادها كالشمس المضيئة مع كوكبة من الفضائل القلبية (الإيمان) والأعمال الصالحة .

سابعًا : إيرادها فى الأسلوب الخبرى دون الإنشائى ، لأنها أحكام على سلوك عباد الله الأتقياء البررة .

ثامنًا : إيرادها مثبتة إلا فى موضع واحد جاءت منفية ؛ لأن من جاءت فى سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً للوصف بها .

* * *

اللِّسان – اللُّغة

اللغة هي : الكلمة التى تلى كلمة « النجاح » فى الذيوع والانتشار وكثرة الاستعمال ، وهى اصطلاح حادث بعد القرون الأولى التى تلت نزول القرآن . ولم تكن موجودة فى العصر الجاهلى ، ولا عصر صدر الإسلام ، وأخذ المصطلح ينمو بدءًا من القرن الثامن الهجرى . وهى – الآن – أعنى اللغة – جنس عام يُحدَّد المراد منها إما بالوصف مثل : اللغة العربية ، أو الإضافة ، مثل : لغة العرب . ومع ما لهذه الكلمة – الآن – من ذيوع واستفاضة استعمال ، فإن الكتاب العزيز خلا منها تمامًا باعتبارها مصطلحًا على نظام ما يطلق على أى لغة ، مفردات وتراكيب وقواعد نحوية وصرفية ، أما أصل المادة فقد ورد فيه مرات مقصودًا منه غير ما نقصده نحن الآن من كلمة « اللغة » .

وقد عوَّدنا القرآن أنه إذا هجر لفظًا أو مادة فإنه – فى الوقت نفسه – يؤثر بديلاً عنها لمزايا فى ذلك البديل ليس لها وجود فى المُبْدل عنه ، ولشوائب فى المبدل عنه ليس لها وجود فى البديل ، والآيات الآتية توضح لنا الأمرين معًا :

● التمثيل (١) :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِى وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

﴿ . . لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

---

(١) إبراهيم : ٤ (٢) النحل : ١٠٣ (٣) الشعراء : ١٩٤ ، ١٩٥

﴿ .. وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [2] .

فى هذه الآيات الخمس وردت كلمة « لسان - لسانًا » خمس مرات ، ثم جاءت جمعًا فى سورة الروم : ﴿ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ والمراد منها مفردًا هو : اللغة كما نفهمها الآن .

أما آية الروم فإن المراد من ﴿ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أمران :

الأول : اختلاف لغات البشر كما هو معروف الآن من تعدد اللغات بين الأمم والشعوب .

الثانى : اختلاف كيفيات الأصوات من فرد إلى فرد ، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة ، واختلاف أصوات الذكور عن أصوات النساء ، لدرجة أن دلالة الصوت على صاحبه تكاد تكون كدلالة وجهه عليه . ذلك من آيات الله فى خلقه ، وقل أن تجد اثنين يتفق صوتاهما من كل جهة .

وفى القرآن آيات أخرى بعضها يراد منه العضو أو الجارحة قطعًا ، وبعضها تصلح دلالته على كلٍ من الصوت والجارحة . وبعضٌ آخر منها يراد منه ما هو أخص من اللغة ، أى الذكر الحسن كما فى قول إبراهيم - عليه السلام الذى حكاه عنه القرآن الأمين :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [3] .

وقد آثرنا الاكتفاء بذكر الآيات التى تدل دلالة قاطعة على « اللغة » بمعناها العام .

---

(1) الأحقاف : ١٢ (2) الروم : ٢٢ (3) الشعراء : ٨٤

فاللسان هو البديل القرآنى عن كلمة « اللغة » التى لم ترد فيه قط .

وطريق استعمال اللسان بمعنى اللغة - بلاغة - هو المجاز المرسل ، والعلاقة بينهما هى : الآلية ؛ لأن اللسان هو آلة اللغة وبه تكون .

والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقى الوضعى لكلمة « اللسان » فى مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، هو استحالة إرادة العضو أو الجارحة . وهى قرينة حالية عقلية ، لأن القوم لهم ألسنة لا لسان واحد .

ولأن كل فرد من قوم أى رسول لسانه لم يفارق محله من فمه ، والمصطلح القرآنى للغة ، وهو اللسان ، ما يزال شائعًا فى علم اللغة العام حتى الآن ، وفى مصر كلية مسماة بـ « كلية الألسن » أى اللغات .

وشبيه بهذا إطلاق اسم النهر على الماء الجارى فى مكان ، والنهر فى الوضع اللغوى هو المكان الذى يجرى فيه الماء ، وليس الماء .

والعلاقة هى المحلية . وهذه العلاقة « المحلية » غير منكر أن تلاحظ بين اللغة واللسان الواقع مجازًا عنها .

إذًا ، فدلالة اللسان على اللغة ذات علاقة حميمة بها وخالية من كل الشوائب . لذلك آثرها القرآن الحكيم ، كما آثر غيرها من الكلمات ، وهو إيثار قائم على اعتبارات دقيقة وعميقة ، بل ومعدودة من سمات الإعجاز اللغوى البيانى . هذا هو جانب الكمال المطلق فى إطلاق اللسان على اللغة . والآن ندلف إلى الشق الثانى من الدراسة :

* *

● **التمثيل (٢) :**

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (١) .

---

(١) فصلت : ٢٦

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٣) .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) .

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ (٦) .

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيا ﴾(٧) .

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾ (٨) .

أقرب الألفاظ فى القرآن الكريم إلى « اللغة » هو لفظ « لَغْو » ، وقد جاء هذا اللفظ فى القرآن عنوانًا على نوع من الكلام ، وهذا يجعل الصلة بين « اللغة » ، و« اللغو » صلة قريبة من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى .

فمن حيث « اللفظ » ، فقد اشتركا فى أصلين هما : اللام والغين ، ومن حيث المعنى فإن كُلا منهما عنوان على نوع من الكلام .

ومع هذا التقارب فإن القرآن استخدم « اللغو » فى مقام الذّم حينًا ، وهو الغالب ، وفى مقام ما لا يُعْتد به من الكلام حينًا آخر ، وهذا فى سياق

(١) المائدة : ٨٩
(٢) المؤمنون : ٣
(٣) الفرقان : ٧٢
(٤) القصص : ٥٥
(٥) الطور : ٢٣
(٦) الواقعة : ٢٥ ، ٢٦
(٧) مريم : ٦٢
(٨) النبأ : ٣٥

الحديث عن « الأيمان » من حيث انعقادُها أو عدم انعقادها ، ويجمع الأمرين وصف واحد هو :

السقوط وعدم الاعتداد . وحول هذا المعنى يدور تعريف « اللغو » فى معاجم اللغة ، فهو الكلام الساقط المُطَرَّح الذى لا اعتبار له المذموم قائله .

« اللغو من الكلام ما لا يعتد به ، الذى يُوْرد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى « اللَّغا » وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور . . وقد يسمى كل كلام قبيح لغوًا » [1] .

« ولغا الشيء يلغو لغوًا ، ولغا الرجل تكلم باللغو ، وألغيته أبطلته ، وألغيته من العدد أسقطته . . » [2] .

هذه الشروح اللغوية لكلمة « لَغَا يَلْغُو لَغْوًا » جارية على وفق الاستعمال القرآنى لكلمة « لَغْو » لأنها فى القرآن إما كلام لاّ يعتد به ولا يؤاخذ عليه صاحبه ، وإما كلام قبيح مرذول يجب الترفع عنه واجتنابه ، وكما مرَّ بنا فى الآيات فإن « اللغو » يناظر الكذب والبذاءة والإثم .

ولهذا فإن أهل الجنَّة لا يسمعون فيها شَيْئًا منه ؛ لأنها دار كرامة وطُهر .

ولهذا - كذلك - مدح الله المؤمنين العازفين عن اللغو :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ .

مما سبق يتبين لنا فى وضوح لماذا آثر القرآن كلمة « لسان » للدلالة على ما يسمى - الآن - لغة ؟

. ثم ولماذا هجر القرآن كلمة « اللغة » ؟ وأن ذلك كله قائم على اعتبارات

---

(1) المفردات : (٤٥١) . (2) المصباح المنير : (٥٥٥) .

دقيقة ، فكلمة « لغة » كما تقدم قريبة الشبه بكلمة « لغو » حتى قال بعض اللغويين : إن اللغة مشتقة من اللغو ، وقد حذف منها « الواو » ثم عُوِّض عنه « الهاء » .

لقد ضنَّ القرآن الحكيم أن يسمى البيان لغة لما تقدم ، لأن البيان نعمة من نعم الله العظمى ، وقد قرنه الله فى كتابه ، وهو يتمدح بنعمه على العباد ، قرنه بنعمة الخلق وتعليم القرآن ، فقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

وصونا لهذا البيان من كل شائبة ، أطلق عليه القرآن مصطلح « اللسان » تنزيهًا له ، ورفعة لشأنه .

وغير خاف على القارئ - بعد ما تقدم - أن استعمال أصل هذه المادة (ل غ ى) ، أو (ل غ و) فيما لا يُحْمَد من الأصوات أو الكلام - أسبق من استعماله فى الدلالة على « اللغة » وإن كانت هى الآن صاحبة الجلالة فى الاستبداد بهذا المصطلح « المتألق فى سماء البيان » ، وصار « اللغو » فرعًا فى شجرتها الوارفة الظلال ، اليانعة الثمار .

* *

● **منهج القرآن فى « اللسان » :**

أولاً : اللسان فى لغة القرآن هو العنوان الأثير فى الدلالة على « البيان » الإنسانى بكافة شعبه ومستوياته .

ثانيًا : يأتى « اللسان » فى لغة القرآن للدلالة القاطعة على ما تواضع الناس على تسميته « لغة » ويأتى أحيانًا محتملاً لهذه الدلالة مع احتمال آخر للدلالة

---

(١) الرحمن : ١ - ٤

على « الجارحة » أو العضو آلة النطق مثل : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِى ﴾ ، وأحيانًا أخرى يدل دلالة قاطعة على « الجارحة » مثل :

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١) .

ثالثًا : العلاقة بين « اللسان » ، و« اللغة » كما هى الآن هى علاقة الآلية المعروفة فى المجاز المرسل ، أحد قسمى المجاز اللغوى .

رابعًا : يأتى « اللسان » فى لغة القرآن - فى بعض المواضع - كناية عن ضعف التواطؤ بين ما يعتقده « القلب » وما ينطق به اللسان .

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢) .

خامسًا : كما يأتى للدلالة على كيفية النطق « الفردى » ووضوح الأداء :

﴿ وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا .. ﴾ (٣) .

إذ ليس لهارون لغة غير لغة موسى - عليهما السلام ، بل المراد استقامة لسان هارون فى النطق وطواعيته فى الأداء .

سادسًا : أو كناية عن الحُبْسة ، وامتناع الكلام :

﴿ .. وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ (٤) .

* *

● منهج القرآن فى « لَغَا يَلْغُو » :

أولاً : استعماله - فى الأغلب - فى الكلام الساقط والألفاظ البذيئة ، والثرثرة العشواء ، واللغط الفارغ .

---

(١) القيامة : ١٦ — (٢) الفتح : ١١

(٣) القصص : ٣٤ — (٤) الشعراء : ١٣

ثانيًا : استعماله - نادرًا - في الإعذار وترك المؤاخذة في كل كلام عَفْوى غير مقصود ، وهذا في لغو اليمين والطلاق .

ثالثًا : تصويره تصويرًا منفرًا ومدح العارفين عنه مع الإشارة - مرات - إلى خلو دار النعيم منه لما فيه من إثم وقبح .

رابعًا : بيان أنه بضاعة الحمقى من أعداء الرسالات ، واتخاذهم منه وسيلة شيطانية للتشويش على الحق ، والغض من شأنه .

خامسًا : الضن بالبيان أن يكون « اللغو » عنوانًا له لشرف البيان وحقارة اللغو .

سادسًا : مناظرته بالإثم والكذب ، وكفى بذلك ذمًا ووضاعة .

* * *

صَعَدَ - يَصْعَدُ

صعد وبعض صورها من الكلمات التى حظيت بورودها فى القرآن الحكيم ، ومرادنا من درس هذه الكلمة من حيث وردت فى كتاب الله العزيز ؛ أمران : معرفة النظام الذى أوردها القرآن فيه ، ثم الفروق بين استعمالها فى القرآن واستعمال كلمة « رفع » ومشتقاتها ، لما بين المادتين من رحم ماسة ، وذلك فى إطار تجلية المنهج القرآنى المعجز ، فى استعمال المفردات اللغوية ، على غرار ما تقدم فى هذه الدراسة من إضافات جدّ جديدة ، إلى حقل الإعجاز اللغوى البلاغى للقرآن العظيم .

● **التمثيل :**

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ . . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ . . ﴾ (٣) .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٤) .

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ١٥٣ (٢) الأنعام : ١٢٥ (٣) فاطر : ١٠
(٤) الكهف : ٨ (٥) الكهف : ٤٠

﴿ .. وَإِن كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ، أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. ﴾ (١) .

﴿ ... وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (٢) .

﴿ كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ (٣) .

هذه الآيات التسع هى كل ما جاءت فيه مادة الصاد والعين والدّال من آى الكتاب العزيز .

* وتردد ورودها بين الأفعال والأسماء ، فالأفعال ثلاثة كلها أفعال مضارعة .

الأول : من « أصعد » - « إذ تُصعدون » مزيد بالهمزة .

والثانى : من « تَصَعَّد » - « كأنما يصَّعَّد » مزيد بالتضعيف .

والثالث : من « صَعَدَ » - « إليه يَصْعَد » مجرد ثلاثى .

* هذه الأفعال الثلاثة استعملتها لغة القرآن وفق منهج خاص بها ، وهو :

(أ) إذا كان الفعل المضارع مصوغًا من فعل ماض مزيد لا مجرد استُعْمِل الفعلُ المضارع فى مقام المخالفات ، وهى هنا - أعنى المخالفات - نوعان :

* العتاب الزاجر عن مخالفة وقعت من المؤمنين ، وقد استُعْمِل فيها المضارع المزيد ماضيه بالهمزة « إذا تُصعدون » من « أصعد » إذا بَعُد .

وذلك لأن هذه الآية نزلت ضمن آيات تُعقِّب على ما حدث من بعض أصحاب النبى ﷺ فى غزوة أُحُد ، حين ترك بعض الرماة أماكنهم التى ندبهم إليها النبى ، وانضموا إلى أرض المعركة ، لجمع الغنيمة لما تحقق النصر

---

(١) النساء : ٤٣ ، المائدة : ٦ (٢) الجن : ١٧
(٣) المدثر : ١٦ ، ١٧

للمؤمنين فى الجولة الأولى - مخالفين أمر القائد - فكرّ المشركون بعد فرّ منتهزين فرصة ترك الرماة مواقعهم ، ففرّ من الصحابة من فرّ ناجين بأنفسهم ، وثبت من ثبت ووقع ما لا يحمد عقباه (١) .

وأصعد : أبعد فى الأرض ، أى سار سيرًا بعيدًا عن المكان الذى كان فيه ، وهو - فى الآية - أرض المعركة ، أما : ﴿ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ أى لا تلتفتون وراءكم ، أو أن كل واحد اهتم بإنجاء نفسه تاركين القائد - صلى الله عليه وسلم - ومن ثبت معه أمام العدو فى الجولة الثانية - وهم قلة - وراء ظهورهم ، فالقرآن يذكرهم بما وقع منهم مما لا ينبغى وقوعه من مثلهم فى مثل المقام الذى كانوا فيه مع صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .

وقد أطلقنا على هذه المخالفة وما ورد فيها من الوحى عتابًا زاجرًا ، لأن الخطاب فيها موجَّه للمؤمنين .

أما النوع الثانى : من المخالفات ، فقد استعملت فيه المادة فى مقام الذّم القادح ، والوعيد القادح ، وهذا النوع استُعْمِل فيه الفعل المضارع « يصَّعَّد » المزيد ماضيه بالتضعيف « صَعَّد » .

وقد جاء هذا الفعل فى سياق الحديث عن « الضالين » وهم غير المؤمنين ، بدليل قوله تعالى فى وصف هذا الفريق :

﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء الفعل « يصَّعَّد » أحد طرَفى صورة تشبيهية لضيق صدر الضال :

المشبه فيها هو ضيق صدر الضال ، والمشبه به الصورة الحاصلة من الإعياء وضيق التنفس عند من يحاول تطاول السماء ، فيدفع بنفسه إلى أعلى ثم يسقط

---

(١) انظر فى ذلك كتب التفسير فى شرح هذه الآية ، أو تفسير النسفى : (١/١٨٧) ، وما بعدها .

ثم يدفع بها ثانية ، ثم يسقط فيجهد نفسه في غير طائل ولا يصيبه إلا الإعياء واللهث ، والحيرة والارتباك [1] ، وبناء الفعل « يصَّعَّد » يدل بصورته وجرسه على شدة المعاناة ، التي يُمنى بها من يحاول هذه المحاولة المتعسفة . فالكلمة في ذاتها فيها مشقة على اللسان في التلفظ حاصلة من توالي التضعيفين في الصاد والعين إذا ما قيست بـ « يَصْعَد » الذي هو الأصل ، فاللسان يرتفع ثم يسفل ثم يرتفع في سهولة ويسر في النطق بـ « يَصْعَد » أما في « يَصَّعَّدُ » ، فيرتفع ثم يسفل ، ثم يرتفع ثم يسفل ثم يرتفع قبل أن يصل إلى الحرف الأخير « الدال » في الكلمة ، مع الجهد المبذول في موطنَي التضعيف .

ففي الفعل « يصَّعَّدُ » دلالة على التكلف ومحاولة ما لم تجربه الطباع من التعالي المستحيل .

هذا هو منهج القرآن في الفعل المزيد بنوعيه ، أما الفعل المجرد « يصْعَد » وهو الوحيد من المادة في القرآن ، فقد خصه القرآن الكريم بمقام الطاعة عكس الفعلين الأولين :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ .

والكلم الطيب ، وإن فسره بعض العلماء بكلمة التوحيد – يشمل الكلام الطيب كله كقراءة القرآن ، وتعليم العلم ، والنصح الخالص لخواص الناس وعوامهم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أسند الفعل « يصعد » إلى الكلم الطيب ، فهو يصعد إلى الله بنفسه

---

(1) في قوله تعالى : ﴿ يَصَّعَّدُ في السماء ﴾ إعجاز علمي حيث أشار إلى ما يصيب المتصعد من اختناق التنفس خارج الغلاف الهوائي الخالي من الأكسجين . وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن ، وإنما عرفت في العلم الحديث بعد إشارة القرآن إليها بأربعة عشر قرنًا .

تعظيمًا لشأنه ، وترغيبًا فيه ، والصعود - هنا - مستعار لسرعة قبوله عند الله ، والإثابة عليه .

* *

● الأسماء الواردة من « المادة » :

أما الأسماء الواردة من المادة ، هي :

« صعيد » على وزن « فعيل » أربع مرات .

و« صعودًا » على وزن « فعول » مرة واحدة .

و« صعدًا » على وزن « فَعَل » مرة واحدة كذلك .

فإن للغة القرآن فيها نظامًا بديعًا آخر ، وهو :

* لاحظنا أن الأساس الذى بُنى عليه منهج القرآن فى الأسماء التى وردت فيه من مادة الصاد والعين والدَّال ، هو : التفرقة بين ما جاء منها وصفًا وما جاء موصوفًا .

* فالذى جاء منها وصفًا ، وهُوْ كلمتان ، خصهما القرآن بمقام الحديث عن سوء المصير فى الآخرة ، هكذا :

* ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أى عقبة شاقة من العذاب ، فالموصوف محذوف، وأقيم الوصف « صعودًا » مقام المحذوف ؛ لأنه محط النظر ، فالعقبة ، وهى الموصوف المحذوف - قد تكون يسيرة وقد تكون عسيرة .

أما « الصَّعُود » فهو المشقة الشديدة ، هكذا قال المفسرون ، وهكذا ذكرت كتب اللغة حكاية عن العرب [1] .

---

(١) راجع فى تفسير هذه الكلمات كتب اللغة كلسان العرب مادة (ص ع د).

والآية الثانية :

* ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ اى مؤلما شاقا .

* أما ما جاء موصوفا ، وهو « صعيد » أربع مرات فقد وزّع على ضربين :

– **ما كان الوصف فيه مقبضًا** : وقد وقفه القرآن على الإنذار والتهديد ، وهما موضعان فى سورة الكهف :

* ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أى : قفرًا لا ماء فيه ولا نبات (١) .

و﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أى مهيلاً رخوًا تغوص فيه الأقدام ويستحيل المشى فيه (٢) .

والوصفان – كما ترى – مقبضان منكدان متعسان .

– **وما كان الوصف مبهجًا مشيعًا للسعادة فى النفوس ، وهو آيتان كذلك :**

﴿ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فى سورتى النساء والمائدة ، والوصف « طيب » وصف مُبهج كما ترى .

* *

● السر البلاغى فى اختلاف الوصف :

اختلف الوصف فى آيتى النساء والمائدة عن الوصف فى آيتى المدثر والجن لداع بلاغى ملحوظ .

ففى آيتى الكهف كان المقام مقام إنذار وتهديد : فى الآية ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أعقبت الآية آيات قبلها تحدثت عن ضلال بعض الفرق ، واغتمام الرسول ﷺ منهم :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ،

(١ ، ٢) راجع فى تفسير هذه الكلمات كتب اللغة ، كلسان العرب مادة (ص ع د) ، وكتب التفسير (سورة المدثر) .

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إن يَقُولُونَ إلا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (1) .

والآية الثانية جاءت تعقيبًا من الرجل المؤمن على كفر صاحبه صاحب الجنتين :

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلا بِاللهِ ، إن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنك مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ (2) .

هذان هما المقامان اللذان وُصِفَ فيهما « صعيدًا » بالجرز والزلق . إنهما مقاما كفر وافتراء على الله ، وجحد بنعمته ، فجاء الوصفان مطابقين لمقتضى الحال ، ولكل مقام مقال .

أما آيتا النساء والمائدة ، فالخطاب فيهما للمؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

---

(1) الكهف : (4 - 8) ، وباخع نفسك : أى قاتلها بالغم والهم على كفرهم . و« هذا الحديث » : يعني : القرآن الكريم .
(2) الكهف : 34 - 41

وموضوع الآيتين هو الحث على التطهر للصلاة . والصلاة والطهارة اللازمة من الأعمال التي يزكو بها المؤمن عند الله ، والآيتان هما :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، وَلا جُنُبًا إلا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وإن كُنتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إن الله كَانَ عَفُوا غَفُورًا ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُمْ مِّنْ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فى هذا المقام المفعم بشذا الإيمان ورياح الجنة جاء وصف « الصعيد » بـ«الطيب » فى الآيتين معًا . وبهذا الوصف تمت النعم ووجب الشكر .

* *

● **منهج القرآن فى « صعد » ومشتقاتها :**

أولاً : لم يأت منها فعل أمر ولا ماض ، بل ثلاثة أفعال مضارعة ، اثنان مزيدان : أحدهما بالهمزة ، والثانى بالتضعيف ، وهما مقصوران فى القرآن على مقام المخالفات :

* العتاب مع المؤمنين وخُصَّ به المزيد بالهمزة « تُصْعِدُون » ، والذم القادح والتهديد الفادح مع « الضالين » وخُصَّ به المزيد بالتضعيف : « يَصَّعَّد » .

---

(١) النساء : ٤٣ (٢) المائدة : ٦

وواحد مجرد وخص بالترغيب في القول الحسن « يَصْعَدُ » .

ثانيًا : وورد منه في القرآن ستة أسماء انتظمها المنهج الآتي :

* ما جاء منها وصفًا خُصَّ بالحديث عن سوء المصير في الآخرة .

* وما جاء منها موصوفًا فما كان في سياق الحديث عن الكفر والافتراء على الله وجحد نعمته كان الوصف مقبضًا مؤلمًا منذرًا بما لا تحمد عقباه .

وما كان في سياق الحديث عن المؤمنين ، وفي مسائل التشريع جاء الوصف مبهجًا مُسْعِدًا .

ثالثًا : ما صيغ من المادة اسمًا على وزن « فعيل » اختُصَّ بالدلالة على المكان .

وما صيغ منها اسمًا على « فعول » أو « فَعَل » اختص بما يستحقه الكافرون في الآخرة من العذاب الأليم .

رابعًا : المضارع في « إذْ تُصعِدُون » جئ به حكاية حال ماضية وتصويرًا لها بصوره ما يقع الآن .

أما « يَصَّعَّد » فقد جئ به مضارعًا هكذا ؛ لأن العبارة مثل مضروب للكافر يصلح لكل زمان .

وأما « إليه يصعد الكلم » ، فقد أوثر فيه المضارع على الماضي لأن الكلم الطيب لا يخلو منه زمان ، فقد صعد من قبل ، وهو يصعد الآن . وسيظل يصعد ما دام في الدنيا مؤمنون يوحدون الله ويتلون كتابه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير .

ولو قيل : صعد الكلم الطيب ، لاوهم أن باب الصعود قد أُغلِق . والله هو العليم بسر كتابه .

* * *

رَفَع – يَرْفَعُ

فى مقدمة مادة الصاد والعين والدَّال ، قلنا إن لنا فى تلك المادة مطلبين :

الأول : معرفة منهج القرآن فى استعمال مادة (ص . ع . د) ثم الموازنة بينها وبين مادة (ر . ف . ع) – بعد معرفة منهج القرآن فيها كذلك – لأن بين المادتين اتفاقًا واختلافًا : الاتفاق فى أن كلا منهما يدل على حركة صاعدة من أسفل إلى أعلى ، أما الاختلاف فالذى نستطيع ذكره الآن ، أن مادة (ص . ع . د) تأتى متعدِّية بنفسها ، وقد تُعدَّى بحرف جر مناسب ، مثل صعدت المنبر ، وصعدت على المنبر ، وصعد الجبل وصعد فى الجبل .

أما مادة « ر . ف . ع » ، فمتعدية بنفسها ، وأحيانًا يأتى بعدها منصوبان ، كقوله تعالى :

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (1) .

فقد تعدى « رفع » إلى مفعوله الأول « بعضهم » بنفسه ، أما « درجات » ، ففيها عند النحاة ستة أوجه ، أحدها : أنه مفعول ثان لـ « رفع » ، وعلى هذا فإن « رفع » يتعدى بنفسه إلى مفعولين » (2) .

ولنأخذ – الآن – فى التمثيل ثم النظر .

● **التمثيل** :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ . . ﴾ (3) .

---

(1) البقرة : ٢٥٣ (2) انظر الدر المصون للسمين الحلبى : (٢/٥٣٦) .

(3) البقرة : ٢٥٣

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا . . ﴾ (٢) .

﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ (٣) .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ، بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ (٤) .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ . . ﴾ (٥) .

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ . . ﴾ (٦) .

﴿ . . وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيا﴾(٧) .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٨) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . . ﴾(٩) .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيا ﴾ (١٠)

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١١) .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (١٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . . ﴾ (١٣) .

---

(١) الأنعام : ١٦٥ (٢) يوسف : ١٠٠ (٣) الرعد : ٢
(٤) النازعات : ٢٧ - ٢٨ (٥) البقرة : ٦٣ ، ٩٣ (٦) النساء : ١٥٤
(٧) الزخرف : ٣٢ (٨) الانشراح : ٤ (٩) الأعراف : ١٧٦
(١٠) مريم : ٥٧ (١١) النساء : ١٥٨ (١٢) الرحمن : ٧
(١٣) الحجرات : ٢

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ .. ﴾ (١) .

﴿ .. نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (٣) .

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ .. ﴾ (٤) .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ﴾ (٥) .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (٦) .

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾ (٧) .

﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ (٨) .

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ .. ﴾ (٩) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (١٠) .

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ (١١) .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (١٢) .

﴿ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ (١٣) .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١٤) .

* هذه ثلاثون آية وردت فيها مادة الراء والفاء والعين فى صياغات مختلفة :

---

(١) الأنعام : ٨٣ — (٢) يوسف : ٧٦ — (٣) البقرة : ١٢٧
(٤) المجادلة : ١١ — (٥) فاطر : ١٠ — (٦) الغاشية : ١٨
(٧) النور : ٣٦ — (٨) الواقعة : ٣ — (٩) آل عمران : ٥٥
(١٠) غافر : ١٥ — (١١) الطور : ٥ — (١٢) الواقعة : ٣٤
(١٣) عبس : ١٤ — (١٤) الغاشية : ١٣

منها ستة عشر فعلاً ماضيًا ، ثلاثة عشر منها مُسْنَد إلى « الله » . واحد إلى اسم الجلالة مظهرًا ، واثنا عشر إلى الضمائر العائدة إليه .

وهذه - بدورها - نوعان : **الأول** : ضمائر التكلم فى سبعة أفعال .

الثانى : ضمائر الغيبة فى خمسة أفعال .

وموضع واحد أسند فيه الفعل الماضى إلى غير الله ، وهو :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، أى يوسف - عليه السلام .

وفعل ماضى واحد بُنى لما لم يُسَمَّ فاعله ، بيد أن المقام يفيد إسناده إلى الله يقينًا ، وهو : ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ والرافع هو الله .

*** وسبعة أفعال مضارعة :**

منها أربعة مسندة إلى الله مظهرًا ومضمرًا . المسند إليه مظهرًا فعل واحد ، هو :

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ .. ﴾

وثلاثة أفعال مسندة إلى الضمير المكنى به عن اسم الجلالة ، وفعل واحد مسند إلى ما لم يُسَمَّ فاعله ، وهم المؤمنون فى قوله تعالى :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾ ، يعنى تُبْنَى وتشاد ، وبانوها والذاكرون اسم الله فيها هم المؤمنون .

*** وسبعة أسماء على النحو الآتى :**

* **صفة مشبهة** باسم الفاعل مجراة على الله سبحانه وتعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ .

* **واسما فاعل** أحدهما مُجْرَىً على الله سبحانه فى قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ .. ﴾ .

والثانى جاء وصفًا ليوم القيامة : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ .

*** وأربعة أسماء مفعول :**

- واحد وصف للسماء : ﴿ والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

- وواحد وصف لنعيم الجنة : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (١) .

- وواحد وصف للصحف فى أيدى الملائكة : ﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

- وواحد وصف لسرر الجنة : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١) .

* هذه الصيغ جميعًا وردت مثبتة ، إلا فعلاً مضارعًا واحدًا جاء منهيًا عنه وهو قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . . ﴾ .

* وفعلاً ماضيًا واحدًا جاء مثبتًا لفظًا منفيًا معنىً ، وهو :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ، فهو لفظًا مثبت ، وإثباته مؤكد باللام . وهو معنى منفى لعدم تعلق مشيئة الله الواقعة فعل الشرط بتحقيق هذا الرفع ؛ لان جواب « لو » يمتنع لامتناع شرطها .

* السبب فى خلو المادة - هنا - من فعل الأمر أنها وردت فى أساليب خبرية لا إنشائية ، ما عدا آية الحجرات التى كان الأسلوب الإنشائى فيها نهيًا ، والنهى لا يتسلط على الفعل الأمر .

هذا ، وقد وُظِّفَتْ صور المادة فى جميع مواضعها القرآنية للدلالة على المعانى الآتية :

- **لفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية ، مثل :**

﴿ . . رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

---

(١) المراد بـ « الفرش المرفوعة » الحور العين ، بدليل قوله تعالى عقب هذه الآية : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ ، والعرب كانت تكنى عن النساء بالفرش .

- الامتنان والتفضل ؛ مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ - ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًا ﴾ - ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ - ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

- الإلماح إلى بعض الوقائع التاريخية ؛ مثل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ - ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ ، ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، أى رفع يوسف أبويه .

- الترغيب والعدة الحسنة ؛ مثل :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، ﴿ .. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ ، أى الجنة .

﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ ، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ يعنى الحور العين .

- التمدح بجلال الله وكمال سلطانه :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ .. ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ؛ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

- التخويف والإنذار :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

- التوجيه والإرشاد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

- تردد المادة بين الحقيقة والمجاز :

الأمثلة التى ذكرناها بالنسبة للحقيقة والمجاز جاءت على ثلاثة أقسام :

الأول : الحمل على الحقيقة يقينًا :

وضابطه أن يكون معمول الرفع جسمًا ماديًا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ .. ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .

الثانى : الحمل على المجاز يقينًا :

وضابطه أن يكون معمول الرفع أمرًا معنويًا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

﴿ .. وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

الثالث : جواز الحمل على الحقيقة أو المجاز :

وذلك إذا أخبر عن جسم مادى أو وُصف بالرفع . ومن صوره قوله تعالى فى شأن إدريس - عليه السلام : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

فعلى من ذهب إلى أن الرفع - هنا - هو شرف النبوة يكون الرفع مجازًا استعاريًا العلاقة فيه قوة الظهور .

وعلى من ذهب إلى أن الرفع كان بجسم إدريس إلى السماء الرابعة تكريمًا له لكثرة عبادته يكون الرفع حقيقيًا [(١)] .

ومن صوره - كذلك - قوله تعالى فى وصف الحور العين : ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ .

---

(١) انظر تفسير النسفى : (٣/٣٩) .

فإذا أريد بالرفع الصون والشرف كان الرفع مجازًا ، وإذا أريد به الارتفاع عن الأرض كان الرفع حقيقيًا .

* استعملت المادة فى القرآن فى المعانى المحبوبة سواء كانت مثبتة أو منهيًا عنها أو مشوبة بشىء من النفى [١] .

وهذا على عكس « صعد » فإن استعمالها فى المعانى غير المحبوبة كان بنسبة ٦ : ٣ .

والسبب أن مادة « رفع » لم تستعمل فى اللغة إلا فى معانى النبل والشرف كرفعة النسب والجاه ، فهى مثل مادة « ربط » فى اختصاصها بالمعانى الحميدة ، والصفات الشريفة .

لهذا وصف الله نفسه باسم الفاعل منها « رافعك » ، والصفة المشبهة باسم الفاعل « رفيع الدرجات » كما أسند أفعالها ماضية ومضارعة إلى ذاته العلية مرات .

أما « صعد » فلم يأت منها فعل واحد مسندًا إلى الله ولا وصف بها نفسه قط .

هذا هو منهج القرآن فى انتقاء الألفاظ ووضع كل لفظ موضعه من البلاغة المعجزة ، والإعجاز البليغ فسما فوق كل نقد ، وعلا فوق كل بيان .

* *

• منهج القرآن فى « رفع » ومشتقاتها :

أولاً : كثرة استعمالاتها وتعدُّد أبنيتها الصرفية .

---

(١) لان النهى فى قوله تعالى : ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .. ﴾ توجيه وإرشاد إلى حسن التأدب مع صاحب الرسالة ﷺ .

ثانيًا : انتظام ورودها فى أساليب خبرية إيجابية ، إلا فى موضع واحد مختص بالإرشاد والتشريع .

ثالثًا : إسنادها إلى « الله » ظاهرًا ومضمرًا إلا فى ثلاثة مواضع من ثلاثين موضعًا . وغلبة إسنادها إلى الضمائر الإلهية .

رابعًا : إطّراد استعمالها فى المعانى المحبوبة ، ولفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية .

خامسًا : تعدُّد الأغراض البيانية التى استُعْمِلَتْ فِى تأديتها كالتشريع والإلماح التاريخى ، والترغيب والتمدح بجلال الله .

سادسًا : تردُّد دلالاتها بين الحقيقة والمجاز ، أو احتمال الأمرين فى بعض المواضع .

سابعًا : المعنى العام للمادة فى القرآن الكريم هو : السمو واكتساب المحامد .

* * *

الدُّعاء – النِّدَاء

الدعاء والنداء من الكلمات القرآنية ، وهما تشتركان فى طلب الإقبال من المدعوّ والمنادَى ، وكان هذا الاشتراك حريا بأن يكونا فى لغة القرآن متساويين لا تفرقة بينهما ، لكن استقراء مواضع ورودهما فى القرآن الحكيم يكشف عن فروق دقيقة بينهما ، فهذه فيه غير تلك ، وتلك غير هذه ، وأن لكل منهما مقامًا خاصًا بها ، هذا ما ستكشف عنه الآيات الآتية ، مع البدء بالدعاء ثم نتبعه النداء تيسيرًا للبحث [1] .

● **التمثيل : (م أ) :**

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [2] .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ . . ﴾ [3] .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [4] .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . ﴾ [5] .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ [6] .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا . . ﴾ [7] .

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . . ﴾ [8] .

---

(١) فى التمثيل للدعاء نقسم الآيات مجموعين : أ ، ب لهدف ستعرفه فيما بعد .

(٢) آل عمران : ٣٨ — (٣) الزمر : ٨ — (٤) القمر : ١٠

(٥) لقمان : ٣٢ — (٦) الدخان : ٢٢ — (٧) فصلت : ٣٣

(٨) إبراهيم : ٢٢

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ . . ﴾ (١) .
﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ . . ﴾ (٢) .
﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . . ﴾ (٣) .

* *

● التمثيل ، (م ب) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . ﴾ (٤) .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) .

﴿ . . أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ (٧) .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً ﴾ (٨) .

﴿ . . وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ . . ﴾ (٩) .

فى المجموعة (أ) ، كان طرفا الدعاء : المدعو والداعى مختلفين ، فحينا الداعى هم الناس والمدعو هو الله ، وهذا هو الأصل فى الدعاء .

وحينًا كان الداعى والمدعو هم الناس بعضهم بعضًا .

وحينًا كان الداعى هم الناس والمدعو هم الأصنام .

(١) القصص : ٦٤ (٢) مريم : ٤٨ (٣) غافر : ٤١
(٤) الأنفال : ٢٤ (٥) الروم : ٢٥ (٦) يونس : ٢٥
(٧) إبراهيم : ١٠ (٨) الإسراء : ٥٢ (٩) البقرة : ٢٢١

وحينًا كان الدَّاعي هو الشيطان والمدعو هم الناس .

ومن ينظر في الآيات نظرة فاحصة يتبين له صدق ما ذكرناه .

والدعاء لا بد فيه من افتقار الداعي إلى المدعو . وهذا في القسم الأول - دعاء الناس الله - ظاهر لا يحتاج إلى بيان وإذا دعا الشيطان الناس فلأنه مفتقر إلى تضليلهم وتزيين الباطل لهم وإغوائهم ليكونوا رفقاءه في النار ، كما قال عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وإذا دعا الناس الأصنام فلاعتقادهم الباطل أنها تنفع وتضر كما قال سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا من دُون الله آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (٢) .

وإذا دعا الناس بعضهم بعضًا فلحاجة في نفس الداعي إلى المدعو ، فدعاء آل فرعون لمؤمنهم الذى سجله القرآن الأمين في قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ (٣) .

فلحاجة في أنفسهم ، هي صد الرجل المؤمن عن إيمانه واتباعه ملتهم الفاسدة .

وهكذا فإن الدعاء لا ينفك عن افتقار الداعي إلى المدعو ، في أى صورة كان ذلك الافتقار .

وقد يُنحرَف بالدعاء حين يكون معناه عبادة المدعو غير الله ، أو يكون معناه زعم وجود آلهة غيره - عزّ وجلّ . وهذان المعنيان واردان على جهة الإبطال في القرآن الحكيم ، ومن شواهده قول أصحاب الكهف يشنعون على قومهم :

---

(١) فاطر : ٦ (٢) يس : ٧٤ ، ٧٥ (٣) غافر : ٤١

﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١) .

وقبل هذه الآية قالوا نافين عن أنفسهم ضلال قومهم :

﴿ . . لَن نَّدْعُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا ، لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (٢) .

وقال الحق لرسوله ﷺ ولكل عاقل يحترم عقله : ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ، فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

هذا هو شأن الدعاء :

* منه ما هو حق كدعاء المؤمن ربه أن يجلب له خيراً ، أو يدفع عنه شراً . وأن الداعى هو المستفيد من الدعاء لا المدعو .

* ومنه ما هو شرك وضلال ، كدعاء غير الله لجلب النفع ودفع الضر .

* والأصل فى الدعاء أن يكون من الأدنى إلى الأعلى ، ولهذا كان لا ينبغى أن يكون الدعاء فعْلاً لله هو فاعله ، لأن الله غنى عن العالمين ، وهو رب السموات والأرض رب العالمين ، لا يعلو على شانه شأن . فالدعاء ينبغى أن يكون فعْلاً لغير الله ، وأن يكون هو المدعو والطرف الأعلى فيه .

فكيف ساغ فى المجموعة (ب) من الآيات أن يصدر الدعاء من الله ؟ وأن يكون هو فاعل الدعاء .

تعال معى ننظر فى مجموعة (ب) من الآيات :

* فى الآية الأولى (الأنفال : ٢٤) كان المترتب على استجابة الدعاء من الله ورسوله هو إحياء المدعوين بطاعة الله ورسوله .

* وفى الآية الثانية (الروم : ٢٥) كان المترتب على دعوة الله هو خروج الناس من القبور .

---

(١) الكهف : ١٥ (٢) الكهف : ١٤ (٣) يونس : ١٠٦

وفى الآية الثالثة (يونس : ٢٥) كان متعلق الدعاء هو العمل لدخول الجنة (دار السلام) .

* وفى الآية الرابعة (إبراهيم : ١٠) كان متعلق الدعاء هو غفران ذنوب المدعُوِّين وإطالة حياتهم .

* وفى الآية الخامسة (الإسراء : ٥٢) كان المترتب على الدعاء هو البعث من القبور وإحياء الموتى للحساب .

* وفى الآية السادسة : (البقرة : ٢٢١) كان متعلق الدعاء هو التمتع بنعيم الجنة ومغفرة الذنوب .

فالدعاء فى هذه الآيات صادر من الله العلى العظيم والله هو فاعله .

وليس فى هذا ما يمس قدسية الله ، أو ينافى الكمال الإلهى المطلق . كيف ؟

أولاً : لأن الدعاء المسند إلى الله فى هذه الآيات إنما هو « دعوة » غنى قدير . وقد صرَّح بذلك القرآن نفسه فى آية الروم .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، والفرق بين الدعوة والدعاء . أن الدعاء ملازم للافتقار ، أما الدعوة فقد - وقد للتكثير - تكون من غَنِىّ .

ثانيًا : الدعاء المسند إلى « الله » النفع فيه عائد على المدعو وليس على الداعى ؛ لأنه غنى عن كل شىء .

فالله هو رب الجنة ورب المغفرة، ورب الفضل كله ، يدعو الناس ليتفضل عليهم من فضله الواسع ، ويغفر لهم ويرحمهم .

ثالثًا : أن الدعاء فى آيتى الإسراء والروم دعاء هيمنة وقدرة وسعة سلطان ، يدعو الناس ليعودوا كما خلقهم أول مرة ، فيثيب المحسن ، ويجازى المسىء يوم يقوم الحساب ، فانظر إلى هذا « الاحتراس » البليغ فى كل المواضع التى

أسند فيها الدعاء إلى الله . ليتضح الفرق جليا بين دعاء المفتقر الضعيف ، ودعاء الغنى القوى .

ثم تأمل الإحكام فى لغة القرآن كيف كان ؟

إن القرآن - كله - ناهج منهج السلامة فى ألفاظه وتراكيبه ومعانيه . وهذا هو الإعجاز بمعناه العام ، والذى نحاول - نحن - تجليته هنا لبنات فى صرحه الشامخ ، وقطرات من فيضه العميم .

إن الاحتراس الذى لفتنا الأنظار إليه فى الآيات الست أحد طريقين للقرآن فى تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من إسناد الدعاء إليه .

ولدينا طريق ثان سنعرض له فى مبحث النداء والدعاء بعد قليل .

* *

● منهج القرآن فى الدعاء :

أولاً : الأصل فيه أن يكون فعلاً لغير الله لما يدل عليه الدعاء من افتقار الداعى إلى المدعو ، وكونه من أدنى إلى أعلى .

ثانيًا : ما أسند فى القرآن من الدعاء إلى الله إنما هو دعوة لا دعاء ويدل على أمرين :

(أ) أن المستفيد هو المدعو لا الداعى .

(ب) أن يكون من سمات الهيمنة ومقدورات الألوهية كدعوة الموتى للبعث والحساب .

ثالثًا : جاء استعمال القرآن للدعاء كثيرًا ، والدعاء المشروع فيه هو دعاء الناس ربهم الذى بيده ملكوت كل شىء .

رابعًا : يأتى الدعاء - أحيانًا - فى القرآن مرادًا به الاستعانة بغير الله أو عبادته ، ومنهج القرآن فيه إما الحكاية عن بعض المشركين ، أو النهى عنه - ابتداء - من غير حكاية .

خامسًا : اشتمل الدعاء الوارد فى القرآن على الأقسام الأربعة الآتية :

(أ) دعاء المؤمن ربه ، وهذا الدعاء عبادة حقة يثاب عليها فاعلها .

(ب) دعاء المشركين أصنامهم ومعبوديهم ، وهذا كفر وإلحاد .

(جـ) دعاء الناس بعضهم بعضًا وهو مذموم ، فإذا صاحبه اعتقاد أن المدعو يملك النفع والضر فهو شرك .

(د) دعاء الشيطان الناس ليكونوا من أصحاب السعير .

سادسًا : ثم الدعاء بمعنى الدعوة إلى الله . وهذا عمل قامت به الرسل ، ويقوم به الدعاة فى كل عصر ، وهو عمل طيب يثاب عليه فاعله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) فصلت : ٣٣

النِّدَاءُ – الدُّعَاءُ

الأصل فى النداء أن يكون برفع الصوت ، فهو أخص من الدعاء ، والنداء فى المعاجم هو الدعاء ؛ لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادى ، أو الداعى سواء كان الإقبال بالإنتقال الجسدى أو بالانتباه الذهنى .

وقد مرَّ بنا منهج القرآن فى الدعاء ، ونريد – الآن – أن نعرف منهج القرآن فى النداء ، والتفرقة القرآنية بينهما كيف تكون .

وكما قسمنا آيات التمثيل فى الدعاء إلى مجموعتين نسلك المسلك نفسه فى آيات النداء تيسيرًا للدراسة .

● التمثيل : (م أ) :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [(١)] .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [(٢)] .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ .. ﴾ [(٣)] .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴾ [(٤)] .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ، وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًا ﴾ [(٥)] .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. ﴾ [(٦)] .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [(٧)]

---

(١) الشعراء : ١٠ (٢) النازعات : ١٥ ، ١٦ (٣) الأعراف : ٢٢

(٤) القصص : ٤٦ (٥) مريم : ٥٢

(٦) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ (٧) القصص : ٦٢

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ (٣) .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ . . ﴾ (٤) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٥) .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ . . ﴾ (٦) .

* *

● التمثيل : (م ب) :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا . . ﴾ (٧) .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي . . ﴾ (٨) .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (٩) .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٠) .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١١) .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ . . ﴾ (١٢) .

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا . . ﴾ (١٣) .

---

(١) القصص : ٦٥ (٢) القصص : ٧٤ (٣) فصلت : ٤٧
(٤) طه : ١١ ، ١٢ (٥) النمل : ٨ (٦) القصص : ٣٠
(٧) هود : ٤٢ (٨) هود : ٤٥ (٩) مريم : ٢ ، ٣
(١٠) الأنبياء : ٨٣ (١١) الأنبياء : ٨٩ (١٢) آل عمران : ٣٩
(١٣) المائدة : ٥٨

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا .. ﴾ (1) .

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. ﴾ (2) .

في المجموعة الأولى (أ) كان النداء الذى ذُكر فيها كله مسندًا إلى الله عزَّ وجَلَّ . وجاء الإسناد وفق النظام الآتى :

* عشرة أفعال مبنية للفاعل ، وثلاثة أفعال مبنية للمفعول ، والفاعل فى الجميع هو « الله » لأن الأفعال الثلاثة التى بُنِيَت لما لم يسم فاعله ، كانت تكرارًا لما أُسْنِد لله من ندائه موسى - عليه السلام .

* ثلاثة أفعال من العشرة المسندة إلى الله أُسْنِدت إلى اسمه الكريم « رب » مرة مضافًا إلى ضمير الخطاب « ربك » ومرة مضافًا إلى ضمير الغائب المفرد المذكر « ربه » وثالثة إلى ضمير الغائب المثنى « ربهما » .

* وسبعة أفعال أُسْنِدت إلى الضمائر المكنى بها عن « الله » تعالى : ثلاثة منها أسندت إلى المتكلم المعظم نفسه « نادينا » .

* وأربعة أفعال أُسْنِدَتْ إلى ضمير الغيبة « يناديهم » .

* لم يُسْنَدْ أى فعل منها إلى اسم الجلالة « الله » بل أوثر الإسناد إلى « رب » كما تقدم .

وقد يكون الداعى فى هذا الإسناد أن النداء منه - سبحانه - فيه إنعام على المنادى وعلى من وُجِّه إليه الخطاب ، وهو نبينا محمد ﷺ فى ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ ، و﴿ رب ﴾ هو عنوان الإنعام والتكريم فأوثر الإسناد إليه فى المواضع الثلاثة :

« ربك - ربُّه - ربُّهما » على الإسناد إلى اسم الجلالة « الله » لهذا الاعتبار اللطيف . هذه واحدة .

(1) آل عمران : 193

(2) الجمعة : 9

والثانية أن « رب » تجوز إضافته إلى « الغير » أما اسم الجلالة « الله » فلا تجوز إضافته إلى شيء . ولذلك - والله أعلم ، جاء الإسناد فى الأفعال الثلاثة ما دامت الإضافة مرادة تحقيقًا للمعنى الذى أشرنا إليه .

أما الأفعال الأخرى ، سواء منها ما أُسْنِدَ إلى ضمير التكلم « نادينا » أو إلى ما لم يُسم فاعله ، فإن مجيئها على ما هى عليه دليل على أن الإضافة والإظهار غير مرادين .

* ومن الملاحظ خلو هذه المواضع من الاحتراس الذي تقدم ذكره فى «الدعاء » مُسْنَدًا إلى « الله » ؛ لأن « النداء » ليس فيه ما فى الدعاء من الافتقار وكون « الداعى » أدنى منزلة من المدعو ، فلم يكن فى إسناد النداء إلى « الله » ما يقتضى نفى « الشوائب » التى تُلحظ فى الدعاء ، ويخلو منها النداء .

وإذا كان « الاحتراس » المتقدم شرطًا فى إسناد الدعاء إلى الله ، فإن النداء - هنا - بديل من الدعاء هناك . فالله ينادى ولا يدعو ، فإذا دعا كان دعاؤه نداء فى كونه صادرًا من غنى لنفع المدعو ، لا لنفع يعود على الداعى ، والله هو الغنى الحميد .

والأصل فى الخلق أن يدعوا دعاء افتقار إلى المدعو ، لا أن ينادوا . فإن نادوا كان نداؤهم دعاءً ، ويكون للنداء المسند فى القرآن إلى غير الله دواع بلاغية نتبينها من مجموعة الآيات الثانية (ب) .

ولكن كيف كان الأصل فى جانب الله النداء دون الدعاء ، والنداء يكون بين المتباعدين لا المتقاربين ، والله لا يَبْعد عنه شيء ، وإزالة هذه الشبهة يسيرة :

فصحيح أن الله لا يبعد عنه شيء ، والتباعد الملحوظ فى النداء تباعد رتبة لا تباعد مكان ، فالله هو العلى العظيم يعلو بسلطانه فوق مخلوقاته علوًا كبيرًا .

فإذا نادى ، فليس لأن المنادَى بعيد عنه فى المكان ، بل بُعْده هو انحطاط رتبته أمام قيوم السموات والأرض .

* *

● **آيات المجموعة الثانية :**

لم نذكر كل الآيات التى أُسْنِد فيها النداء لغير الله - لكثرتها - ، وإنما ذكرنا ما يعيننا على تصور منهج القرآن فيها . والنظر فى تلك الآيات ينبئ عن الآتى :

* نداء بين العباد بعضهم بعضًا ، مثل نداء نوح ابنه ، ومثل النداء للصلاة فإن المنادي والمنادَى فيه هم الناس .

* نداء من الملائكة لبعض الرسل ، كندائهم لزكريا ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ ﴾ .

* نداء من الناس لله ، وهو كثير فى نداء الرسل ربهم ، كنداء نوح وزكريا وأيوب .

والقسمان الأولان جاريان على الأصل وهما نداء الناس الناس ، ونداء الملائكة الناس .

القسم الثالث ، وهو نداء الناس ربهم ، فهو غير جارٍ على الأصل ، بل كان ينبغى أن يكون دعاء لا نداء ؛ لأن النداء يكون للبعيد والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، وهو القائل :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] .

ولأن الله أمر عباده أن يدعوه لا أن ينادوه . أليس هو القائل :

﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2] .

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) غافر : ٦٠

وإذا رجعنا إلى آيات المجموعة الثانية (م ب) نجد نداء الله صادراً من الرسل ، لا من عوام الناس :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ . . ﴾ (١) .

فكيف نادى هؤلاء الرسل ربهم ولم يدعوه وهم أعرف الناس بربهم ؟

لقد تتبعنا هذه المواضع فوجدناها تخضع لظرف واحد ، كان هو السبب فى أن يلجأ هؤلاء الرسل الكرام إلى النداء بدلاً من الدعاء الذى هو الأصل:

ذلك الظرف هو الشدة البالغة ، والكرب العظيم الذى كان يعترى كلا منهم ، فنداء نوح ربه كان سببه تعرض ابنه - وهو أقرب الناس إليه - إلى الهلاك ، فنادى رافعًا صوته رغبة فى إنقاذ ابنه . فحالته « الشعورية » القلقة هى السبب فى النداء لا بُعْدُ المنادَى ، وهو الله تعالى .

ونوح هذا الذى نادى هنا ولم يدعُ هو الذى حكى عنه القرآن فى موضع آخر أنه دعا ولم يناد . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (٢) .

وهذا ينبئ عن جزعه على غرق ابنه أكثر من شكواه من تكذيب قومه له . لما أودع الله فى قلوب الآباء من شفقة على الأبناء .

وهذا ينطبق على أيوب ويونس - ذى النون - وزكريا ، كلهم كانوا حين نادَوْا ربهم تحت ضغط شديد من جراء ما حل بهم من ابتلاء من الله .

---

(١) الأنبياء : ٨٧   (٢) القمر : ١٠

فالنداء المحكى عن هؤلاء الرسل كان الباعث عليه حال المنادِى لا بُعْدُ المنادَى .

ومن الملاحظات البيانية اللطيفة أننا نلاحظ - هنا - ما لاحظناه من قبل فى إيقاع النداء على « رب » دون اسم الجلالة « الله » .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ .

فالنداء - فى القرآن - فاعله هو « رب » مضافًا إلى ضمير ذى المقام .

ومعموله هو « رب » مضافاً إلى ضمير المنادى . ولم يأت « الله » . فاعلاً له ولا معمولاً .

إنَّه نَسَقٌ عجيب حكيم ، جارٍ على اعتبارات « إعجازية » لطيفة وليس كلامًا يُرصَفُ كيفما اتُّفق .

فالمنادى راجٍ . و« ربّ » هو عنوان الإنعام والتفضل . ولذلك تعلق به الدعاء - كما سيأتى - كما تعلق به النداء هنا . إنَّه الإعجاز اللغوى البيانى القائم على وضع كل لفظ موضعه فى الكتاب العزيز ، كما قال العلامة ابن عطية - رحمه الله .

* *

● خاصية النداء :

للنداء خاصية فى لغة القرآن مستمدة من وَضْع النداء فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، فشرُفت وخلدت بذلك النزول .

* خاصية النداء فى اللغة :

يقول الراغب : « وأصل النداء من الندى ، أى الرطوبة ، يقال : صوت ندى رفيع ، واستعارة النداء للصوت من حيث أن من تكثر رطوبة فمه حسُن

كلامه ، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق . . ويُعبَّر عن السخاء بالندى ، يقال : فلان أندى كفا من فلان . . »[1] .

هذا هو أصل اشتقاق النداء فى اللغة . وهو يدل على خيرية النداء مثل خيرية ما اشتق منه ، فالندى ماء ، والماء أصل الحياة ، وهذا يبعث على التفاؤل الحسن فى النداء ، وينفى عنه كل شائبة .

* **خاصية النداء فى القرآن :**

ويكسو النداء بهجة وسرورًا استعمال القرآن له فى الدلالة على طلب الإقبال من الله - أصالة - بلا احتراس لدفع ما يتوهم تصوره منه ، مثلما حدث فى الدعاء مُسْندًا إلى الله ، هذه واحدة .

والثانية : أن القرآن الحكيم سمى طلب الإقبال للصلاة نداءً مرتين :

إحداهما فى سورة المائدة فى قوله تعالى - وقد تقدم - ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ومرة فى سورة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

والثالثة : أن القرآن الحكيم سمى طلب الإقبال للإيمان نداء ، وسمى الداعى إليه مناديًا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ .

والرابعة : أنه جعل هذا النداء المستجاب وسيلة للدعاء بغفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والتوفية مع الأبرار .

---

(1) المفردات : (٤٨٧) .

والخامسة : الإعلان باستجابة هذا الدعاء الموطأ له بذلك النداء :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ . . ﴾ (١) .

هذه هي التفرقة القرآنية الدقيقة بين الدعاء والنداء ، وفي كل خير ، بيد أن الخير في النداء أخلص وأصفى منه في الدعاء (٢) .

* *

● **منهج القرآن في « النداء » ومشتقاته :**

أولاً : إسناده إلى الله مطلقاً وبلا احتراس لخلوصه من الشوائب ، ولياقته بمقام الألوهية .

ثانيًا : إسناده إلى « رب » مضافاً إلى ضمير مناسب إذا كان الله هو فاعله . وإيقاعه على « رب » مضافاً إلى ضمير مناسب إذا كان النداء موجهًا إلى الله .

ثالثًا : أن في طلب الإقبال من الله هو النداء ، فإذا دعا قرن الدعاء باحتراس لنفي ما قد يُتَوَهَّم ثبوته ، والأصل في الطلب من الله هو الدعاء ، فإذا نُودِي فلداعٍ عند المنادِي ، وليس لبُعْد المنادَى .

رابعًا : النداءُ من الله ليس سببه بُعْد المنادَى مكانًا عنه ، وإنما بُعْد رتبة المنادِي (الله) واتضاع رتبة المنادَى .

---

(١) آل عمران : ١٩٥

(٢) لا يقدح في هذا نداء فرعون لقومه بالكفر في سورة الزخرف . ولا نداء أهل النار لأهل الجنة في سورة الأعراف ، وأمثالهما ؛ لأن حديثنا مقصور على النداء المأذون فيه شرعًا . أما دعاء ونداء الأشرار فلم يرد في القرآن إلا على سبيل الحكاية .

خامسًا : للنداء فى لغة القرآن خاصية رشحته لان يكون الله فاعلاً له - بلا حرج - كما رشحته ليكون « عنوانًا » على طلب الإقبال إلى الصلاة (الأذان) ، وأن يكون « عنوانًا » على طلب الإقبال على الإيمان .

سادسًا : نداء الأشرار بعضهم بعضًا الوارد فى القران لا يحظى بخاصية النداء المأذون فيه شرعًا ، بل وروده فى القرآن كان على سبيل الحكاية والذم والتشنيع .

سابعًا : فى كل من الدعاء والنداء خير ، بيد أن الخير فى النداء أخلص واصفى ، واظهر تفاؤلاً ، وأنقى معنًى .

* * *

رَبّ - ربُّ كل شىء

لكلمة « رب » فى القرآن واحة وارفة الظلال ، عبقة الشذا ، طيبة الثمار ، ونقصد « رب » التى جاءت حديثًا عن « الله » أما ما كانت عن غيره ، فلا علاقة لنا بها فى هذه الدراسة ، والتى جاءت مقصوداً بها « الله » كثيرة كثرة هائلة ، حيث لم تخلُ من ذكرها مرات كل السور غير قصار المفصَّل ، ولن نستطيع - هنا - استقصاءها ، ولذلك فإننا سنلتقط منها ومضات تنير لنا الطريق ، وترسم قسمات المنهج القرآنى فى استعمال هذه الكلمة المنتشرة فى آى القرآن انتشار النجوم الزهر فى سماء صافية غاب قمرها ، فتلألأت فى أرجائها تهدى السارين ، وتبهج الناظرين .

وتيسيراً للدراسة تقسم ما سنذكره من آياتها مجموعات ، ثم ننظر فى كل مجموعة قبل السير مع مجموعة أخرى ، وبالله ومنه التوفيق .

● **الإضافة إلى الظاهر :**

● **التمثيل : (م أ) :**

﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

﴿ إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أسْلِمْ ، قَالَ أسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ أغَيْرَ الله أبْغِى رَبًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ . . ﴾ (٣) .

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤) .

﴿ فَإنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لا إلَهَ إلا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٥) .

---

(١) أم الكتاب : ١ (٢) البقرة : ١٣١ (٣) الأنعام : ١٦٤
(٤) الأعراف : ١٢٢ (٥) التوبة : ١٢٩

﴿ .. مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ .. ﴾ [1] .

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [2] .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [3] .

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [4] .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ [5] .

﴿ .. وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [6] .

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَق مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [7] .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [8] .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ [9] .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [10] .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [11] .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [12].

﴿ .. وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَب غَفُورٌ ﴾ [13] .

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [14] .

هذه تسع عشرة آية وردت فيها كلمة « رب » عشرين مرة ، حيث وردت فى آية (الأنعام : ١٦٤) مرتين ، وإذا نظرت فى الآيات نظرة فاحصة وجدت

---

(١) الإسراء : ١٠٢

(٢) الشعراء : ٢٤

(٣) الشعراء : ٢٦

(٤) الشعراء : ٢٨

(٥) النمل : ٩١

(٦) الصافات : ٥

(٧) الذاريات : ٢٣

(٨) المعارج : ٤٠

(٩) قريش : ٣

(١٠) الفلق : ١

(١١) الناس : ١

(١٢) المزمل : ٩

(١٣) سبا : ١٥

(١٤) يس : ٥٨

كلمة « رب » جاءت سبع عشرة مرة ملازمة للإضافة إلى الأسماء الظاهرة ، وهذه الإضافة جاءت على نوعين :

الأول : وهو ست عشرة مرة ، كانت الإضافة إلى قطاعات خاصة من قطاعات الكون :

السموات والأرض وما بينهما - السموات والأرض - السماء والأرض - المشرق - المشرق والمغرب - المشارق - العرش العظيم - الآباء الأولين [1] - البيت - البلدة - الفلق - الناس - موسى وهارون .

الثاني : وهو موضع واحد جاءت الإضافة فيه عامة شاملة ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

هذه الإضافة العامة أجملت كل ما سبق تفصيله فى الآيات الست عشرة . وبهذا الإجمال ، وذلك التفصيل صار الملك كله لله لا شريك له .

ومما نلحظه من هذه المجموعة حرص البيان القرآنى على إضافة كلمة « رب » مقصوداً بها الله ، إلى بعض مخلوقاته أو كلها فى كل موضع وردت .

فإذا لم تكن إضافة ، فإن القرآن يصف كلمة « رب » بوصف يقوم مقام الإضافة .

وقد جاء هذا - فى القرآن كله - فى آيتين لا ثالثة لهما ، وهما :

﴿ .. وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [2] : أى رب المغفرة .

و﴿ مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [3] : أى رب الرحمة .

أما « ربا » فى آية (الأنعام : ١٦٤) ، وهى نكرة غير مضافة ولا موصوفة

---

(١) فى آية الأنعام (١٦٤) أضيفت كلمة « رب » إلى ضمير المخاطبين ، ولم نعددها هنا ؛ لأن الإضافة إلى الضمائر سنذكرها فى المجموعات الآتية بإذن الله .

(٢) سبأ : ١٥ (٣) يس : ٥٨

بوصف يقوم مقام الإضافة ، فلا تقدح فى الملاحظة التى أبديناها من لزوم « رب » للإضافة أو وصف يقوم مقامها . نقول : إنها لا تقدح ؛ لأن المراد بها « غير الله » أى ربا مغايراً لله ، وهى واقعة فى سياق الاستفهام الإنكارى ، فلا وجود لها فى الواقع .

* *

● **الإضافة إلى المتكلم المفرد :**

● **التمثيل : (م ب) :**

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . . ﴾ (١) .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ . . ﴾ (٤) .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى . . ﴾ (٥) .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٦) .

﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا . . ﴾ (٧) .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٨) .

﴿ قَالَ رَبِّ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (٩) .

---

(١) البقرة : ١٢٦ (٢) آل عمران : ٣٥ (٣) آل عمران : ٣٨
(٤) الأعراف : ١٥١ (٥) إبراهيم : ٤٠ (٦) يوسف : ١٠١
(٧) الأنبياء : ٨٩ (٨) المؤمنون : ٣٩ (٩) طه : ٨٤

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ .. ﴾ (١) .
﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (٢) .
﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴾ (٣) .
﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. ﴾ (٤) .
﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٥) .
﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) .

هذه المجموعة من الآيات ، تخطو بنا خطوات أخرى فى الكشف عن منهج القرآن فى استعمال كلمة « رب » بعد الذى كشفت عنه المجموعة الأولى .

والناظر فى هذه المجموعة بعناية يرى أن كلمة « رب » فيها :

* جاءت منادَى .

* مضافة إلى ياء المتكلم المفرد ذكرًا أو أنثى . والذكورة هى الغالبة .

* محذوف منها حرف النداء « يا » .

* محذوف منها « المضاف إليه » ياء المتكلم ، مدلولاً عليه بالكسرة .

* وأن موضعين من الآيات الخمس عشرة جاءا مصاحبين لحرف النداء « الياء » .

* وأن المعنى الذى استُعْمِلتْ فيه يغلب عليه « الدعاء » ويقل فيه غير الدعاء .

وبعض هذه السمات الأسلوبية فى حاجة إلى أن نفهم دواعيها البيانية :

* فحذف ياء النداء والمضاف إليه « ياء المتكلم » نرجح أنه للتيسير فى

---

(١) آل عمران : ٣٦ (٢) آل عمران : ٤٠ (٣) الحجر : ٣٩
(٤) النمل : ٤٤ (٥) الفرقان : ٣٠ (٦) الزخرف : ٨٨

الأداء. لأن توجيه الدعاء إلى « رب » كثير على ألسنة العباد، فناسب ذلك التيسير عليهم وهم يتضرعون إلى ربهم القريب منهم، والياء لمناداة البعيد.

والذى سوَّغ هذا الحذف - فوق ما تقدم - أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر.

وعلى هذا نقول - ونحن مطمئنون - إن من سمات منهج القرآن فى كلمة « رب » إذا وقعت منادى مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد - مذكرًا أو مؤنثاً - أن يحذف منها حرف النداء، والمضاف إليه مع الاجتزاء عنه بالكسرة.

● **ولماذا « يا رب » ؟ :**

ولكن هذه السمة الأسلوبية خولفت فى الآيتين الأخيرتين فى المجموعة:

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾.

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وكما كان حذف حرف النداء فى غيرهما بلاغة. فإن ذكره فيهما بلاغة كذلك.

فهاتان الآيتان حكايتان عن نبينا محمد ﷺ، فإنه هو القائل، ومحمد ﷺ معروف من بين جميع الرسل بحرصه الشديد على إيمان قومه. والله تعالى عاتبه على هذا الحرص مرات فى القرآن الكريم [1].

وضيقه من قومه لهجرهم القرآن، وهو لهم نور، وإعراضهم عن الإيمان، وهو لهم نجاة، هذا الضيق البالغ المدى جعل الرسول الكريم الرءوف الرحيم بقومه يجأر بالشكوى، ويطيل الصوت ولا يحذف منه شيئًا تنفيسًا لما فى صدره، وطمعًا فى استجابة ربه. فالذكر هنا، كالحذف هناك، كلاهما واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان. هذا، وقد لاحت لنا خاطرة حول ذكر أداة النداء فى هذين الموضعين، خلاصتها:

---

(١) كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

أن الداعى إلى ذكر الأداة مع « رب » المنادَى هنا - وليس لها ورود فى القرآن كله غير هاتين الآيتين - هاجس نفسى كان يحس به صاحب الدعوة ﷺ بأن هجر قومه للقرآن ، وإعراضهم عن الإيمان ، كان لقصور منه فى مجال التبليغ ، فرأى نفسه بعيداً عن الله لهذا القصور ، فلما دعاه ، دعاه دعاءَ الداعى البعيد عن مَدْعُوِّه ، لا دعاءَ المدْعُوِّ البعيد عن داعيه .

وليس هذا الشعور ببعيد عن الذين يخشون ربهم ، ورسولنا إمامهم فى مقام الخشية ورهافة الوجدان .

وقد امتدح القرآن هذا الفريق الممتاز من العباد ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وبعض العلماء قال ما يُشبه هذا المعنى فى شأن زكريا - عليه السلام - ولنا فيما قالوه قدوة (٢) .

* *

● المعانى المستعملة فيها :

المعانى التى استعملت فيها كلمة « رب » حتى الآن فى المجموعتين معًا ، يمكن تلخيصها فى الآتى :

* التمدح بآلاء الله وعظمة قدرته وبدائع خَلْقه ، وسعة سلطانه .

* استدرار فَضْله ، واستمطار سحائب كرمه ، وإنعامه .

* الثناء عليه بما منَّ وأنعم على عباده ، وفى مقدمتهم الرسل الكرام .

* اللياذ به واللجوء إليه لدفع الكرب ، وكشف الغمة .

* التقرب إليه : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا . . ﴾ .

* الاعتذار : ﴿ رَبِّ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِى ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ .

---

(١) المؤمنون : ٦٠

(٢) انظر مفردات الراغب : (٤٨٧) .

* الاستعظام والاستفسار : ﴿ أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ .. ﴾ .

* التوعد : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴾ .

* الاستعطاف : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾

* الشكوى : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

وغير خاف أننا لم نَسُق كل الشواهد على هذه المعاني وإنما مثلنا لها تمثيلاً يسيرًا ، لكثرة ما ورد منها ، فكلمة : « رب » هي ترنيمة* كل لسان ، وأنشودة كل مؤمن ، ومفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، حتى عدو الله - ابليس - يقولها صاغرًا ، وإن كان بقدسيتها كافرًا .

* *

● الإضافة إلى المخاطب المفرد :

● التمثيل : (م ج) :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ (١) .

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ﴾ (٤) .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .. ﴾ (٥) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. ﴾ (٦) .

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) البقرة : ١٤٧ (٣) آل عمران : ٤٣
(٤) المائدة : ٦٧ (٥) الأنعام : ٨٣ (٦) الأنعام : ١١٥
(٧) الأنعام : ١١٧

﴿ . . قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ . . ﴾ (١) .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٤) .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ (٥) .

سقنا هذه الآيات تمثيلاً لغرض واحد خاص بها ، وتأكيداً لما لاحظناه من قبل من أن كلمة « رب » فى القرآن - مراداً بها الله - لا تأتى إلا ملازمة للإضافة ، ما عدا موضعين تقدمًا ، جاءا مقطوعين عن الإضافة ، مع وصف لـ « رب » قائم مقام الإضافة كما تقدم .

هذا هو الغرض العام الذى أردنا تأكيده بهذه المجموعة (جـ) من الآيات الحكيمات .

أما الغرض الخاص بهذه المجموعة ، فهو لزوم الإضافة إلى « الكاف » ضمير المخاطب المفرد المذكر فى (١١ آية) والمؤنث فى آية واحدة (٦) ، وإذا دققت النظر وجدت كلمة « رب » فى هذه المجموعة قد تواردت عليها جميع حركات الإعراب الجارية على المفرد :

الرفع بالضمة ، والنصب بالفتحة ، والجر بالكسرة ، وأن أسباب هذه الحركات الإعرابية مختلفة كذلك :

فالرفع : جاء على الفاعلية والابتدائية وأسماء النواسخ .

---

(١) الأعراف : ١٣٤ (٢) هود : ١١٧ (٣) الحجر : ٩٢

(٤) الإسراء : ١٧ (٥) الإسراء : ٥٥

(٦) هى الآية التى خوطبت فيها مريم - رضى الله عنها ، وهى الآية رقم (٤٣) من آل عمران .

والنصب : جاء على أسماء النواسخ - كذلك ، ثم على المفعولية .
والجر : جاء بعد حرف الجر ، وبأداة القسم « الواو » وبالإضافة . عُدْ إلى قراءة الآيات يتبين لك بوضوح واقعية ما لا حظناه .

* ومن الملاحظات اللافتة للنظر فى آيات هذه المجموعة أن « كاف الخطاب » فى « ربك » مهما كان موضعه من الإعراب ، إنما هو كناية عن صاحب الدعوة ﷺ .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ . ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، ﴿ .. بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . وهكذا .. وهكذا ، إلا فى موضعين أحدهما خطاب لموسى - عليه السلام - على سبيل الحكاية : ﴿ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، والثانى خطاب لمريم على الحكاية كذلك : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ ، وهذا النسق جار فى الآيات التى لم نذكرها مما أضيفت فيه « رب » إلى خطاب المفرد ، إن هذا الخطاب الخاص بنبينا ﷺ ، يكاد يشمل كل ما جاء فى القرآن ، ولا عجب ؛ لأن القرآن الحكيم عليه نزل ، فهو خطاب له قبل أن يكون خطابًا للخلق أجمعين ، وهذا مما سنسجله فى منهج القرآن فى كلمة « رب » بإذن الله [(١)] .

* *

● **الإضافة إلى المخاطب المثنى :**

● **التمثيل : (م د) :**

﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [(٢)] .

---

(١) أما فى إضافة « رب » إلى ياء المتكلم فقد كثر مجيئها مع غير نبينا ﷺ ، لغلبة الحكاية فيها .

(٢) الأعراف : ٢٠

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾[1] ؟ .

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[3] .

* هذه أربع آيات جاءت فيها كلمة « رب » مضافة إلى ضمير المثنى المخاطب « ربكما » ، وفى سورة الرحمن تسعة وعشرون آية غير الآيتين اللتين ذكرناهما من السورة . تسعة وعشرون آية أخرى ذكرت فيها « ربكما » مضافة إلى ضمير المثنى المخاطب ، لم نذكرها خشية الإطالة ، واكتفينا بذكر أول آية وآخر آية فيها وردت فيها « رَبكما » .

* والمثنى الذى أضيفت إليه « رب » فى هذه الآيات جميعاً ، ما ذكرناه وما لم نذكره . هذا المثنى نوعان :

الأول : مثنى فى اللفظ والمعنى ، وهو ما عدا آيات سورة الرحمن ؛ لأن المراد فيها :

آدم وحواء - موسى وهارون .

الثانى : مثنى لفظاً ، وهو من حيث المعنى جمع ضخم يشمل أفراد الإنس والجن كيفما ومتى وجدوا .

وقد جاءت الآية ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ « فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ، تعقيباً على معان وآيات كونية وخَلْقِيَّة حلقت بها السورة فى أرجاء الكون كله سماء وأرضاً ، وما بين السماء والأرض .

واستأثرت كلمة « رب » بالمواضع كلها دون غيرها من أسماء الله وصفاته الحسنى ؛ لأن فى « رب » من الدقائق التى تناسب المقام ما ليس فى غيرها

(1) طه : ٤٩ (2) الرحمن : ١٢ ، ١٣ (3) الرحمن : ٧٦ ، ٧٧

من الأسماء والصفات الحسنى . فمن كلمة « رب » تشع معانى التربية والإنعام والتدبير والرعاية ، والمقام فى « الرحمن » مقام تذكير وامتنان ، وفى كلمة « رب » من روح التودد والتلطف وإلانة الخطاب ما جعلها « ربة » الموقف فى هذا المقام العطوف الودود .

وقد جاء « رب » فى غير « الرحمن » مرفوعاً على الفاعلية مرة ، وعلى الخبرية مرة واحدة .

أما فى « الرحمن » فقد لزم الجر بالإضافة فى الإحدى والثلاثين مرة .

وما زلنا نذكر بما سبق ملاحظته من لزوم كلمة « رب » فى القرآن للإضافة . هذه ملاحظة عامة .

أما الخاصة فهى مجىء « رب » مضافًا إلى المخاطب المثنى على النحو الذى تقدم .

* *

● **الإضافة إلى المخاطب الجمع :**

● **التمثيل : (م هـ) :**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ .. ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴾ (٢) .

﴿ فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .. ﴾ (٣) .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾ (٤) .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ .. ﴾ (٥) .

﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢١ — (٢) النساء : ١ — (٣) الأنعام : ٥٤

(٤) غافر : ٦٠ — (٥) الأنعام : ١٠٢ — (٦) يونس : ٣٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . ﴾ (٢) .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ . . ﴾ (٣) .

﴿ . . يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

تشترك هذه المجموعة من الآيات في سمة واحدة مما نحن بصدده ، وهي إضافة « رب » إلى ضمير المخاطبين الجمع « كُمْ » وهي صورة من عدة صور جاءت عليها إضافة « رب » في القرآن .

ويغلب على ضمير المخاطبين - فيها العموم ، أي جميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ؛ لأن الحقائق التي تثبتها الآيات حقائق عامة مثل :

الخلق - الربوبية . وفي بعض المواضع أريد الخصوص دون العموم كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لأن الله لا يستجيب دعاء الكافرين .

وكقول موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل .

﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ ؟ .

ومما يلاحظ أن آية « الأنعام : ١٠٢ » وآية « يونس : ٣٢ » جُمع فيها بين « الله » و« رب » فقد جاءت « رب » صفة لـ « الله » أو خبرًا ثانيًا لـ « ذلكم » .

وسر الجمع بينهما - فيما نرى - أن كُلا من الآيتين اللتين جُمعَ فيهما بين « الله » و« رب » وردتا تأكيدًا لعقيدة التوحيد بعد منازعة فيها أشير إليها فيما تقدم الآيتين :

ففي الأنعام أشير إلى ضلال اليهود والنصارى بادعائهم ولدًا لله سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ

---

(١) يونس : ٥٧ (٢) الأعراف : ٣

(٣) الأعراف : ١٥٠ (٤) الرعد : ٢

عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ● بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ● ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ . . ﴾ (1) .

وفى يونس :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ● فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ . . ﴾ (2) .

فجاء الخطاب مفخَّمًا بالتأكيدات واسم الإشارة « ذلك » الدال على علو الرتبة فى مواجهة ما ادعوه من نقائض التوحيد ، وأفاد الجمع بينهما أمرين :

الأول : الهيمنة الإلهية على جميع المخلوقات « الله » .

الثانى : الرعاية والتدبير « ربكم » .

أما من حيث حركات الإعراب ، فقد حرصنا على التمثيل لها جميعاً : الرفع ، النصب ، الجر ، مع اختلاف أسبابها كما يبدو من النظر فى الآيات.

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب المفرد :

● التمثيل : (م و) :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . ﴾ (3) .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . ﴾ (4) .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ . . ﴾ (5) .

---

(1) الأنعام : ١٠٠ - ١٠٢ (2) يونس : ٣١ ، ٣٢
(3) آل عمران : ٣٧ (4) البقرة : ١٢٤ (5) البقرة : ١٣١

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا .. ﴾ (1) .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ﴾ (2) .

﴿ .. فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ (3) .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴾ (4) .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (5) .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ﴾ (6) .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. ﴾ (7) .

﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (8) .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ (9) .

وتمثل هذه الآيات صورة أخرى لإضافة كلمة « رب » فى القرآن :

فقد أضيفت من قبل إلى الأسماء الظاهرة ، ثم إلى الضمائر على اختلافها .

وهنا تضاف كلمة « رب » إلى ضمير الغائب المفرد - مذكرًا ومؤنثًا - مع غلبة الإضافة - بالطبع - إلى ضمير المذكر ، وإضافة « رب » إلى كل من الظاهر والمضمر لها دلالات بلاغية إعجازية عميقة ، ندخر الحديث عنها الآن إلى ما بعد الفراغ من التمثيل لصور الإضافة كلها .

وغير خاف أن الإضافة فى المجموعة (و) شملت كلمة « رب » فى حالات :

---

(1) الأعراف : 143 (2) هود : 45 (3) البقرة : 282

(4) طه : 74 (5) الأنبياء : 83 (6) الأعراف : 58

(7) طه : 127 (8) الفرقان : 55 (9) النبأ : 39

الرفع ، والنصب ، والجر ، على أن ما ذكرناه إنما هو مجرد تمثيل لهذه السمات الأسلوبية لا استقصاء لها .

وغير خاف - كذلك - أن هذه انتظمها الأسلوب الخبرى (الحكاية) إلا آية واحدة جاءت على الأسلوب الإنشائى التشريعى :

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ . . ﴾ .

وقد جمعت هذه الآية بين « الله » و « رب » ، ولهذا الجمع - فيما نرى - داعٍ بلاغى غير الداعى الذى جمع بينهما فى الآيتين السابقتين فى المجموعة (هـ) وخلاصته :

أن المقام مقام تشريع وارد لحفظ الحقوق المالية فى معاملات الناس ، والتشريع - عمومًا - تجب رعايته والامتثال له .

وعنصر الترهيب والترغيب هما الوسيلتان اللتان تكفلان حماية التشريع من الإهمال ، وتحملان المكلف على إنفاذه ؛ لذلك - والله أعلم - جُمع فى الآية بين الاسمين الكريمين :

الله ، ورب ، فـ « الله » هو عنوان الرهبة ، و« رب » هو عنوان الرغبة ، هذا هو الداعى البلاغى للجمع هنا ، فيما هُدينا إليه ، وإنَّا له لمطمئنون .

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب المثنى :

● التمثيل : (م ز) :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ . . ﴾ ؟ [1] .

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [2] .

---

(١) الأعراف : ٢٢ (٢) الأعراف : ١٨٩

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (١) .

ليس فى القرآن كلمة « رب » مضافة إلى ضمير الغائب المثنى إلا هذه الآيات الثلاث :

الأولى والثالثة جاءت فيهما « ربهما » مرفوعًا على الفاعلية ، وفى الثانية جاءت منصوبة على « الوصفية » .

واللافت للنظر أن الآية الثانية جمعت بين « الله » ، و« رب » بينما أفردت الأولى والثالثة كلمة « رب » فهل لهذا من تفسير مقبول ؟ .

إننا نعود إلى ما سبق قوله عن آيتى الأنعام ويونس اللتين جُمع فيهما بين « الله » ، و« رب » من أن ذلك الجمع كان سببه - فيما رأينا - المنازعة فى عقيدة التوحيد . هذا الذى قلناه من قبل هناك نقوله - هنا - ؛ لأن المقام - هنا - جاء فيه صراحة ما يناقض عقيدة التوحيد ، وهذا فى الآية التالية للآية المذكورة :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِي مَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

كل ما فى الأمر أن المنازعة هنا مؤخرة عن آية الجمع ، وهناك مقدمة ، لكن المقام واحد فى الآيات الثلاث .

* *

● الإضافة إلى ضمير الغائب الجمع :

● التمثيل : (م ح) :

﴿ . . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم . . ﴾ (٣) .

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) الكهف : ٨١ — (٢) الأعراف : ١٩٠

(٣) آل عمران : ١٩٥ — (٤) التوبة : ٢١

﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .
﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (٢) .
﴿ لكن الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ .. ﴾ (٣) .
﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ .. ﴾ (٤) .
﴿ ألا إنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، ألا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٥) .
﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) .
﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٧) .
﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٨) .
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. ﴾ (٩) .
﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠) .

وهذه الآيات تمثّل ضربًا من ضروب إضافة « رب » إلى الضمائر ، وهي - جميعاً - جاءت فيها كلمة « رب » مضافة إلى ضمير الغائبين الجمع « هُمْ - همْ » سواء كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وعوامل الإعراب فيها مختلفة كما ترى ، والضمير المضافة هي إليه عائد على نوعى العباد : الصالحين والطالحين . المؤمنين والكافرين . فهو - سبحانه - رب كل شيء . واللافت للنظر - هنا - خلو القرآن من إضافة « رب » إلى ضمير الإناث « نون النسوة » كما خلا من قبل . وسنعود لهذا فيما بعد بإذن الله .

* *

● الإضافة إلى ضمير المتكلم المفرد فى غير النداء :

● التمثيل : (م ط) :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ .. ﴾ (١١) .

---

(١) إبراهيم : ١٣ — (٢) الشمس : ١٤ — (٣) آل عمران : ١٩٨
(٤) الأنعام : ٥٢ — (٥) هود : ٦٠ — (٦) النحل : ٥٠
(٧) الكهف : ١٣ — (٨) الشورى : ٢٢ — (٩) السجدة : ١٢
(١٠) الأنبياء : ٤٢ — (١١) البقرة : ٢٥٨

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ . . ﴾ (١) .

﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ . . ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ . . ﴾ (٥) .

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (٦) .

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (٧) .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨) .

﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٩) .

أضيفت كلمة « رب » فى هذه الآيات إلى ضمير المتكلم المفرد « الياء » مرفوعة ومنصوبة ومجرورة .

وفى أكثر هذه الآيات - وكذلك ما لم نذكره - استقلت « رب » بالدلالة ، مثل :

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا . . ﴾ .

وفى بعضها جُمع بينها وبين الله تعالى مع تقديم اسم الجلالة وتأخير « رب » وذلك فى آيتى الشورى والزخرف .

وسبب هذا الجمع كما قلنا من قبل هو تفخيم الخبر لإزالة المنازعة فى عقيدة التوحيد .

---

(١) المائدة : ٧٢ (٢) الأنعام : ١٥ (٣) الأنعام : ٨٠

(٤) الأعراف: ٣٣ (٥) يوسف : ١٠٠ (٦) الكهف : ٣٦

(٧) الإسراء : ٨٥ (٨) الشورى : ١٠ (٩) الزخرف : ٦٤

ففى الشورى سُبِقَتْ الآية المذكورة بقوله تعالى ناعياً الإشراك به :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ . . ﴾ [1] .

وفى الزخرف ، سبق الآية المذكورة هذه (رقم ٦٤) حديث طويل عن ادعاء فرعون الالوهية ، ثم مناظرة مشركى العرب بين آلهتهم وعيسى - عليه السلام - ، ثم التحذير من كيد الشيطان ، وتزيينه الكفر بالله ثم جاءت آيتنا هذه محكية على لسان عيسى - عليه السلام - مبطلاً عقائد الشرك والوثنية ، ولاهجًا بكلمة التوحيد :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ . . ﴾

وقد حفلت هذه العبارة بعناصر التوكيد :

إن - اسمية الجملة - ضمير الفصل - وإفراد الله بالعبادة ، ومن قبل ظهر تفخيم الخبر فى آية الشورى :

اسم الإشارة : « ذلك » للدلالة على علو رتبة الخالق ، واسمية الجملة ، وقصر التوكل عليه ، وقصر الإنابة إليه .

وفى الجمع بين « الله » و« رب » معنى آخر أراه جديرًا بأن نشير إليه هنا .

فقد علمنا من قبل أن « الله » هو عنوان القوة والقهر وسعة السلطان ، وأن « رب » توحى بمعانى التفضل على العباد ، والتدبير ، والرعاية .

وقد وُجِدَ من الناس بعد نزول القرآن من يؤمن بالله خالقًا ولا يؤمن به مصرِّفًا أحوال الخلق « مُدَبِّرًا » فقد رفع الله يده عن الكون بعد أن خلقه عند هؤلاء الحمقى .

هكذا شاع عند بعض الفلاسفة . وبخاصة فى أروبا خلال ما يسمى بـ « عصر النهضة » .

---

(١) الشورى : ٩

ونرى أن في الجمع بين « الله » ، و« رب » تنبيهًا سبق أوانه على ضلال هذا المعتقد الذى أشرنا إليه ، فالله الذى خلق الكون وما فيه ، هو المالك زمام الأمر في كل صغيرة وكبيرة تقع فى الكون .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وهكذا نجد فى لغة القرآن دلالات متنوعة بتنوع الأساليب .

* *

● **الإضافة إلى ضمير المتكلم الجمع :**

● **التمثيل : (م ى) :**

﴿ .. رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ .. ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .. ﴾ (٣) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ .. ﴾ (٤) .

﴿ .. يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٦) .

﴿ .. إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ (٧) .

﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) الرعد : ٢ — (٢) البقرة : ٢٨٦ — (٣) آل عمران : ٨
(٤) آل عمران : ٩ — (٥) المائدة : ٨٣ — (٦) المائدة : ٨٤
(٧) الكهف : ١٤ — (٨) الأنبياء : ١١٢

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقا.. ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .. ﴾ (٢) .

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (٥) .

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أن نَعُودَ فِيهَا إِلا أن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا .. ﴾ (٧) .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. ﴾ (٨) .

بذكر هذه الآيات تكتمل صور إضافة « رب » فى القرآن الكريم وهى - جميعًا - تمثل سمة أسلوبية واحدة ، وهى إضافة كلمة « رب » إلى ضمير جماعة المتكلمين « نا » وجريًا على المنهج الذى اختططناه فى هذه الدراسة ، فقد مثلنا فى هذه المجموعة (ى) لكل حالات الإعراب مع اختلاف الأسباب المختلفة للإعراب :

الرفع ، والنصب ، والجر .

وقبل أن نلخص منهج القرآن فى كلمة « رب » فى جميع صورها نقف وقفة قصيرة مع هذه المجموعة ، نستكشف ما عساه أن يكون واردًا فيها :

---

(١) الأعراف : ٤٤ — (٢) البقرة : ١٣٩ — (٣) الأنعام : ٢٣

(٤) الأعراف : ٤٣ — (٥) الإسراء : ١٠٨ — (٦) الشعراء : ٥٠

(٧) الأعراف : ٨٩ — (٨) آل عمران : ٧

* إن كلمة « ربَّنا » مضافة فى حالة النصب إلى ضمير المتكلمين « الجمع » تلى فى الكثرة « ربّنا » المجرورة ، كما أنها تختص بمواضع النداء .

وفى هذه الحالة أُطِّردَ معها حذف أداة النداء « يا » ولم تذكر قط .

وهذا ما لحظناه من قبل مع كلمة « ربِّ » فى جميع المواضع التى وردت فيها منادًى مضافًا إلى « ياء » المتكلم » ما عدا موضعين ذكرت فيهما ، وقدْ مرَّ الحديث عنهما فيما قبل .

فـ « ربَّنا » منادى تشترك مع « ربِّ » المنادى المضاف إلى ضمير المتكلم ، تشترك معها فى حذف أداة النداء تيسيرًا وتخفيفًا على الداعين ، لكثرة حاجة «الخلق » إلى دعاء الخالق . أما من حيث الضمير المضاف إليه ، وهما :

ياء المتكلم المفرد مذكرًا ومؤنثًا .

و« ناء » الجماعة المتكلمين ذكورًا وإناثًا ، أو ذكورًا فقط ، وإناثًا فقط ، فلا يمكن حذفها ، ولا جرت لغة العرب هذا المجرى فى غير القرآن ، أى أن فى « ربِّ » حذفين ، وفى « ربَّنا » حذفًا واحدًا ، وهى مع عدم الحذف فيها من الخفة والسهولة فى النطق ما فى « ربِّ » بحذف الياء .

و لم ترد كلمة « رب » مضافة إلى « نون النسوة » لا مخاطبًا ولا غائبًا .

فليس فى القرآن « ربكُّن » ولا « ربهن » لا رَفْعًا ولا نصبًا ولا جرًا .

وليس معنى هذا أن خطاب النسوة أو الحديث عنهن بـ « رب » مهملاً فى القرآن ، كلا . وإنما هن داخلات فى خطاب الذكور أو الحديث عنهم فى الأمور العامة بين الرجال والإناث .

فقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) الحج : ١

ليس خطاباً خاصًا بالرجال ، بل الكاف فى قوله : « ربكم » خطاب للرجال والنساء معًا ؛ لأن اتِّقاء الله مطلوب من الجميع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ (١) .

ليس حديثًا عن الرجال فحسب - بل هو حديث يشمل الرجال والنساء ، وكون الضمير المذكر فى الموضعين : « ربكم - ربهم » شاملاً للرجال والنساء، أو الذكور والإناث معًا . فإن البلاغة تسمى هذا « الدَّمج » تغليباً ؛ أى تغليب جانب الذكورة على جانب الأنوثة ، وهو أسلوب بليغ وشائع فى كلام العرب ، وفى آيات الكتاب العزيز .

ولماذا الذكورة ؟

وقد يقول قائل : ولِمَ لَمْ يُغلَّب جانب الأنوثة على الذكورة ؟ أليس فى هذا هضم للإناث ؟ .

وجوابنا على هذا التساؤل :

أن تغليب جانب الإناث على جانب الذكورة لم تجربه اللغة العربية قبل نزول القرآن ، بل الذى ورد فيها تغليب جانب الذكورة على الأنوثة خطابًا وغيبة ، وذلك فى المواضع التى يستوى فيها الجانبان فى الغرض المسوق له الكلام .

فإذا كان المقام خاصًا بالنساء جيئ بنون النسوة حينئذ خطابًا وغيبة .

* *

● ففى الذكر الحكيم :

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ . . ﴾ (٢) .

فـ « نون النسوة » لحقت بالكلمات الثلاث فى الآية الحكيمة ، لأن الأمر يخص النساء .

---

(١) العاديات : ١١   (٢) الأحزاب : ٣٣

فنون النسوة له دلالة خاصة لا يدخل فيها الرجال بحال من الأحوال والأصل فى خطاب الناس عامة ، أو الحديث عنهم ، أن يساق الحديث ، أو يجرى الخطاب مجرى التذكير دون التأنيث ، والقرائن هى التى تعين المراد .

ومرة أخرى : فإن قوله تعالى :

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ وَقَدْ تقدم الاستشهاد به . هذا القول وإن سيق مساق التذكير فإن المعنى شامل للذكور والإناث ؛ لأن الله رب الجميع . والنساء - كما يقول الأصوليون - شقائق الرجال إلا ما خص »[1] .

فليست المسألة مسألة محاباة لفريق وهضم لفريق آخر ، بل مسألة بيان لغوى له طرائقه فى الإفصاح والتعبير .

* *

● لماذا الإضافة :

* وردت كلمة « رب » فى القرآن تسعمائة مرة وخمسا وثمانين مرة .

وفى كل هذه المرات وردت مضافة إلى الظاهر وإلى الضمائر المختلفة على الأنساق التى مرَّ عرضها مفصَّلاً ، إلا فى موضعين جاءت فيهما مقطوعة عن الإضافة ، مع اتباعها بوصف يقوم مقام الإضافة كما تقدم .

وأكثر ما أضيفت إليه هو « الضمائر » باختلاف أنواعها : التكلم والخطاب والغيبة .

* وبكل ثقة واطمئنان نستطيع أن نقول إن إضافتها شملت جميع الضمائر إلا « نون النسوة » لم تأت مضافة إليه قط ، وقد عالجنا هذه المسألة بما فيه الكفاية من قبل .

● أما إضافتها إلى الأسماء الظاهرة ، فقد جاءت على ضربين :

---

(١) أى ما خص نوعًا منهما فيبقى على خصوصه . وما يقوله الأصوليون - هنا - أصله حديث شريف .

الأول : إضافتها إلى أسماء ظاهرة خاصة الدلالة ، مثل السموات والأرض ، والعرش ، والشعرى ، والناس ، والفلق ، والمشرق ، والمغرب .. إلخ .

الثانى : إضافتها إلى اسم يشمل كل المخلوقات « رب كل شىء » ، وهذه العبارة من جوامع الكلم القرآنية ، حيث حَوَت على قصرها كل ما تفرق من الأسماء الظاهرة والضمائر معًا فى المرات التى ذكرناها آنفًا . وهذا أشبه ما يكون بما يسميه البلاغيون بـ « الجمع بعد التفريق » ؛ لأن « كل شىء » جَمع كل ما تفرق فى المرات الأربع والثمانين والتسعمائة .

وعلى هذا تكون الإضافة فى كلمة « رب » قد أسندت إلى الله كل المخلوقات ، لا يند منها مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا فى ما بين الأرض والسماء .

هذا الذى قدمناه - هنا - جزء من الإجابة على السؤال الذى صدرنا به هذه السطور ، والذى كان : **ولماذا الإضافة ؟**

ومُضيا مع استكمال الإجابة نقول :

إن إضافة « رب » فى البيان القرآنى المعجز تؤدى - فوق ما تقدم - مهمة جليلة الشأن فى مجال الدعوة ، وإذا كان البلاغيون يقولون : إن الكناية أبلغ من التصريح لاقتران الدعوى فيها بالدليل ، فإننا إذا استعرنا قول البلاغيين فى الكناية إلى كلمة « رب » أصبنا عين الصواب .

تأمل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [1] .

انظر إلى لطافة المعنى فى إضافة « رب » إلى ضمير المخاطب ، فإن فى هذه الإضافة تذكيرًا للمخاطب بجلائل النعم التى تفيض من « الربوبية » على

---

(١) الانفطار : ٦

« المربوب » والرعاية التى تحيط به من كل جانب وحسن التدبير ، ومن كان هذا شأنه فمن سوء السلوك أن تُجْحدَ نعمه ، ويُكفر إحسانه .

ويظهر الفرق جليًا إذا نَظَّرْنا العبارة القرآنية بقولنا :

« مَا غَرَّكَ بِالله » مثلاً . فجو التذكير بالإنعام والإحسان فى « بربك » يشع من جهة العقل ، ومن جهة اللفظ معًا . أما فى عبارتنا نحن « بالله » فإن التذكير يشع من جهة العقل وحده . لأن اسم الجلالة لا يمكن إضافته إلى المخاطب ، فبقيت الدلالة فيه عقلية صرفة .

أما « بربك » فإن الإضافة تفيد ذلك المعنى من جهة العقل واللفظ معًا للنصِّ الظاهر على صلة « رب » بالمخاطب ، وصلة المخاطب بـ « رب » .

لهذا قلنا إن الإضافة إلى الظاهر أو إلى الضمير فى كلمة « رب » تقترن فيها الدعوى بدليلها كالكناية .

ويتجلى هذا المعنى بكل قوة حين تضاف كلمة « رب » إلى ضمائر المكلفين لترقيق الكلام مع « المؤمنين » فيسارعون إلى الامتثال والطاعة .

فإذا كان الحديث مع غير المؤمنين كان فيه من إقامة الحجة عليهم ما لا يخفى على ذى بصيرة .

وهذه المعانى اللطيفة لا يخلو منها موضع من مواضع إضافة « رب » إلى ما تضاف إليه وفى كل مقام سيق من أجله الكلام .

وخذ إليك - مثلاً آخر - نداء نوح ربه فى لحظة من لحظات الشدة البالغة ، والألم الموجع ، لحظة أدرك نوح أن ابنه يتعرض للغرق والهلاك من الطوفان الجارف والخطب المدلهم :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى . . ﴾ .

فقد ناداه بـ « ربِّ » ؛ لأنه يطمع فى الإحسان إليه بإنجاء ابنه من الهلاك المحقق . ولكأنه يقول له : أنت ولى الإحسان والإنعام فأحسن على وأنعم ونجِّ ابنى مما ينتظره من الضياع .

ولهذه المعانى كثر الدعاء بـ « رب » دون غيره من الأسماء والصفات الحسنى لما فى هذه الكلمة « رب » من خاصية إلهية لا توجد فى سواه بالقدر الذى يوجد فيها .

من أجل هذا – وغيره – لزمت كلمة « رب » الإضافة « فى هذا البيان المعجز الحكيم .

* وبعد ما تقدم ، نستطيع أن نقول فى كل ثقة واطمئنان ، أن كلمة « رب » مرادًا بها الله ، لم تأت فى القرآن إلا معرفة – ما عدا الموضعين اللذين قام فيهما الوصف المخصص مقام الإضافة – وأن أداة التعريف فيها الإضافة وحدها ، فلم تأت معرفة بـ « أل » قط ؛ لأنه لو جاءت معرفة بـ « أل » لامتنعت الإضافة فيها . ولو امتنعت الإضافة فيها ترتب على ذلك أمران خطيران :

الأول : ذهاب تلك المعانى اللطيفة التى تشع من إضافة « رب » إلى كل ما أضيفت إليه من أسماء ظاهرة أو ضمائر ، ولانطفئت تسعمائة وخمس وثمانون « شعلة » مضيئة فى التنزيل الحكيم .

الثانى : تعطيل الاسم الكريم « رب » عما يعلّق به من آلاء الله ومربوباته التى يتكون منها « كونه العظيم الصنع » لأن كلمة « الرب » هكذا تبدو مجرد اسم لا يعلق به شىء ، ولا يعلق هو بشىء .

وأين تكون كلمة « الرب » إذا قارنّاها بقوله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (١) .

وهجر القرآن لتعريف « رب » بالألف واللام « الرب » دليل قاطع على « جفاف » هذا التعريف ، وبعده عن روح التنزيل الحكيم ، ومراميه البيانية المعجزة .

---

(١) سورة ص : ٦٦

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

* *

● **منهج القرآن فى « رب » :**

أولاً : كثرة استعماله لها بما يقارب الألف مرة .

ثانيًا : إطراد إضافتها فى كل المواضع ما عدا موضعين وُصِفَا وَصْفًا يقوم مقام تلك الإضافة المطردة .

ثالثًا : شملت الإضافة فيها جميع الضمائر إلا « نون النسوة » خطاباً وغيبة .

رابعًا : فى مواضع منها جُمِعَ بينها وبين اسم الجلالة « الله » لدواعٍ بلاغية أشرنا إليها فى مواضعها من هذه الدراسة .

خامسًا : أدت إضافتها سواء إلى الأسماء الظاهرة أو الضمائر معانى وأغراضًا بيانية لها شأن عظيم فى حقل الدعوة .

سادسًا : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد ، أو « نا » الجماعة أكثره ورد فى مقام الدعاء والتضرع لجلب منفعة ، أو دفع مضرة ، أو شكر وعرفان .

سابعًا : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد « ى » إن كان فى غير مقام « النداء » بقى المضاف إليه دائمًا « ربى » ، وإذا كان فى مقام « النداء » التُزِم فيه حذفان :

(أ) حذف المضاف إليه دائمًا .

---

(١) الشورى : ٥٢

(ب) حذف أداة النداء « يا » إلا فى موضعين ذُكرت فيهما أداة النداء لداعٍ بلاغى اقتضى ذلك الذكر .

ثامنًا : أكثر مواضع المضاف إلى « كاف » الخطاب المفرد كان الخطاب فيه موجهًا إلى خاتم الرسل ﷺ ؛ لأن القرآن عليه نزل .

تاسعًا : وردت « رب » فى لغة القرآن معرفة بالإضافة إلا فى موضعين خصصا بالوصف القائم مقام الإضافة ، ولم تأت معرفة بالألف واللام «الرب» قط ؛ لأن فى تعريفها بالألف واللام تعطيلاً لوظائفها البيانية المعجزة، وإضاعة لمعانيها اللطيفة التى لها شأن ، وأى شأن ، فى البلاغ الإلهى للناس أجمعين .

عاشرًا : إن استعمال كلمة « رب » فى القرآن على الأنساق التى أبنَّاها ما ظهر لنا منها هو ركيزة عظيمة فى صرح الإعجاز البيانى اللغوى ، ودليل « عملى تطبيقى » على أن القرآن إنما أُنزِل بعلم الله .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ ، إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) هود : ١٣ ، ١٤

النُّورُ وَالكتب السماوية

أرسل الله رسلاً لهداية العباد ، لا يعلم عددهم إلا هو ، ذلك لأن القرآن أعلمنا فى خطاب رسوله أنه قص عليه بعضًا من الرسل ، ولم يقصص عليه بعضًا آخر منهم ، والرسل المعروفون بأسمائهم خمسة وعشرون رسولاً ، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم فى سورة « الأنعام » فى آية : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ .. ﴾ والآيات التى جاءت بعدها .. والمعروف من الكتب السماوية - الآن - التوراة والزبور وصحف إبراهيم ، والإنجيل ، ثم القرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ .

فصحف إبراهيم ، وزبور داود - عليهما السلام - لم يفصل القرآن القول فيهما ، وإنما حكى قصة إبراهيم عدة مرات ، وكذلك نُبذًا موجزة عن داوود.

أما التوراة والإنجيل ، فقد نوَّه القرآن بفضلهما كثيرًا ، ولكن على الصفة التى أنزلهما الله عليها ، لا كما هما الآن فى أيدى اليهود والنصارى .

ولما كانت هذه الكتب الثلاثة :

التوراة والإنجيل والقرآن ، نازلة لهداية الناس إلى صراط الله المستقيم ، وإلى العمل الصالح الحميد العقبى فى الدنيا والآخرة . لما كانت هذه الكتب بهذه الصفة ، وصفها الله فى كتابه العزيز بالنور الذى يبدِّد الظلام ، ويهدى إلى سبيل الرشاد .

ووصف الكتب الثلاثة بـ « النور » لم يأت على وتيرة واحدة ، بل نجد تفاوتًا بينها فى هذا الوصف ، تفاوتًا نلحظه من جهتين لا من جهة واحدة :

* من جهة « الكم » أو عدد المرات .

* ومن جهة « الكيف » أو الصياغة الأسلوبية ، وهذا يتضح لنا بيقين من التمثيل الآتى :

﴿ إنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . . ﴾ (١) .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ (٢) .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤) .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (٧) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا

---

(١) المائدة : ٤٤ — (٢) الأنعام : ٩١ — (٣) المائدة : ٤٦

(٤) المائدة : ١٥ — (٥) الأعراف : ١٥٧ — (٦) التغابن : ٨

(٧) النساء : ١٧٤

الإيمَانُ ، ولَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [1] .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [2] .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [3] .

الكتب السماوية التى وُصِفَتْ [4] بـ « النور » وبعض مشتقاته فى الآيات المذكورة ، أربعة أنواع تفصيلاً ، ونوعان إجمالاً ، فهى إما كتب مسماة باسمها ، وهى على ترتيب النزول :

١ – التوراة . ٢ – الإنجيل . ٣ – القرآن .

وإما غير مسماة ، وهي المذكورة – إجمالاً – فى آيتى آل عمران وفاطر :

(الْكِتَابِ الْمُنِيرِ) ، فهو – وإن كان مفرداً – المراد به ما أنزله الله على رسله قبل القرآن ، وتدخل فيها التوراة ، والإنجيل وصحف إبراهيم .

* *

● **التفاوت من حيث « الكم » :**

لم يجر وصف الكتب السماوية المذكورة بـ « النور » على وتيرة واحدة من حيث الكم :

فالتوراة وصفت بالنور مرتين :

فى الآية (٩١) من سورة « الأنعام » وفى الآية (٤٤) من سورة « المائدة » .

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) آل عمران : ١٨٤ (٣) فاطر : ٢٥

(٤) ليس المراد بالوصف –هنا – « النعت » النحوى ، بل نسبة النور إلى الكتاب على أى نحو كان .

والإنجيل وُصِف بالنور مرة واحدة فى الآية (٤٦) من سورة « المائدة » .

أما الكتب المذكورة إجمالاً فى الآية (١٨٤) من سورة « آل عمران » ، والآية (٢٥) من سورة « فاطر » فقد وصفت بالنور مرتين فى الآيتين المشار إليهما .

أما القرآن الكريم فقد وصف بالنور خمس مرات :

فى الآية (١٥) من سورة : « المائدة » .

والآية (١٥٧) من سورة : « الأعراف » .

والآية (٢٥) من سورة : « فاطر » .

وفى الآية (٥٢) من سورة : « الشورى » .

وفى الآية (٨) من سورة : « التغابن » .

هذا هو التفاوت من حيث « الكم » حيث احتل القرآن المرتبة الأولى .

والتوراة المرتبة الثانية ، ومثلها الكتب المشار إليها إجمالاً ، أما الإنجيل فقد كان فى المرتبة الثالثة (الأخيرة) .

* *

● **التفاوت من حيث « الكيف » :**

أما التفاوت من حيث « الكيف » ونعنى به : كيفية الصياغة الأسلوبية فى نسبة « النور » إلى الكتاب ، فنلاحظ فى غير القرآن أن الصياغة كانت هكذا :

﴿ فِيهَا هُدًى وَنُور ﴾ - ﴿ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ بالنسبة للتوراة .

و﴿ فيه هُدًى ونورٌ ﴾ بالنسبة للإنجيل .

و﴿ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴾ بالنسبة للكتب التى أشير إليها إجمالاً .

أما بالنسبة للقرآن الحكيم فقد كانت الصياغة هكذا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ . . ﴾ .

﴿ النُّورُ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ . . ﴾ أى مع محمد ﷺ .

﴿ . . وأنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِينًا . . ﴾

﴿ . . وَالنُّورُ الَّذِي أَنزَلْنَا . . ﴾

﴿ . . جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

* *

● **الفروق بين الصياغات البيانية :**

فى غير القرآن جرى الوصف بـ « النور » على موصوف ، فكان الموصوف شيئًا ، والوصف شيئًا آخر [1] .

وفى القرآن لم يجر الوصف على موصوف ، بل جُعل القرآن نفسه هو « النور » على سبيل الاستعارة التى يحل فيها المشبه به ، وهو هنا النور ، محل المشبه ، وهو القرآن ، وهذا يفيد قوة النسبة بين المشبه والمشبه به ، وصيرورة المشبه هو المشبه به نفسه ، فلا فرق بينهما .

اللهم إلا فى آية « الشورى » ، فقد جرى الوصف بـ « النور » على موصوف ، وهو الهاء فى « جَعَلْنَاه» أى صيَّرنا القرآن نوراً ، وهذا آكد فى الدلالة من « فيها هدًى ونور » ، و« فيه هدًى ونور » ، و« الكتاب المنير » أى الهادى ، والوصف بالمصدر « نور » آكد من الوصف باسم الفاعل « المنير » كقولك : رجل عادل ، ورجل عَدْل ، حيث صار الرجل فى العبارة الثانية هو : العدل نفسه لتمكن هذا الوصف فيه تمكنًا غلب على كل صفات الرجل .

فالقرآن كما احتل المرتبة الأولى فى نسبة « النور » إليه من حيث الكم -

(١) ﴿ فِيهَا هُدًى وَنُور ﴾ - ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُور ﴾ - ﴿ الْكِتَابُ الْمُنِير ﴾ فى هذه الصياغات جُمِعَ بين الوصف والموصوف كما ترى .

– عدد المرات – ومن حيث « الكيف » طريقة التعبير ، وتأتى التوراة فى المرتبة الثانية من حيث « الكم » أما من حيث الكيف فهى والإنجيل فى مرتبة واحدة .

ويتميز « الإنجيل » عن الكتب المجمل ذكرها من حيث الكيف : الوصف بالمصدر « نور » .

وتتقدم هى عليه من حيث « الكم » بنسبة ٢ : ١

* *

● لماذا هذا التفاوت :

أما بالنسبة لتفاوت التوراة على الإنجيل ، فلأن التوراة أول كتاب ينزل على أكبر رسول من رسلهم – موسى عليه السلام – ولأن « الإنجيل » جرى فى « فلك التوراة » وذكّر بها لأنها الأصل الذى جاء « الإنجيل » مخففًا لبعض ما قسا فيها من التشريعات ، ولم ينسخ كل ما جاء فيها من أحكام ، فهو فصول مضافة إلى ما جاء به موسى – عليه السلام .

وما قيل فى تفاوت التوراة على الإنجيل يقال فى الكتب المجمل ذكرها ، لأن فترتها الزمنية واقعة بين التوراة والإنجيل قطعًا .

* *

● تفاوت القرآن على ما عداه :

وأما تفاوت القرآن على ما عداه من كتب سماوية سابقة فللأسباب الآتية :

أولاً : لإنه كلمة « الله » الأخيرة للإنس والجن لم تتقيد بزمان ولا مكان ولا جنس . فلا هدى بعد هداه ، ولا نور يعقب نوره ، ولا الحياة فى حاجة إلى كتاب سواه ، ولا هى فى غنى عن شىء فيه ﴿ .. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ [١] .

---

(١) النحل : ٤٤

ثانيًا : لأنه أقرّ ما جاء به الرسل من قبل ، وشهد لهم بالصدق ، وجعل الإيمان بهم وبما أنزل إليهم مثل الإيمان بخاتم الرسل والأنبياء .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ثالثًا : لأنه جمع ما تفرق على ألسنة الرسل من الدعوة إلى التوحيد ، وأمهات الفضائل ، والإيمان بالحياة الآخرة .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. ﴾ (٢) .

رابعًا : اشتماله على المبادئ والأسس التي تنظم كل شئون الحياة ، وتحقق سعادتي الدنيا والآخرة .

خامسًا : لأنه « الوثيقة الإلهية الوحيدة » التي حُفظَت كما أنزلها الله بلا تَحْريف ولا تَبْديل ، وستظل محفوظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

أما غيره فقد حُرِّف وبُدِّل ، وذهبت ثقة المؤمنين فيه .

سادسًا : إنه المعجزة الإيمانية الخالدة ، الشاهدة بصحة الرسالات وصدق الرسل جميعًا ، وقع التحدي بها في الماضي ، ويقع الآن ، ويقع في كل جيل وعصر حتى قيام الساعة .

لهذا - وغيره - عَظُمَتْ نسبة « النور » في القرآن للقرآن :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) .

* *

---

(١) البقرة : ١٣٦ (٢) المائدة : ٤٨

(٣) الحجر : ٩ (٤) الجمعة : ٤

● **منهج القرآن فى وصف الكتب « السماوية » بـ « النور » :**

من المعلوم أن « النور » فى القرآن أوسع دائرة من وروده وصفاً للكتب « السماوية » فله - فيه - شئون أخرى - وحديثنا عنه كان مقصوراً على مجيئه فى سياق الحديث عن الكتب الموحاة ، وحديثنا عن منهجه مقصور - كذلك - على هذا الجانب .

أولاً : استعمل القرآن « النور » فى الحديث عن الكتب السماوية حسب قيمة كل كتاب ، والأدوار التى أدّتها أو تؤديها فى مجال الدعوة والإرشاد .

ثانيًا : التفاوت بين الكتب السماوية فى نسبة « النور » إليها من جهتين :

* جهة « الكم » أو عدد المرات .

* جهة « الكيف » أو أفخمية الصياغة .

ثالثًا : تمييز القرآن فى نسبة « النور » إليه على ما عداه من جهتى « الكم » و« الكيف » معًا لخصائص موضوعية لا وجود لها فيما عداه .

رابعًا : العلاقة الملحوظة بين « النور » وتلك « الكتب » هى علاقة « المشابهة » - أى الهداية فى كلا الطرفين - سواء كان « النور » مستعارًا ، أو غير مستعار .

* * *

العمى – العمه

تتفق هاتان الكلمتان فى أصل المعنى المراد منهما ، وتتفق لفظًا فى الأصلين الأول والثانى :

العين – الميم . وتختلفان – لفظًا – فى الأصل الثالث ، أو ما يسمى – صرفيًا – بـ « اللام » :

فهو فى الأولى « العمى » ألف مقصورة . وفى الثانية « العمه » : هاء .

أما اختلافهما فى دقائق المعنى ، فهذا يتضح من النظر فى الآيات الآتية :

● التمثيل : (العمى) :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (١) .

﴿ وَحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٣)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ١٠٤ (٢) المائدة : ٧١ (٣) القصص : ٦٦
(٤) الحج : ٤٦ (٥) محمد : ٢٣

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى . . ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . ﴾ (٣) .

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (٤) .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٧) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (٨) .

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ . . ﴾ (٩) .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٠) .

---

(١) هود : ٢٨ (٢) فصلت : ١٧ (٣) فصلت : ٤٤
(٤) النحل : ٦٦ (٥) هود : ٢٤ (٦) الرعد : ١٩
(٧) الإسراء : ٧٢ (٨) طه : ١٢٤ - ١٢٦ (٩) الفتح : ١٧
(١٠) البقرة : ١٨

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴾ (١) .

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى .. ﴾ (٢) .

* فى هذه الآيات : تواردت معانى المادة (ع . م . ى) على محورين :

(أ) محور المعانى اللغوية الوضعية .

(ب) محور المعانى المجازية :

وقد وردت المعانى الحقيقية فيما يحدث فى الدنيا على مجال التشريع والإخبار القصصى ، ونفى المساواة بين المؤمن والكافر ، ففى مجال التشريع استعملت المادة فى نفى الحرج عمن فقد بصره فى بعض التكاليف ، كالجهاد . ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ .

وفى مجال الإخبار القصصى استعملت المادة فى ما حدث من صاحب الدعوة ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ .

وفى مجال نفى المساواة بين المؤمن والكافر استعملت المادة فى تشبيه الكافر بالأعمى . . . والمؤمن بالبصير .

* أما ورودها فى المعانى المجازية فقد ترددت المادة بين الإشارة إلى ضلال المعتقد ، والجهل وعدم الإدراك ، وبين الإخفاء والتغطية ، ثم الوعيد .

* إن لغة القرآن تستعمل « عمى » وما تصرف منها فى طمس الأبصار حقيقة .

ثم تستعيرها لمعان مجازية تربط بينها وبين معناها الحقيقى علاقة وثيقة :

فعمى القلوب عدم إدراكها لدلائل الحق ، وتمكن الجهل فيها - أى عمى البصيرة - فهى لا تحس ولا تفقه شيئًا .

---

(١) الإسراء : ٩٧ (٢) عبس : ١ ، ٢

ويتعى القرآن – فى مواضع – على الضالين ضلالهم ، ويقبح حالهم ، فلا يكتفى بوصم قلوبهم بالعمى ، حتى يجمع إلى « عماها » زوال سمعهم وشلل ألسنتهم ، فهم لا يرون ، ولا يسمعون ، ولا يتكلمون ، أنهم كالدمى جمودًا وتحجرًا ، وإن كان لهم سمت الآدميين : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) أنهم – بسبب عماهم – معزولون عن العالم الخارجى ، لا توقظهم موعظة ، ولا تثمر فيهم حجة ، ولا يخيفهم إنذار ، فكيفما كانوا فالعمى ملاحقهم :

عُمْى ، وعَمون ، وعَمين ، وهو عليهم عَمًى ، بل وأموات غير أحياء ، وأكثر ما يرمز به القرآن إلى الضلال والجهل والكفر هو العمى ، لأن الأعمى لا يدرك شيئًا مما حوله .

لذلك كثرت تصرفات المادة فى القرآن ، فجاء منها الفعل الماضى مرات ، والمضارع ، والوصف والاسم فى صور مختلفة .

* *

● التمثيل : (الْعَمَهُ) :

﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .

﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِىَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٤) .

﴿ .. فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٥) .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ (٢) البقرة : ١٥ (٣) الأنعام : ١١٠

(٤) الأعراف : ١٨٦ (٥) يونس : ١١ (٦) الحجر : ٧٢

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) .

هذه الآيات السبع جاءت فيها مادة : العين والميم والهاء ، فعلاً مضارعًا سبع مرات . والمراد منها الحيرة ، والتردد والارتباك ، واشتقاق عمه من الأرض العمهاء ، وهى التى لا تكون بها علامات للنجاة من الهلاك أو سلامة السير .

ومعنى هذا أن معنى عمه : ضل وتحيَّر ضلالاً مُهْلِكًا ، أو دخل فى حيرة لا خروج منها .

فالعمى حقيقة فى فقد البصر ، ويستعار لضلال المذهب ، والرأى . والعمه حقيقة فى السير فى الأرض الواسعة التى لا يرى السائر فيها طريقًا يطمئن إليه للخروج منها ، ويستعار للحيرة والتردد النفسى بين أمور لا يُعرفُ الضارُّ منها من النافع .

وهذا يكشف لنا عن السر البيانى فى اقتصار القرآن على الفعل المضارع « يعمهون » فى سياق الحديث عن الكفر وأهله ؛ لأن فى هذا الفعل تصويرًا لانغماسهم فى القلق ، وتماديهم فى الباطل ، بلا هادٍ يهديهم ، ولا مغيث يغيثهم ، ولا منقذ يخرجهم مما هم فيه .

وقد ضاعف من تكثيف ظلال الحيرة والتردد الفعل « تذرهم » ، وحرف الجر « فى » الذى صيَّر حيرتهم التى هم فيها باحتواء « الظرف » على «المظروف » ، فهم لا يرون بصيصًا من أمل ، ولا منفذًا للخروج ، وقد استعار القرآن « يعمهون » لطمس القلوب وعدم الإحساس ، وهذا أشد خطرًا . وأوخم عقبى ، وأسوأ مصيرًا من « عمى البصر » . وأعمى البصر - إذا كان بصير البصيرة - زاكٍ عند الله وعند الناس ، وابن أم مكتوم كان أعمى البصر ،

(١) المؤمنون : ٧٥ (٢) النمل : ٤

ولكرامته عند الله - لأنه بصير البصيرة - عاتب فيه أكرم خلقه ﷺ ، وزكّاه وشهد له بالخير ، وفى القرآن الحكيم آية لا ترى فى فَقْد البصر مسبة كما تراها فى فقد البصيرة وعمى القلب :

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١).

والمراد بـ « عمى القلوب » هنا : العَمه ؛ لأنه منهج القرآن فى التفرقة بين فقد البصر المحسوس . وفقد البصيرة العقلية .

ودراستنا لهاتين المادتين : (عمى - عمه) كانت من أجل أن نبين تفرقة القرآن بينهما فى دقائق المعنى ، بعد اشتراكهما فى أصل المعنى العام ، وهو عدم الإدراك .

إن العمى فى القرآن خاص بفقد البصر ، وفقد البصر ليس دائمًا مسبة ولا نقصًا .

والعمه فى القرآن مستعار لضلال القلوب وفسادها ، وهو مسبة ونقص دائمًا .

فاستعمل القرآن « العمى » فى فَقْد البصر لخفة المصيبة فيه .

واستعمل « العمه » فى فقد البصيرة لعظم المصيبة فيه .

وإذا فحصنا البنية « الصرفية » لكل من « العمى » و« العمه » وجدنا بنية « العمه » أكثر تحجرًا وجمودًا ، وأصلب عودًا من « العمى » .

لأن « العمى » لامه حرف علة لا يثبت فى بعض الأحوال ، وفى القرآن جاء محذوفًا فى :

« عمون - عمين » . وأحيانًا يحذف نطقًا وإن بقى خطا كما فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ، وفى غير القرآن يقال : « عمٍ » فى أعمى ، أما « عمه » فأصوله الثلاثة : الفاء والعين واللام ، باقية فى كل حال .

---

(١) الحج : ٤٦

لذلك – والله أعلم – استعمل القرآن : الثقيل « عمه » فى « الثقيل » فقد البصيرة .

واستعمل الخفيف « عمى » فى الخفيف « فقد البصر » وهذا من التناسب العجيب بين الألفاظ ومعانيها ، وفى القرآن نفسه نظائر أخرى لهذه «اللطائف » مثل :

القارعة – الطامة – يَدعُّ – يُدعُّون – صرصر – تهوى به الريح . . وهكذا .

* *

● **منهج القرآن فى « العمى – العمه » :**

أولاً : كلتا الكلمتين مستعملتان فى فقد الإدراك ، وهو أصل الدلالة فيهما .

ثانيًا : استعمال « العمى » حقيقة فى فقد البصر ، ومجازًا فى الضلال والإخفاء والتغطية والوعيد ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

ثالثًا : قَصْر « العمه » على المعانى المجازية ، واستعارته لضلال المذهب والرأى وسوء المصير ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

رابعًا : كثرة التصرف « الصرفى » فى « العمى » وقصره على الفعل المضارع فى « العمه » مع وقوعه فى فواصل الآى دائمًا .

خامسًا : شدة التناسب بين كل من « العمى » ، و« العمه » وبين المعنى المدلول عليه بكل منهما :

الثقيل فى الثقيل ، والخفيف فى الخفيف على النحو الذى سبق بيانه .

سادسًا : اختصاص « العمى » فى نفى المساواة بين المؤمن والكافر .

سابعًا : اختصاص « العمى » الحقيقى بمقام التشريع والإخبار القصصى .

ثامنًا : اقتران « العمى » أحيانًا بآفات أخرى مذمومة كالبكم والصمم ، ثم المناظرة بينه وبين الإبصار فى مواضع أخرى .

* * *

الصوم – الصيام

لا تفرق كتب اللغة بين الصوم والصيام ، كلاهما بمعنى واحد عند أئمة اللغة ، حتى الذين وضعوا مصنفات فى مفردات القرآن يوردون الصوم والصيام بمعنى واحد ، هو مطلق الإمساك عن الفعل طعامًا كان أو غير طعام، وتوسع بعض الشعراء فأطلق على الخـيل التى أمسكت عن السير بأنها « صيام». قال النابغة الذبيانى :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللُّجُمَا

يقصد بالخيل الصيام الممسكات عن السير ، وبغير الصائمات السائرات .

أما القرآن ، فالوضع فيه مختلف بالنسبة لدلالة كل من هاتين الكلمتين ، وليس معنى هذا أن الاستعمال الذى شاع فى اللغة خارج القرآن ، غير صواب . وإنما الذى نقوله – وقد قلناه من قبل :

أن القرآن الحكيم الذى نزل بعلم الله يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل ، ويوظف كل « كلمة » توظيفًا حكيمًا ودقيقًا لا يُعْلى عليه ، وذلك هو الإعجاز اللغوى الذى نترسم خطاه ، ونزيح اللثام – بقدر طاقتنا المتواضعة – عن ملامحه وقسماته الوضيئة .

وكما عودنا القارئ الكريم منذ البداية فى هذا العمل ، فإننا نذكر أولاً الآيات التى وردت فيها هاتان الكلمتان : الصوم والصيام ، ثم ننظر فيها لنستجلى التفرقة القرآنية بين الصوم والصيام ، فهيا إلى التمثيل والنظر :

● **التمثيل :**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٨٣

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ . . ﴾ (١) .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ . . ﴾ (٢) .

﴿ . . وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ . . ﴾ (٣) .

﴿ . . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ . . ﴾ (٤) .

﴿ . . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا . . ﴾ (٥) .

﴿ . . لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ . . ﴾ (٦) .

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة : ١٨٧ (٢) البقرة : ١٩٦ (٣) النساء : ٩٢
(٤) المائدة : ٨٩ (٥) المجادلة : ٤ (٦) المائدة : ٩٥
(٧) مريم : ٢٦

في هذه الآيات وردت كلمة « الصيام - صيام - صيامًا » ثماني مرات ، أما « صومًا » فقد ورد مرة واحدة .

وظاهر ظهور الشمس في منتصف النهار أن القرآن استعمل « الصيام » وصوره الأخرى مرادًا منه معنى خاص غَير المعنى الذي أُرِيد من « صومًا » .

الصيام أُريد منه تلك العبادة المخصوصة التي لا تتحقق إلا بالإمساك عن الطعام والشراب والاتصال الجنسي بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وقد تكررت كلمة « الصيام » مرادًا بها ما يأتي :

* صيام شهر رمضان .
* صيام كفارة الظهار .
* صيام كفارة اليمين .
* صيام جزاء الصيد .
* صيام كفارة القتل الخطأ .
* صيام التمتع بالعمرة إلى الحج .
* صيام الفدية للمحرم بالحج إذا ارتكب مخالفة لا تفسد الحج .

هذه « الصيامات » كلها لا بد فيها من الكف عن المفطرات طيلة النهار . وهذا لا خلاف فيه .

أما « صومًا » الواردة في سورة مريم آية (٢٦) فالمراد منها الكف عن الكلام فحسب ، بدليل ما جاء بعدها مباشرة : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًا ﴾ .

إذًا فليس معنى الصيام هو معنى الصوم ، ولا معنى الصوم هو معنى الصيام ، كما يفهم كثير من الناس ، وحتى أهل العلم منهم ، ولو كان «الصوم » يؤدى معنى « الصيام » لجاء ذكره في القرآن ، ولو مرة ، بدلاً من « الصيام » الوارد في القرآن ثماني مرات .

والتزام القرآن ذكر الصيام فى المرات الثمانى دليل على أن هذه الكلمة لا تؤدى معناها كلمة « الصوم » وإلا لما كان لهذا الالتزام القرآنى معنى .

* *

● ولماذا هذا الالتزام ؟

لا نزاع أن الإمساك عن شهوتى البطن والفرج أمر شاق على النفس ، شتاء وصيفًا ، أما شتاء فللإحساس بالجوع ، وأما صيفًا فللإحساس الشديد بالعطش مع أطولية النهار على الليل .

أما الإمساك عن الكلام فأمره يسير ، ولا مشقة فيه ، بل ربما كان فيه راحة للنفس ومتعة .

لذلك التزم القرآن « الصيام » فى التكاليف الشاقة ، وخص الصوم بالأمر السهل ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . والصيام أكثر حروفًا من الصوم. فناسب كل منهما معناه المراد منه ، الصيام للتكليف الشاق ، والصوم للصمت السهل .

* *

● منهج القرآن فى « الصوم - الصيام » :

أولاً : يفرق القرآن بين الصوم والصيام من حيث المراد من كل منهما :

فالصوم - ولم يرد فى القرآن إلا مرة واحدة - معناه الإمساك عن الكلام - أى الصمت - :

﴿ فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيا ﴾ .

أما الصيام فمعناه : الإمساك عن شَهْوَتى البطن والفرج بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ثانيًا : ورد الصيام فى لغة القرآن مقصودًا به العبادة المعروفة ثمانى مرات معرفًا بـ « أل » مرتين ، ومعرفًا أو مخصصًا بالإضافة أربع مرات . ومقطوعًا عن الإضافة والتعريف مرتين .

ثالثًا : اختصاص « الصيام » بالتكاليف الشاقة ، والصوم بالكف عن الكلام ، وهو أمر يسير ، وفى هذا مناسبة حميمة بين اللفظ والمعنى فى كلٍ منهما ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا .

رابعًا : عدم إحلال « الصوم » محل « الصيام » ولو مرة واحدة فى المواضع الثمانية ، دليلٌ قاطع على عدم صلاحية « الصوم » لغةً وبيانًا للدلالة المرادة من « الصيام » فلا ترادف إذًا بين الكلمتين قطعًا .

* * *

ذَاقَ – ذُقْ

للقرآن فى استعمال المواد اللغوية منهج عام مطرد فى كل المواد التى شرفت بورودها فى القرآن . وهذا المنهج العام يدور حول ثلاثة أقطاب :

* فَبَعضُ الْمَوَاد يَسْتَعمِلُهَا القرآن فى كل صيغها فى المعانى الوضعية اللغوية ، أو المعانى الحقيقية ، التى أرادها واضع اللغة .

* وبعض المواد يستعملها فى المعانى المجازية فى جميع صورها .

* وبعض المواد يستعملها أحيانًا فى معانيها الوضعية الحقيقية ، ويستعملها أحيانًا أخرى فى معان مجازية . أى أن المادة فيه مادة حقيقة ومجاز . وفى هذا « النوع » كثيرًا ما تجد للقرآن منهجًا داخليًا خاصًا بالمادة نفسها . أى أنه يستعمل بعضًا من صورها حقيقة . وبعضًا مجازًا مع التزام هذا المنهج الداخلى فيما تستعمل فيه بعض صور المادة حقيقة ، وبعضها مجازًا .

وهذا ينبئ عن نظام دقيق للغاية فى استخدام اللغة ، لا يتجلى إلا من خلال الدرس الواعى ، والنظر الفاحص ، والتأمل العميق .

والآن نضع بين يدى القارئ دراسة شاملة لمادة « ذاق » فى القرآن ، تطبيقًا لهذا المنهج الذى ألمحنا إليه ، ثم ننظر إلى أى الأقطاب الثلاثة تنتمى هذه المادة .

ولنسر سيرتنا التى سرناها فى هذه الدراسة بادئين بـ « التمثيل » .

● **التمثيل :**

﴿ . . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (1) .

---

(1) الطلاق : 9

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ . . ﴾ (١) .
﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ . . ﴾ (٢) .
﴿ . . أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ . . ﴾ (٣) .
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّنْ رَّحْمَتِهِ . . ﴾ (٤) .
﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . . ﴾ (٥) .
﴿ . . أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . . ﴾ (٦) .
﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ (٧) .
﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٨).
﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٩) .
﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ . . ﴾ (١٠) .
﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . ﴾ (١١) .
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . ﴾ (١٢) .
﴿ وَلَئِن أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ﴾ (١٣) .
﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا . . ﴾ (١٤) .
﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١٥) .

---

(١) الحشر : ١٥ — (٢) التغابن : ٥ — (٣) المائدة : ٩٥
(٤) الروم : ٤٦ — (٥) الأنعام : ١٤٨ — (٦) الأنعام : ٦٥
(٧) النبأ : ٢٤ — (٨) الذاريات : ١٤ — (٩) القمر : ٤٨
(١٠) النحل : ١١٢ — (١١) الزمر : ٢٦ — (١٢) آل عمران : ١٨٥
(١٣) هود : ٩ — (١٤) الأعراف : ٢٢ — (١٥) الحج : ٢٥

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا . . ﴾ (٢) .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٣) .

حرصنا فى هذا التمثيل أن نذكر أمثلة أو مثالاً لكل ما وقعت عليه الإذاقة أو الذوق ؛ لأن تحديد الجهة التى تنتمى إليها هذه المادة من الحقيقة والمجاز إنما تُعْرف بذكر مفعولها ، وأكثر ما وقع مفعولاً لها هو العذاب موصوفًا وغير موصوف ، وبعض الآيات جاءت بعض صيغ المادة الفعلية محذوفة المفعول ، ولكن المقام يدل عليه ، بل ويحدده ، وإذا استعرنا من علماء أصول الفقه القاعدة المشهورة عندهم : أن المطلق يُحْمل على المقيد ، فإن ما لم يذكر مفعوله من صور مادتنا هذه تحمل على ما ذكر مفعوله ، وهو العذاب ، والمفاعيل التى وقع عليها الذوق أو الإذاقة فى الآيات المتقدم ذكرها ، والتى لم نذكرها هى :

الوبال - الرحمة - النعماء - البأس - السوء - البرد - الشراب - الفتنة - المس المضاف إلى سقر - يعنى جهنم - اللباس المضاف إلى الجوع والخوف - الخزى - الموت - الشجرة - العذاب - الحميم والغسَّاق - العمل - الكسب - بعض العمل - الكنز .

وقد عبَّر عن الأربعة الأخيرة بالاسم الموصول ، وصلته ما ذكرناه مثل :

﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا . . ﴾ (٤) .

وهذه - كلها - لا يسوغ أن تكون « مفعولاً » للذوق من غير صرف عن الظاهر ، إلا موضعان سنقف معهما وقفة كاشفة ، لأن الذوق لغة هو :

---

(١) السجدة : ٢١ (٢) فصلت : ٢٧

(٣) الدخان : ٤٩ (٤) الروم : ٤١

« وجود الطعم فى الفم » .

وهذا لا يكون إلا لما يُشرب ، وهو الأغلب - أو لما يُؤكل ، ولا شيء مما تقدم - إلا الموضعان المشار إليهما - طعام ولا شراب . لذلك وجب الصرف عن الظاهر ليتبين المراد .

وللصرف عن الظاهر - هنا - طريقتان :

أما **أولاهما** : فتكون بصرف « الذَّوق » عن حقيقته اللغوية ، فيكون استعارة للإحساس بالنعمة أو العذاب .

والجامع بين الذوق - المشبه به - وبين الإحساس - المشبه - هو « قوة الوجدان » أو « شدة الإحساس » ، وبعض العلماء فسَّر العلاقة هنا بـ « التجربة» أو« حصول المعرفة » ومع وجاهة هذا التفسير فإنه لا يطرد فى كل موضع من مواضع استعمال « الذوق » فى الآيات المذكورة .

فهو سائغ - مثلاً - فى قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، أى : جربوا ألم النار .

وليس سائغًا - مثلاً آخر - فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً .. ﴾ .

إذ لا يستساغ حمله على : إذا جربنا الإنسان منا رحمة .. والصواب أن يقال : إذا خوَّلنا الإنسان ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن .

فقد ورد هذا فى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [1] .

والتخويل : الإعطاء ، أى إذا أعطاه نعمة ، ويكون التعبير عن هذه المعانى بـ « الإذاقة » إشارة إلى تمكُّن الإنسان من النعمة والرحمة تمكنًا جعله شديد الإحساس بها فى شئون حياته .

---

(١) الزمر : ٨

والإذاقة فى المطعومات كالمس فى المحسوسات ، كلتاهما مستعارتان لشدة الإحساس وقوة الوجدان ، والاستعارة فيهما تصريحية تبعية .

والمس مستعار فى لغة القرآن للإصابة ، فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌ . . ﴾ [1] ، أى : أصابه إصابة موجعة يجد أثرها فى نفسه ويحس بها إحساسًا شديدًا .

وطريقة الاستعارة التصريحية أقرب إلى بيان المراد من الذوق والإذاقة من أى توجيه آخر .

أما الطريقة الثانية فهى جواز الحمل على الاستعارة المكنية ، فيشبه العذاب - مثلاً - بمطعوم أو مشروب . ثم يقدر المشبه به محذوفًا ، ويكون « الذوق » أو « الإذاقة » مُوقعةً على العذاب هى قرينته المكنية .

هذا فى « المكروهات » كالعذاب والوبال والفتنة والسوء ، أما فى المحبوبات كالرحمة والنعماء فيجرى فيها ما جرى فى المكروهات .

ويكون المغزى البلاغى فى المكروهات أن العذاب وأشباهه صار بمنزلة المطعوم والمشروب لهم : فى الملازمة والغدو والرواح فيه . وفى المعاناة من شدة وطأته .

أما فى المحبوبات فهو الإشارة إلى جلال النعمة وسهولة الانتفاع بها ، ولذة التمتع بتناولها .

* *

● **الموضعان المستثنيان :**

سبقت الإشارة إلى استثناء موضعين من المواضع التى أوقعت الإذاقة أو الذوق فيها على « المفاعيل » التى وردت فى الآيات .

---

(1) الزمر : ٨

فقد قلنا من قبل إن هذه « المفاعيل » كالعذاب والبأس ليس مما يذاق لغة ، وأنه لا بد من صرفها عن ظواهرها ليتبين المراد من الكلام . وحاولنا ذلك الصرف عن الظاهر فى بعض الأمثلة ليقاس عليها غيرها .

والموضعان اللذان أرجأنا الحديث عنهما هما قوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أى آدم وحواء ، وقوله تعالى فى سورة النبأ :

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ .

فذوق الشجرة مجاز من حيث أوقع « الذوق » عليها ، والمراد ثمرها لا ذاتها ، والمجاز – هنا – مرسل علاقته إما المحلية لأن الشجرة محل الثمر .

وإما الكلية ، حيث أطلق الكل « الشجرة » وأريد الجزء : « الثمر » هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن فيه استعارة الذوق للأكل ، حيث ورد الأكل مصرحًا به فى قوله تعالى :

﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا . . ﴾ (1) .

والمغزى من استعارة « الذوق » لـ « الأكل » أن الذى حذَّرهما الله منه وقع بمجرد أن ذاقا الشجرة ، فضلاً عن الأكل منها ، فكان الخير فى امتثال أمر الله . وإلا فإن يسير المخالفة موقع فى الضرر .

وفى هذا إشارة إلى عظمة حكمة الله فيما ينهى عنه أو يأمر به ، وعلى أية حال فإن « الذوق » هنا يكتنفه المجاز من كل جهة ، وإن بدا أمام النظر العابر أنه حقيقة لغوية .

أما موضع « النبأ » : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ ، فإن « شرابًا »

---

(1) طه : ١٢١ .

يصح أن يكون « مفعولاً لـ « يذوقون » على سبيل الحقيقة لا المجاز . لكن عطف « شرابًا » على « بردًا » وَجَعْل « بردًا » مفعولاً بالأصالة لـ « يذوق » قد يميل بالفهم ميلاً آخر .

فباتفاق أن إيقاع « الذوق » على « بردًا » مجاز لا حقيقة ، والبرد هنا معناه الروح التى تنفّس عنهم اختناق النار . .إذًا فمعنى الذوق - هنا : الرؤية . كما قال تعالى فى نظير هذا : ﴿ . . لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ (١) .

وعلى هذا فقد يكون المعنى فيه : لا يرون فيها بردًا ، ويكون عطف « شرابًا » عليه للمشاركة فى المعنى ؛ إذ من المعروف أن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه ، أى : لا يرون بردًا ولا يرون شرابًا .

ويكون نفى الرؤية الواقعة على البرد والشراب كناية عن حرمان أهل النار من هاتين النعمتين . كما كان نفى الشمس والزمهرير كناية عن عدم التأذّى بهما ، والتنعم بأضدادهما وهما الظل الظليل والنسيم المنعش .

وعلى هذا فإن حمل « الذوق » الواقع على الشراب على المجاز مسلك سائغ . بل وأرجح - فيما نرى - من الحمل على الحقيقة - لأن نفى الرؤية يستلزم نفى وجود الشيء ونفى وجود الشيء يستلزم نفى الانتفاع به .

وبهذا يمكن أن نقول :

إن مادة « ذاق » فى القرآن الكريم مادة مجاز ، لا مادة حقيقة ، ولا مادة حقيقة ومجاز .

* *

● الذوق والإذاقة :

جاءت المادة فى لغة القرآن متعدية لمفعول واحد : ذاق ، ومتعدية لمفعولين بالهمزة : أذاق » .

---

(١) الإنسان : ١٣ .

بيد أننا لاحظنا أنها إذا استعملت فى « المحبوبات » جاءت متعدية لمفعولين، والفاعل هو الله .

وإذا استعملت فى « المكروهات » ترددت بين الأمرين : التعدى لمفعول واحد ، والتعدي بالهمزة إلى مفعولين ، والفاعل هو الله كذلك ، وكون فاعل المتعدى لمفعول واحد هو غير « الله » لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شيء .

أما الإذاقة فإن فاعلها هو الله لا غيره ؛ لأنها إيقاع للذوق على غير الفاعل .

والسر - والله أعلم - فى اختصاص « المحبوبات » بالإذاقة التى هى فعْل الله ، أن المحبوبات نعم يمن الله بها - وحده - على من يشاء من غير استحقاق لأحد عليه ، لذلك أُسْنِدَت إليه لأنه واهبها :

﴿ وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١) .

أما تردد إسناد الذوق فى المكروهات إلى غير الله ، والإذاقة إلى الله فللإشارة إلى أمرين :

الأول : كون الذين استحقوا ذوق العذاب ، ونظائره هم السبب فيما حل بهم ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

الثانى : أن مصيرهم المؤلم إنما هو قضاء الله فيهم بالعدل والحكمة ، جزاء وفاقًا .

هذا هو البيان القرآنى المعجز ، ينتقى مفردات اللغة حسب علم الله المحيط ، ويصرفها تصريفًا بديعًا وفق نظام مذهل ، تراه وراء كل كلمة ، وكل جملة ، ومن أحسن من الله حديثًا ؟ لا أحد ، وصدق الله العظيم :

---

(١) النحل : ٥٣

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* *

● **منهج القرآن فى « الذوق » :**

أولاً : استعمل القرآن مادة « ذاق » فى المكروهات والمحبوبات ، بيد أن استعماله إياها فى المكروهات أكثر .

ثانيًا : مجئ المادة فيه متعدية لمفعول واحد ، والفاعل غير الله - ضرورة - ومتعدية لمفعولين والفاعل هو الله وحده .

ثالثًا : فى المحبوبات التزم القرآن مجيئها متعدية لمفعولين والفاعل هو « الله وحده » ؛ لأن المحبوبات نعمة : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

رابعًا : وفى المكروهات فإن فاعل « الذوق » غير الله ؛ لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شىء ، أما فاعل « الإذاقة » فهو « الله » لأنه القائم على كل نفس بما كسبت .

خامسًا : إسناد « الذوق » إلى غير الله إشارة إلى استحقاقهم العقاب بما قدمته أيديهم .

وإسناد « الإذاقة » فى المكروهات إلى الله وحده ، لأنه هو الذى قضى عليهم بسوء المصير بما اكتسبوا وجنَوْا جزاءً وفاقًا .

سادسًا : مادة « ذاق » فى لغة القرآن مادة مجاز ، كيفما جاءت . سواء فى ذلك استعمالها فى « المحبوبات » أو « المكروهات » .

وهى مستعارة فى القرآن لشدة الإحساس ، وقوة الوجدان .

* * *

---

(١) الأعراف : ٥٢

الخاتمـــة

عزيزى القارئ الكريم ، ها ها أنتذا قد فرغت من قراءة هذه الدراسة ، ووقفت على شىء من أسرار الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ، ورأيت الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ، ورأيت كيف كان للمفردات القرآنية من دور عظيم فى استجلاء سمات الإعجاز فيه ، وكيف وقع اللفظ فيه موقعه من بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة ، وإلى أى مدّى استعمل القرآن الأدوات اللغوية استعمالاً أمثل هو الفيصل بين الأسلوب القرآنى المعجز ، وبين كلام البشر فى أرقى نماذجه وصوره ، وإننا لنحسب أن أبرز ما أسفرت عنه هذه التجربة أمران :

الأول : أن ظاهرة الترادف اللغوى تكاد تكون معدومة فى لغة القرآن ، أو هى كذلك فعلاً فى المواد اللغوية التى تناولتها الدراسة ، لأن لكل لفظ قرآنى خاصية فريدة ، ودلالة دقيقة لا توجد فى سواه من الألفاظ المشتركة معه فى أصل المعنى ، وقد مرت بنا عشرات الشواهد على هذا المسلك الإعجازى البديع .

الثانى : تلك المناهج التى رصدناها عقب الفراغ من كل مادة لغوية شرفت باستعمال القرآن له ، وقد أوجزت تلك المناهج التطبيقية طرائق القرآن فى توظيف اللغة ، وفى هذا إشارة إلى أن لكل مادة لغوية فى القرآن منهجاً خاصاً بها .

فقد رأينا - مثلاً - كيف وظّف القرآن مادة ختم ، ومادة طبع ، ومادة ربط ، مع أن هذه المواد الثلاث لها أصل دلالى واحد ، إلا أن القرآن وظف كلاً منها فى تأدية معانى متباينة من مادة إلى أخرى ، ولم تخلُ مادة من المواد الثلاث من دواع ومقتضيات بلاغية ، خصصت معانيها بالمقام الذى استعملت

فيه، وهكذا تفتح هذه الدراسة أبواباً جديدة فى مجال الإعجاز القرآنى البلاغى اللغوى ، وهو الوجه المختار ، والمجمع عليه بين جميع الباحثين قديماً وحديثاً ، من جملة وجوه الإعجاز الأخرى ، وإننا لنهيب بالباحثين فى إعجاز القرآن أن ينهجوا هذا المنهج . أما نحن ، فبالإضافة إلى ما قدمناه هنا فإن لدينا العزم على إعداد جزء ثان مكمل لهذا الجزء . نسأل الله تعالى أن يعيننا على إخراجه وييسر لنا سبل السير فيه . راجين منه العفو عن الزلل ، إنه رحيم ودود .

المؤلف عفا الله عنه

رقم الإيداع : ٩٨٨٨ / ٩٦
I. S. B. N: 977 - 19 - 1614 - 9

فهرس الموضوعات